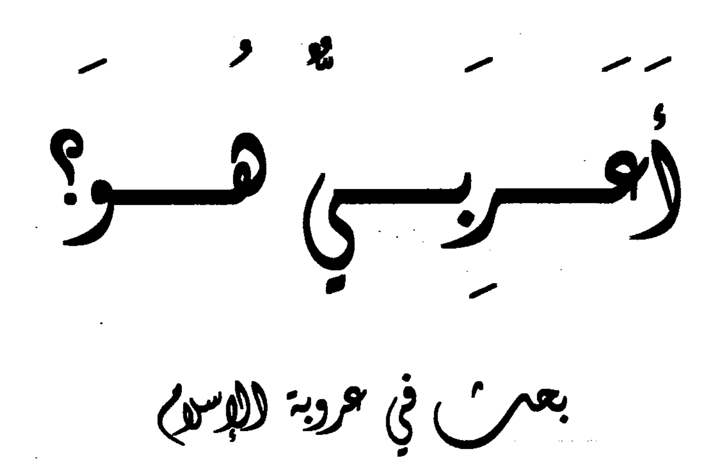
سلسلة الحقيقة الصعبة (٤)



أبو موسى الحريري

دار لأجل المعرفة
ديارعقل–لبنان
٢٠٠٧



مقدمة

في مسلّمات المسلّمين: الإسلام هو خير دينٍ ارتضاه اللّهُ لعباده (٥/ ٣). هو تمام الأديان وكمالها، و«مَن يَبتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلَنْ يُقْبَلَ منه» (٣/ ٨٥)؛ لـ «إنّ الدِّينَ عندَ اللّهِ الإسلام» (٣/ ١٩). و«مَنْ يُرِدِ اللّهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدرَهُ للإسْلام» (٦/ ١٢٥)، و«هُوَ عَلَى نورٍ مِن ربِّه» (٣٩/ ٢٢).

والنبيّ محمّد هو «رسولُ اللّهِ وَخَاتَمُ النبيّين» (٣٣/ ٤٠)، وسيّد المرسَلين، أرسله اللّهُ «رحمةً للعالِمين» (٢١/ ٧)، وقد بعثه «بالحقِّ شَاهِداً ومُبَشِّراً وَنَذيراً»[١].

والمسلمون هم «خَيرُ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس» (٣/ ١١٠)، «يَدْعُونَ إلى الخَيرِ، وَيَأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ»[٢]، وهم «الحَافِظُونَ لحُدودِ اللّه»[٣]. هم «أمّة مقتصدة» (٥/٦٦)، «أمّة وسط» (٢/ ١٤٣)، «أمّة واحدة»[٤]، مسلمة» (/ ١٢٨).

والقرآنُ هو كتاب اللّه المجيد[٥] الكريم[٦] العظيم[٧] الحكيم[٨] المنير[٩]

---

(١) أنظر السور التالية: ٣٣/ ٤٥ ؛ ٤٨/ ٨؛ ٢/ ١١٩؛ ١٧/ ١٠٥؛ ٢٥/ ٥٦ ؛ ٣٤/ ٢٨.

(٢) رَ: ٣/ ١٠٤؛ رَ: ٣/ ١١٠؛ ١١٤؛ ٧/ ١٥٧؛ ٩/ ٧١ و١١٢؛ ٢٢/ ٤١؛ ٣١/ ١٧..

(٣) سورة التوبة ٩/ ١١٢؛ رَ: ٢/ ١٨٧ و٢٢٩؛ ٥٨/ ٤؛ ٦٥/ ١...

(٤) سورة الأنبياء ٢١/ ٩٢؛ رَ: ٢٣/ ٥٢.

(٥) سورة ق ٥٠/ ١؛ رَ: ٨٥/ ٢١.

(٦) سورة الواقعة ٥٦/ ٧٧؛ رَ: ٢٧/ ٢٩.

(٧) سورة الحجر ١٥/ ٨٧؛ رَ: ٣٨/ ٦٧؛ ٧٨/ ٢.

المبين[١٠]، ليس فيه عوج[١١] ولا اختلاف (٤/٨٢) ولا ريب (٢/٣٢). إنّه «الحقّ اليقين» (٦٩/٥١) والقول الفصل (٨٦/١٣).

***

وفي مسلّمات العروبيّين أيضاً: أنّ العرب هم أشرف خلق اللّه. قال جبريل: «قطعتُ الأرض قاطبةً، من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، ولم أجد شيئًا أنبل وأشرف من العرب»[١٢]. «والعربيّ، بين غيره من البشر... هو آية في ذاته. وليس هو غيره فيه، أو غيره في صورته»[١٣].

واللّغة العربيّة هي لغة أهل الجنّة، ولغة آدم في الفردوس، ولغة إسماعيل بعد أن هداه اللّه، ولغة كتاب اللّه المنزل الذي لا يموت. وهي به «ستبقى بمناجاةٍ من هذا الموت. وستبقى حيّة في كلّ زمان، مخالفةً لنواميس الطبيعة التي تسري على سائر لغات البشر»[١٤]؛ وهو بها «معجز في نفسه من حيث هو كلامٌ عربي»[١٥].

والبلاد العربيّة هي «أهم بقعة استراتيجيّة في العالم»؛ لأنّها أغنى البلاد أرضاً وتاريخاً، وأخصب بقاع الأرض شمساً وتربةً ومناخاً، وأقدم البلدان عمراناً وحضارةً، وأفضل منطقة في العالم لظهور الأنبياء والأديان فوقها[١٦].

---

(٨) سورة يس ٣٦/٢؛ رَ: ٣/٥٨؛ ١٠/١؛ ٣١/٢.

(٩) سورة آل عمران ٣/١٨٤؛ رَ: ٣٥/٢٥.

(١٠) سورة الحجر ١٥/١؛ رَ: ٢٧/١؛ ٣٦/٦٩؛ ٥/١٥.

(١١) سورة الزمر ٣٩/٣٨؛ رَ: ١٨/١.

(١٢) ورد هذا القول في «يقظة العرب» لنجيب عازوري، ص ١٩٧.

(١٣) أحمد موسى سالم، العقل العربي، ص ٤٩.

(١٤) أنور الجندي، الإسلام والدعوات الهدّامة، ص ٢٦٩.

(١٥) الدكتور مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، ص ١٥٧.

(١٦) منير شفيق، في كتاب «القوميّة العربيّة والإسلام»، ص ٦٢٩؛ رَ أيضًا: ص ٦٥٠.

فلأجل فضل الإسلام والقرآن والنبيّ محمّد، من جهة، وفضل العرب واللّغة العربيّة والبلاد العربية من جهة ثانية، يرى المسلمون والعروبيّون الفضلَين اجتمعا معًا في أمّة واحدة؛ إلى درجة أنْ أصبحت «العلاقة بين الإسلام والعروبة، وبين القوميّة العربيّة والحضارة الإسلاميّة... علاقة ترابط عضويّ جذري تكويني، علاقة هي بحقّ عروة وثقى»[١٧]. ألعلاقة بينهما لها «دور تكامل حضاري، لأجل صياغة عالم جديد»[١٨]. ولا عجب في ذلك، لأنّ العرب كانوا أوّل مَن اعتنقوا الإسلام، وبشّروا به، وأجرى اللّه على أيديهم «الفتحَ» و«النصر» والفتوحات كلّها.

هؤلاء العرب ليس ما لهم يوجَد عند غيرهم، وليس ما لغيرهم لا يملكونه على أحسن وجه. ذلك لأنّ العروبة كانت ولا تزال «وعاء الإسلام»، والعرب هم «مادّة الإسلام»، واللغة العربيّة هي لغة القرآن العظيم.

كم من الإيدويولوجيات الفكريّة، والأحزاب السياسيّة، والحركات الاجتماعيّة، والدعوات، والثورات... تدعو إلى الإسلام كما تدعو إلى العروبة، وتبشّر بالعروبة كما تبشّر بالإسلام... وإذا كان الفصل بينهما لا يزال حاصلاً حتّى اليوم، فلأنّ يدَ الاستعمار لا تزال تعمل له بكلّ نشاط..

في أماني المسلمين والعروبيّين أن تنضم إلى «جامعة الدول العربيّة» بلدانٌ غيرُ عربيّة، بلدان من أفريقيا، وأوقيانيا، وآسيا، من أوروبّا وأميركا. فالإسلام دينٌ عالمي، وهو يعمل ليشمل أقطار المسكونة كلّها. والعرب كانوا زخمه الأوّل. بهم كانتْ قوّته، وبهم كان الفتح والنصر. فكما انطلق الإسلام من جزيرة العرب إلى أسلمة العالم سينطلق العرب بزخم الإسلام إلى تعريبه. ولا بدّ للّه أن يثيب العرب على ما فعلوا وما سيفعلون.

---

(١٧) الدكتور أنور عبد الملك، في «القوميّة العربيّة والإسلام»، ص ٥٨١.

(١٨) عنوان مقال د. عبد الملك في المرجع السابق نفسه، ص ٥٧٣-٥٩٩.

وحجّة العرب هي في اعتقادهم بعروبة الإسلام، وعروبة النبيّ، وعروبة قريش، وعروبة مكّة والمدينة، وعروبة أرض الحجاز، وعروبة بلاد الشام والعراق وفلسطين ومصر والصومال وإرتيريا وموريتانا... هم يؤكدون عروبة الدول والممالك التي نشأت، منذ القديم، فوق تلك الأرض، كممالك المعينيّين والقتبانيّين والسبأيّين والأنباط والتدمريّين وآل حمير وكندة والمناذرة والغساسنة... ويؤكدون عروبة لغاتها، وعروبة جميع الشعوب التي مرّت فيها، أو استقرّت عليها، أو رحلت عنها، أو طُردت منها، أو بِيدتْ فيها. ويؤكّدون أخيرًا عروبة أديانها وحضاراتها وثقافاتها وعلومها، وعروبةَ كلِّ شيء مسّ أرض العرب.

***

ونحن، أمام هذه العلاقة العضويّة بين العروبة والإسلام، نسأل عن حقيقة عروبة النبيّ محمّد، وعن عروبة قريش، وعروبة اللغة المسماة عربيّة، ونسأل عن صحّة عروبة الحجاز وبلاد الشام وأرض الرافدَين، وعن حدود العربيّة الجغرافية والتاريخيّة، وعن مفهوم الأُمّة العربيّة، والقوميّة العربيّة، واللغة العربيّة، والعالم العربي بأسره...

ونسأل أيضاً عن الفتح، أكانَ عربيًا أم إسلاميًا؟! وعن الإسلام عمّا إذا كان جاء ليدعم العروبة وينشرها، أم لينقضها ويحاصرها ويقضي عليها؟! وعمّا إذا كان جاء لينطلق من العروبة إلى افتتاح العالم، أم ليحطّم العروبة لينطلق على حطامها إلى أسلمة العالم؟!

إنّها أسئلة أوّليّة تخطر على البال ونطرحها للبحث، في الوقت الذي هي فيه من المسلّمات عند العروبيّين الباحثين والمؤرّخين والعلماء والفقهاء ورجال «العلم» و«الدين»... إنّها أسئلة قد لا تفيد، بنظر العروبيّين، إلاّ استثارة الشكوك والنعرات. بل إنّها، كما تبدو للوهلة الأولى، تدعو إلى الهدم لا إلى البناء. ولهذا يتساءلون: لماذا طرحها الآن؟ لماذا لا يؤخذ بالمسلّمات؟ لماذا الشكوك واستفزاز المشاعر؟ وهل في معطيات التاريخ والأرض ريبة؟

كلُّ شيء يُثبت، في نظرهم، وبما لا ريب فيه، عروبةَ النبيّ، وعروبةَ قريش، ومكّة، والحجاز. بل كلُّ شيء يؤكّد أنْ لا إسلام من دون عروبة، ولا عروبة حقيقيّة إنْ لم تكن مسلمة.

غير أنّ الأمر ليس بهذه السهولة، أو بهذا الوضوح والتأكيد. فالمصادر نفسها غير أكيدة. ونَخشى، قبل إدلاء الأدلّة، القول: إنّ الإسلام جاء يَقضي على العروبة. بل جاء يثبت دعائمه على أشلاء العروبة. والعروبة، بنظر الإسلام الحقيقي، هي ضدّ الإسلام. وهذه حقيقة في خدمة الإسلام عينه؛ لأنّها تفتح الإسلام على العالم، وتُعطيه بُعدًا عالميًّا لا تستطيعه العروبة إطلاقاً. لهذا نعود إلى السؤال: هل العروبة عزّ للإسلام أم ذلٌّ؟ ونسأل أيضاً: هل العروبة جنس لشعبٍ معيّن؟ أم وصف لموقعٍ جغرافيّ؟ أم حالة عيشٍ بدائية؟ أم اسمٌ للسان؟ ونسأل أخيرًا: هل في حياة النبيّ وأحاديثه ما جعله يقف من العروبة موقف قبولٍ وتسامح، أم موقف عداء ومناصبة؟!

على هذا السؤال العنوان الخطير: «أَعَرَبِيٌّ هُوَ؟»، يدور البحث كلّه. نعالج فيه موضوعاتٍ كبيرة. نتوقّف عند بعضها طويلاً، لرفعِ جهلٍ تمكّن في العقول طويلاً. ونختصر في بعضها كثيرًا، لكثرة ما أطنب المؤرِّخون فيه وأطالوا...

ولا بدّ من الوصول إلى نتيجة تنزع عن الإسلام مجداً جاءه من العروبة؛ في الوقت الذي نجدُ مجدَ الإسلام في تخطّي العروبة وخلْعِ ما يعود إليه منها. وما أثبته التاريخ، وما سنُثبته في بحثنا هذا، سوف يؤكّد لنا بأنّ العروبة كانت ولا تزال صليبَ الإسلام الكبير، وعارَه المشين.

غير أنّ عددًا من المسيحيّين المشرقيّين، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ولأجل الخلاص من العثمانيّين والنظام الذمّي، ولأجل إنشاء رابطةٍ تُقيم المساواة بينهم وبين المسلمين، لجأوا إلى القول بـ «القوميّة العربيّة». ولم يطل الزمان حتى قبض المسلمون على زمام العروبة، وربطوا بينها وبين

الإسلام ربطاً عضويًا، آملين بذلك، جمْعَ الشعوب المسمّاة عربيّة في «وطنٍ عربيٍّ واحد»، ودفْعَ الاستعمار، ومحاربةَ الكيان الصهيوني، والظهور أمام العالم بمظهرِ غيرِ دينيّ... فأصبح الربط بين العروبة والإسلام ربطاً متيناً، إلى درجة أن بات التمييز بينهما، في أيّامنا، متعذّرًا جدًا.

من أجل هذا نبحث في فصلٍ أوّل عن مدى ارتباط العروبة بالإسلام، والعلاقة العضوية بينهما، وعلى «الوحدة العربيّة» التي تُعتبر طريقًا للوحدة الإسلاميّة التي هي هدف «نهائي» للعالم...

ثمّ نبحث في فصلٍ ثانٍ عن المعاني التاريخيّة للعروبة...

وفي فصلٍ ثالث عن مواطن العروبة وحدودها...

وفي فصلٍ رابعٍ عن أنواع العرب وفصائلهم...

وفي فصلٍ خامس عن اللغة العربيّة وقلمها...

وفي هذه الفصول معطياتٌ تاريخيّة وجغرافيّة واجتماعيّة وحضاريّة ليست هي في مصلحة الإسلام بشيء. بل إنّ الذين لا يزالون يعيشون حياة العروبة، والذين يتمسّكون بالعروبة، والذين يحنّون إلى العروبة، والذين يدعون إلى العروبة... هم أخطر من كلِّ شيءٍ على الإسلام والمسلمين.

وننهي البحثَ في الجواب على السؤال-العنوان، عنوان هذا الكتاب، الذي كلّفنا الجهد في البحث عن عروبة الإسلام وهويّة نبيّه الكريم. وعلى كلِّ مخلصٍ للإسلام ونبيِّه أن يحكم، من دون هوسٍ وردّات فعل، عمّا إذا كانت العروبة خيراً على الإسلام ونبيِّه أم شرًّا.

الفصل الأوّل

ألعروبة والإسلام

أوّلاً	:	واقع الارتباط بين العروبة والإسلام
ثانيًا	:	ألبعد العالمي للعروبة والإسلام
ثالثًا	:	أللغة هي العروبة في الإسلام
رابعًا	:	ألعروبة وطن الإسلام
خامسًا	:	ألوحدة العربيّة مرتجى المسلمين
سادسًا	:	دساتير الدول العربيّة

خاتمة الفصل الأوّل

أولاً – واقع الارتباط بين العروبة والإسلام

واقع الارتباط بين العروبة والإسلام حـدّد هويّة كلٍّ منهما. إنّه، على حدّ قول **أنور عبد الملك**، ارتباط «عضوي جذري تكويني»[(١)]. منذ البدء أشار النبيّ إلى هذه العـلاقة الوثقـى بينه وبين العرب فـقال: «إذا عـزَّ العرب عـزَّ الإسلام، وإذا ذُلَّ العـرب ذُلَّ الإسلام»[(٢)]. وهو يُحبُّ العرب لأسـبابٍ ثلاثة فقال: «أُحِبُّ العـربَ لثلاث: «لأنّي عربيّ، والقرآن عـربيّ، ولسان أهل الجنّة عربيّ»[(٣)]. وقال أيضـاً : «حبّ العرب إيمـان وبغضـهـم نفاق»[(٤)]. و«لا يكره العرب إلاّ منافق»[(٥)]. و«مَن سَبَّ العربَ فأولئك هم المشركون»[(٦)].

ومن إنعـام اللّهِ على النبيّ أنّه اختـير من العـرب: «أنا سيِّـد ولد آدم، ولدتُ مِن خيارٍ من خيارٍ من خيار»[(٧)]، أي: من أبناء إسماعيل، من العرب، من قـريش. ثمَّ هو يُحبّ العـرب، وينـصـحُ بحـبِّـهم، لأنّ مَن أحـبَّـهم أحبَّ اللّهَ ورسولَـه: «مَن أَحبَّ اللّهَ ورسولَه أَحبَّ العـربَ ولغتـهم العربـيّة»[(٨)]. وقال أيضاً: «مَن أحبّ العربَ فقد أحبنّي، ومَن أبغض العرب فقد أبغضني»[(٩)].

---

(١) د. أنور عبد الملك، في «القوميّة العربيةّ والإسلام»، ص ٥٨١، والدوري، ٧٤٢.

(٢) حديث أورده الطبراني وسائر المحدّثين عنه.

(٣) أنظر أصحاب السنن.

(٤) أنظر أصحاب السنن.

(٥) سنن ابن حنبل ١/ ٨١.

(٦) الخطيب البغدادي، ١٠/ ٢٩٥.

(٧) أنظر أصحاب السنن.

(٨) أنظر د. زبادية، في «القومية العربية والاسلام»، ص ١١٤.

(٩) الخطيب البغدادي، ١٤/ ٣٦٦.

وقال النبيّ ممّا قال: «إنّ مِن اقترابِ الساعة هلاكُ العرب»[١٠]. أي: إنّ نهاية العرب هي من دلائل نهاية العالم.

***

وحذا المسلمون حذو النبيّ في حبِّ العرب، فعملوا على الربط بين العروبة والإسلام ربطاً مَتينًا، ربطا حسبوه «عروة وثقى». وربّما يكون المسلمون جميعهم مأخوذين بحبِّ العرب والعروبة. وسنقدِّم عيِّنات من ذلك:

فالدكتور **عبد العزيز الدوري** يعتبر «الترابط بين الإسلام والعروبة، تاريخًا وواقعاً، أرضيّةً عامّة للأمّة العربيّة، وأساساً في تحديد الهويّة»[١١]. و**منير شفيق** يرى «أنّ كلمة المسلمين أو الشعوب الإسلاميّة تتضمّن فوراً العرب أو الأمّة العربيّة»[١٢]. وقال أيضاً: «إنّ وحدةً عضويّةً بين الإسلام والأمّة العربيّة من حيث تكوينها الأساسي»[١٣]. وكرّر القول: «إنّ الرابطة بين الإسلام والعروبة هي رابطة عضويّة»[١٤]. وعلّق الدكتور الطاهر لبيب على هذا القول بقوله: «هذا طبعاً قول لا يُناقَش»[١٥].

أمّا **عادل حسين** فلن يملّ من ترداد هذا الأمر وتوضيحه والتذكير به. يقول: «أودّ ان أضيف هنا تذكيرًا لا أَمَلُّ مِن ترداده، وهو أنّ مفهوم العروبة والقوميّة العربيّة.. لا ينفصل عن الإسلام. وأكاد أقول: إنّ الإسلام هو الوجه الآخر للعروبة»[١٦].

---

(١٠) كتاب المشتبه للذهبي، ص ١٥١.

(١١) د. عبد العزيز الدوري، القوميّة العربيّة والإسلام، ص ٧٤٥.

(١٢) منير شفيق، المرجع نفسه، ص ٦٢٩.

(١٣) منير شفيق، المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(١٤) منير شفيق، المرجع نفسه، ص ١٠٥.

(١٥) الدكتور الطاهر لبيب، المرجع نفسه، ص ٤٧.

(١٦) عادل حسين، المرجع نفسه، ص ٤٣٨.

ويعتبر الدكتور **الحبيب الجنحاني** «أنّ الانصهار بين مفهومَي العروبة والإسلام هو انصهارٌ كليّ»[١٧]. و«كلُّ محاولة للفصل بين الثقافة العربيّة والإسلام هي محاولة تعسّفية»[١٨]. ومثل ذلك رأي الدكتور **عبد القادر زبادية** الذي يعتبر «العروبة والإسلام شيئًا واحدًا في شكله التكاملي»[١٩].

وفي رأيه، أن القوميّة العربيّة تعني الإسلام، فيقول: «إنّ القوميّة العربيّة إنّما تشمل الإسلام والعروبة معًا»[٢٠]؛ بل «ليس هناك تناقضٌ، في رأيه، بين القوميّة العربيّة والإسلام»[٢١]. ويعتبر «الدين الإسلامي قاعدةً متينةً للقوميّة العربيّة الصحيحة، ذلك أنّه يزوّدها بركيزة حضارية قويّة جدًا، (لأنّ) واقعيّة القوميّة العربيّة تنبعث من حضارة الإسلام»[٢٢]. وفي رأي الدكتور **حسن حنفي** «انّ العروبة هي الوعاء الحضاري والثقافي للإسلام»[٢٣]. وبلغ به القول إلى أنّ «الإسلام دين العرب، وليس دين غيرهم، في حين أنّ المسيحيّة دينُ العرب ودينُ الغرب»[٢٤].

أمّا **منح الصلح** فواضح جدًا وجريء جدًا في التعبير عن الترابط بين العروبة والإسلام. فهو يدعو إلى «احترام التلازم الفعلي القائم بين العروبة والإسلام»[٢٥]، وعنده «حيثما تكون العروبة الصادقة يكون التعلّق

---

(١٧) الدكتور الحبيب الجنحاني، المرجع نفسه، ص ٩٥.
(١٨) د. الحبيب الجنحاني، المرجع نفسه ص ٩٥.
(١٩) د. عبد القادر زبادية، المرجع نفسه، ص ١٤٢.
(٢٠) د. عبد القادر زبادية، المرجع نفسه، ص ١١٢.
(٢١) د. عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص ١١٣.
(٢٢) المرجع السابق نفسه.
(٢٣) د. حسن حنفي، المرجع نفسه، ص ٢٣٠.
(٢٤) د. حسن حنفي، المرجع نفسه، ص ٤٢٤.
(٢٥) منح الصلح، المرجع نفسه، ص ٢١٤.

بالإسلام. حيث يكون الإسلام يكون الحرص على العروبة»[٢٦] وفي رأيه أيضاً: «الإسلام... إنّه إسم آخر للقوميّة العربيّة ليس إلاّ»[٢٧]. بل «إنّ الإسلام هو التوأم التاريخي لحركة التحرّر العربي»[٢٨]. لهذا «لا إمكانية للفصل المفتعل والمتعسّف والكاذب بين حياة الإسلام وحياة الأمّة العربيّة، لا ماضياً ولا حاضراً ولا مستقبلاً. إنّ الإسلام، بتراثه وقيمه ومفاهيمه، يشكّل الجزء الأكبر من الثقافة القوميّة لأيٍّ عربيٍّ، مسلمًا كان أم غير مسلم»[٢٩].

هذا يعني أنّه «لا يوجد عربيّ غير مسلم. هذا إذا كان العربيّ صادق العروبة... ألعروبةُ تعني الإسلامَ بهذا المعنى الرفيع الذي لا تعصّبَ فيه ولا تمييز»[٣٠]. وليس لنا – برأيه – ان نصعد في التاريخ إلى ما قبل الإسلام، لأنّ «الأمّة العربيّة تكوّنتْ ودخلتِ التاريخَ وهي تصنع الإسلام، كما أنّ الإسلامَ وُلد وبلغ شأوَه وهو يصنعُ الأمّةَ العربيّة»[٣١]. وعنده أخيرًا أنْ «لا حبّ للعرب ومعه نفرة من الإسلام، كما لا إخلاص في الإسلام مع التآمر على العرب»[٣٢].

وأمّا عند الدكتور **محمّد عمارة** فالعلاقة بين الإسلام والعروبة أوثق، والرابطة بينهما تاريخيّة، والرباط متين. فهو يصرّح بأنّ «الذين افتعلوا بين الإسلام والعروبة تناقضاً أرادوا مِن ورائه هزيمةَ العروبة والإسلام

---

(٢٦) المرجع السابق نفسه.
(٢٧) منح الصلح، المرجع نفسه، ص ٢٢٢.
(٢٨) المرجع السابق نفسه، ص ٢٢٦.
(٢٩) المرجع السابق نفسه، ص ٢٢٣.
(٣٠) المرجع السابق نفسه، ص ٢٥٩.
(٣١) المرجع السابق نفسه، ص ٢٢٣.
(٣٢) منح الصلح، الإسلام وحركة التحرر العربي، ص ٤٣.

جميعًا»[٣٣]، و «الذين يعون افتعالَه (أي افتعال التناقض) هم صانعوه ومروّجو فكْرِه مِن أعداء العروبة والإسلام»[٣٤]، وحجّته «أنّ الإسلام الحقّ والعروبة الحقّة يكوِّنان مزيجًا واحدًا»[٣٥]؛ لأنّ هناك «علاقة عضويّة بين الإسلام والعروبة»[٣٦]. والنتيجة، «إذا كان لهذه الأمّة (العربيّة) رسالة خالدة، فإنّ الإسلام الحضاري هو الرسالة الخالدة لأمّتنا العربيّة الواحدة»[٣٧].

ولا يقلّ **ناصر الدين** حماسة عمّن سبقه وهو يؤكّد «أنّ الدين الإسلامي دين عربي. وفي رأينا أنّه يصعب جدًا أن يكون مسلمٌ غيرُ عربيٍّ مسلماً، كما أراد الإسلامُ ورسولُه أن يكون، لمجرّد أنّه وُلد من أبوَين مسلمَين. بل ينبغي له، ليكون كذلك مع ما ينبغي، أن يصير عربيًا بلسانِه وثقافتِه وميولِه»[٣٨].

وعند **محمد الغزالي** «إنّ الإسلام لا ينفكّ عن العروبة»[٣٩]. و«أيّةُ عروبةٍ تبقَى بعد انتزاع الإسلام منها؟!»[٤٠]. إنّ «الربط بين العروبة والإسلام قضيّة بديهية»[٤١]. أو هي «رابطة طبيعيّة كالرابطة بين الأجرام السماويّة وقوّة الجاذبيّة»[٤٢]. وعنده «إنّ الإسلام هو الذي صنع الأمّة

---

(٣٣) د. محمد عمارة، في «القومية العربية والاسلام»، ص ١٤٨.
(٣٤) د. محمد عمارة، المرجع السابق نفسه، ص ١٤٥.
(٣٥) د. محمد عمارة، المرجع السابق نفسه، ص ١٧٥.
(٣٦) المرجع السابق نفسه.
(٣٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠٤.
(٣٨) علي ناصر الدين، قضيّة العرب، ص ١٣٩ حاشية ١.
(٣٩) محمد الغزالي، حقيقة القوميّة العربية، ص ٢٠.
(٤٠) المرجع السابق نفسه، ص ٨.
(٤١) المرجع السابق نفسه، ص ٣٣.
(٤٢) المرجع السابق نفسه، ص ٣٤.

العـربيّة جـسمًـا وروحًا»(٤٣). لذلك «ينبـغي لكلٍّ مسلم أن يكون في دخـيلة نفسه عربيًا، روحاً وعقلاً. مَثَلُه الأعلى آدابُ العرب وآداب الإسلام؛ سياستُه الدنيـويّة سياسـة العرب وسـياسـة الإسلام»(٤٤). ولذلك أيضًا «إنّ قـيادة المسلمين لا يصلح لها إلاّ العرب... وما ينبغي أن ينازعهم عليها أحد»(٤٥).

***

ولم يقتصر الاعتراف بالتـرابط العضوي بين العروبة والإسلام على المسلمين. بل قال به مستعربون غيرُ مـسلمين، أمثال كمال جنبلاط، وميشال عـفلق، وأدمون ربّاط، وغـيرهم. ولا نـعلم، والحالُ هذه، لماذا هم، إذا كـانوا صادقين في طرحهم، لا يزالون غيرَ مسلمين. فواحدةٌ من اثنتَين: إمّا هم غير صادقين فـي طرحهم؛ وإمّا هـم متخلِّفـون في إيمانهم، كأولـئك «الأعراب» الذين حذّر منهم القرآن في كثيرٍ من آياته(٤٦)، واعتبرهـم «أشدّ كفراً ونفاقاً» من سواهم.

يقول **كمال جنبلاط**: «يجب ألاّ ننسى في حالٍ أنّ نبيًّ الإسلام محمّد، كـان، في آنٍ واحـد، باعثَ العـروبة ورائدَها الأوّل ونبـيَّـها. وقـد تلاحـمتِ الصفتـان والرسالتان فيه بحـيث يصعب فصلهما فـصلاً كاملاً نسبيًـا كما يتصوّر البعض»(٤٧).

ويقول **ميـشال عـفلق**، مؤسّس حـزب البعث الـعربي، وقد اعـتنق الإسلامَ فـيما بعد؛ فكان صـادقاً منسجـماً مع طرحه ومسلكه: «إنّ حـركة

---

(٤٣) المرجع السابق نفسه، ص ٩.

(٤٤) المرجع السابق نفسه، ص ٣٣ ينقل عن إسماعيل مظهر.

(٤٥) المرجع السابق نفسه نفسه، ص ٢٥.

(٤٦) ٩/ ٩٠ و٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠١ و١٢٠؛ ٣٣/ ٢٠؛ ٤٨/ ١١ و١٦؛ ٤٩/ ١٤.

(٤٧) وقائع الملتقى الفكري العـربي في الخرطوم، ١٥–٢٣ آذار ١٩٧٠، نشرت في العدد ١٠٠ من مجلة «المعـرفة» التي تصدرها وزارة الثقـافة والسياحة والإرشـاد القومي في الجمهورية العربية السورية، ص ٨٤.

الإسلام المتمثّلة في حياة الرسول الكريم ليست بالنسبة إلى العرب حادثًا تاريخيًا فحسب.. بل إنّها لعمقها وعنفها واتّساعها، ترتبط ارتباطاً مباشراً بحياة العرب المطلقة، أي إنّها صورة صادقة ورمز كامل خالد لطبيعة النفس العربيّة»(٤٨). ويتنبأ فيقول: «سوف يعرف المسيحيّون العرب، عندما تستيقظ فيهم قوميّتهم يقظتَها التامّة، ويسترجعون طبعهم الأصيل، أنّ الإسلام لهم ثقافة قوميّة يجب أنْ يتشبّعوا بها حتى يفهموها فيحرَصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم»(٤٩).

ويعتبر الدكتور **أدمون ربّاط** الإسلامَ عاملاً أساسيًا في خلق العروبة وشدّ أزرها، فيقول: «إنّ التضامن الديني هو مقدمة للتضامن القومي الذي يمهّد السبيل للترابط السياسي ويوحّد الصفوف ضد المعتدين الأجانب. وممّا لا شك فيه أنّ الدين الذي لعب هذا الدور في تاريخ العرب هو الإسلام الذي هو دين ذو روح قوميّة»(٥٠). ويقول أيضًا: «الإسلام في الواقع الدين القومي العربي... القوميّة تعني الولاء لمجمل الأمّة العربيّة»(٥١).

ويؤمن **قسطنطين زريق** بـ «تشابك الإسلام والقوميّة العربيّة»(٥٢).

وكتب **خليل اسكندر القبرصي** نداءً إلى العرب المسيحيّين دعاهم فيه إلى اعتناق الإسلام لأسباب أهمها أنّ الإسلام دين العرب»(٥٣).

واعتبر **نبيه فارس** «بانّ مولد النبيّ هو مولد العروبة»(٥٤).

---

(٤٨) ميشال عفلق، في سبيل البعث، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٣، ص ٥٥.
(٤٩) المرجع السابق نفسه، ص ٥٨.
(٥٠) لبنان الآخر، مؤتمر حول العلمنة والهويّة العربية، مؤسّسة الدراسات والأبحاث اللبنانيّة، بيروت ١٩٧٦، ص ١٦.
(٥١) انظر بولس الخوري، التراث والحداثة، ص ١٢٨.
(٥٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٢٩.
(٥٣) المرجع السابق نفسه.
(٥٤) المرجع السابق نفسه

في هذا السرد من أقـوال مسلمين وغير مسلمـين دليل واضح وأكيد على مدى عـلاقة الإسـلام بالعروبة: إنّها عـلاقة عـضويّة جذريّة تـكوينيّة. ألإسلام هو جـوهر العروبة ونسـغهـا وضميـرها وروحها. والـعروبة هي أشرف تعبيرٍ عن الإسلام. والمسلمون الذين يرفضون انتماءهم إلى العروبة يشكّ في إسلامهم. والعرب الذين لم يدخلوا الإسلام لا بدّ أنّهم معدّون يوماً للدخول فـيه. لكأنّ «العروبة للمسـلم هي بمثابة لقب شرف. وهذا ما يفـسّر إرادةَ كلٍّ مـسلم في أن يعلن نفـسـه عربيًّـا، وإنْ لم يمضِ عليـه زمـان في استعرابه. وكذلك سعى الكثيرون لأنْ يـكتشفوا لأنفسهم أجدادًا عرَبًا، ولأنْ يرجعوا إلـى أصلٍ عربي، وإلى ربطِ هذا الأصل بقدر الإمكان بالنبيِّ مـحمّد، أو، على الأقل، بقبيلةِ قريش»[٥٥].

---

(٥٥) أنظر أقوال عروبيين آخرين في كتاب «لن نعيش ذمّيين» لأمين ناجي، سلسلة «آفاق مشرقية»، بيروت ١٩٧٩، ص ٧٥–٩٤.

ثانيًا – البعدُ العالمي للعروبة والإسلام

إذا كـان الإسلامُ ديناً عـالميًا، والعـروبة مـرتبطة بالإسلام بارتبـاط «عضـوي جذري تكويني»، يعني أنّ العـروبة هي الأخرى عالميّـة، أي إنّ لها أبعاداً تشمل التاريخَ من البداية حتّى النهاية، كما تشمل البشر على اختلاف أجناسهم. وهذا ليـس أمرًا عجبـاً، لأنّ الإسلام، عندما جـاء، لفت نظرنا إلى آلاف السنين من التـاريخ الذي عبـر، وصعد بنا إلى بـدء الخليقة حـيث جنّةُ عدن غرسـها اللّه في بلاد العرب، وحـيث الملائكة في السماوات السبع كانت تتكلّم الـلسـانَ العـربي، وأنّ آدم حـاور اللّهَ والملائكةَ بالعـربيّـة[٥٦]، وأنّ إسماعيل استعادَها وأتقنها بإلهام إلهيٍّ[٥٧]، وأنّ النبيَّ محمّد استحفظها من جبـريل[٥٨]، وأنّ الإسـلام يطلب من أتبـاعه، إنْ أرادوا فـقـهَ مـعجـزته، أن يتعربوا[٥٩].

من هذا المنطق يبـدو أنّ شعـوب الأرض قاطبـة، منذ البدء، وقـبل أن تتبلبل ألسنتها في بابل، كانت تتكلّم العربيّـة. ومنذ البدء أيضاً، كان للعربيّة تلك القـدرة الإلهـيّة التي بهـا اسـتطاعتْ أنْ تسـتوعبَ كـلامَ اللّهِ، وتعـاليمَ الإسلام وشرائعِه الأزليّة الأبديّة.

---

(٥٦) عن ابن عباس قال: «إنّ آدم علـيه السلام كانت لغته في الجنّة العربـيّة. فلمّا عصى، سلبه اللّه العـربيّة فتكلم بالسريانيّـة. فلمّا تاب ردّ عليه العربيّة» (السـيوطي، المزهر ١/ ٣٠؛ المعري، رسالة الغفران، ص ٣٦١).

(٥٧) قـال النبيّ: «أُلهم إسمـاعـيل هذا اللسـان إلهـامـاً» (السيـوطي، المزهر١ / ٣٣؛ تاج العروس، مادة: عرب، ١/ ٣٧٦).

(٥٨) السيوطي، المزهر، ١/ ٣٥.

(٥٩) الدكتور محمّد عمارة، الإسلام والعروبة، ص ١٠.

في منطق المسلمين، أنّ الإسلام، لو لم يعتمد على العرب، لتأخر في صيرورته العالميّة، أو لتأقلم مثل سائر الأديان، أو أيضًا، لما أنجز مساره العالمي. فالعرب من حيث هم «طليعة» الدين الإسلامي، أصبحوا، بالوقت ذاته، وبفضل الإسلام، «طليعةً عالميّة» لهذا الدين العالمي. ومن هذا المنطلق جاء قول الدكتور **حسن حنفي** بأنّ «الإسلام دين العرب، وليس دين غيرهم»[٦٠]. ومنه أيضًا قول **منح الصلح**: «إنّ المسيحيّين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميّتهم سوف يعرفون بأنّ الإسلام هو لهم ثقافة قوميّة يجب أن يتشبّعوا بها ويحبّوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم»[٦١].

فإذا لم تكن عروبة خارج الإسلام، فليس أيضًا إسلام خارج العروبة. لهذا «مَن دخل الإسلام صار عربيًا»[٦٢]. ولهذا أيضًا، لا نكون مبالغين إذا كنّا «نجد الإسلام الدين، رغم عالميّته التي تتعدّى وتتخطّى حدود القوميّات والحضارات والأجناس، نجده يطلب من أتباعه، إنْ هم أرادوا فقه معجزته ووعي آيته الكبرى، أنْ يتعرّبوا»[٦٣].

والحقُّ يقال: إذا كان النبيّ عربيًا، والقرآن عربيًا، فعلى كلّ مسلمٍ، في أيّ مَصرٍ وعصرٍ كان، أن يكون عربيًا. ونقول أيضًا: يجب على كلّ عربيٍّ أنْ يكون مسلماً. ومن هنا جاء قول العقيد **معمر القذافي**، رئيس الجماهيريّة الشعبيّة اللّيبيّة، صادقًا بالغَ الصدق عندما أعلن: «إذا كان يحقُّ لمسيحيّي لبنان اعتبار أنفسهم أقليّة مهدّدة فيجب أن يفهموا أنّ الحلّ، ليس عند

---

(٦٠) الدكتور حسن حنفي، في «القومية العربية والاسلام»، ص ٤٢٤.

(٦١) منح الصلح، في المرجع نفسه، ص ٢٥٩، شبيه بقول ميشال عفلق، حاشية ٤٢.

(٦٢) تاريخ الطبري، سنة ١٥، ص ١٥٠٥-١٥٠٦، ذكره د. عبد العزيز الدوري، في «القوميّة العربيّة والاسلام»، ص ٦٧.

(٦٣) د. محمد عمارة، الإسلام والعروبة، ص ١٠.

الأميركـيّين، ولا عند الإسرائيليّين، ولا في تشكيلِ ميليشـيات، أو في الحرب الطائفيّة، ألحلّ هو باعتناق الإسـلام»[٦٤].

ولكي تمتدّ شجرة الإسلام، وتتعـمّق جذورها في الأرض، كان عليها أن تنبت نبـتًا عربيًـا، في أرض عربيّـة، ولسانٍ عربـي، لأجل ما في الأرض العربيّـة من طاقات هادرة. ولولا العـرب، لما استطاع الإسلام أن يمـتدّ بتلك السرعـة الفائقة التي تحـقّقت في زمن الفـتح. فالعرب هم جـيوش الطلائع، وكتائب الصفوف الأماميّة، والتـقدّميون المرابطون على الثغور، والمجاهدون المناضلون الذين سفكوا دماءهم وأرواحهم لأجل الإسلام والمسلمين.

فضلُ العرب على الإسلام كفـضل الإسلام على العرب. لقد بذلوا كلّ شيء في سـبـيل أن ينتـصر، وهـو، بدوره، ميـزّهم على جـمـيع العـالمين، وخصّهم بكلّ نِعم الـلّه. وهو ما سميّ عند **محمّـد عمارة** بـ «خصـوصيّة العرب واختـصاصهم»[٦٥]. وعندما دفع العرب بالإســلام نحو العالم، ذهب عمــارة نفسُه إلى القول: «وفي ذلك، ولا شكّ، خـصوصيّة العـرب، تميّزهم، وتمتاز بهم على الأمم الأخرى، حتى في إطار الدين»[٦٦].

وليس مَن ينكر بأنّ المعـجزة الإلهـيّة الكبـرى والوحيـدة نزلتْ على العــالم «بلسان عـربيّ مـبين؛ بل وعلى نحـوٍ من البلاغـة والإعـجاز، جـعلَ محـاكاتَهـا مستعصيةً على بلغـاء العرب، على مرّ التاريخ، كما جعل فـهمَها ووعيَها وفقهَها مستعصيًا بأيّةِ لغةٍ أخرى غير اللغة العربيّة»[٦٧] .

فـالإسلام، بهـذا المعنى، يضـمن من الكمــالات اللاّمـتناهيـة اثنتين: الألوهيّة والـعروبة. فهـو، بكونه إلهيًـا، منزلٌ من عند اللّه؛ وبكونه أرضـيًا،

---

(٦٤) من حديث للقذافي نشر في الصحف البيروتيّة في ١٥/١/١٩٨٣.

(٦٥) د. محمّد عمارة، الإسلام والعروبة والعلمانيّة، ص ١٠.

(٦٦) المرجع السابق نفسه.

(٦٧) المرجع نفسه، ص ٩.

ملتحف بالعـروبة. والعرب في كلِّ حال، كـالمسلمين، هم «خَيرُ أُمَّـةٍ أُخْرِجَتْ للناس»[٦٨]. فـهل من مجـال بعـدُ، لفـصل الإسلام عن العـروبة! أو لفـصل العروبة عن الإسلام!

لقد حـاول الفرس ذلك ففـشلوا، وحاول المماليك أيضًا فانقـرضوا، وحاول بنو عـثمان فلم ينجـحوا، وحاول المسـتعمرون فـلم يفلحوا... ولئن حدثت تلك المحـاولات في التاريخ فلأنَّ عـصرَ انحطاط قـد حصل. ولكنْ لمْ يلبثْ أنِ انتهى. وقـامت العروبة، بعدَه، بمجـد. وعادت عالميّـةُ العروبة تلحق بعالميّة الإسلام. وأصبح الناس جميعاً، بدخولهم في الإسلام، عرباً. وامتّدت العروبة إلى أنحاء العالم بامتداد الإسـلام نفسه. وأصبح كلُّ مسلم بالايمان عـربيًـا بالانتـمـاء والوَلاء. ألم يقلِ النبيُّ يومًـا: إنّ «الولاءَ لحـمـةٌ كلحـمـةِ النَّسَب!»[٦٩]، و«مولى القـوم منهم!»[٧٠]. فـالإسلام العـالمي جعل العـروبة عالمية، أو قل: ألعروبة هي العالميّة.

لهـذا، فـإنّـه، بحـسب **ابن باديس**، «حقّ على مَن يَـدين بالإسـلام، ويَهتـدي بهدي القرآن، أن يعتني بتـاريخ العرب ومدنيتّـهم.. وذلك لارتباطِ تاريخهم بتاريخ الإسلام، ولعناية القرآن بهم، ولاختيار اللّه لهم، لتبليغ دين الإسـلام... وما كان اللّه ليـجعل هذه الرسالة العظيمة لغيـر أمّة عظيمة، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلاّ الجليل من الأمم والرجال»[٧١].

هذا يعني أنّ العـرب أمّة عظيـمة جليلة قـامت بعبءِ دينٍ عظيم جليل. ولو لم تكن العروبة كـذلك لرزحتْ تحتـه، وما أدّتْ واجبَهـا نحوه. غيـرُ أمّة

---

(٦٨) سورة آل عمران ٣/ ١١٠.

(٦٩) سنن الدارمي، باب الفرائض ٥٣، أحمد بن حنبل ١/ ٢٤٦.

(٧٠) صحيح البخاري، ١٤، صحيح مسلم، ١٥، سنن الدارمي، ١٥.

(٧١) ابن باديس، كتاب آثار ابن باديس ٤/ ٥٩، إعداد وتصنيف الدكتـور عمّار الطالبي، طبعة الجزائر، سنة ١٩٦٨.

العـرب لا يستطيع أن يحـمل ثقل دينٍ عظيمٍ كـدينِ الإسلام، ولا يتـمكّن من الوصول بالإسلام إلى ما وصل إليه.

***

خلاصة القول: إنّ الإسلام أعطى العروبة بُعداً إلهيًا كاملاً؛ والعروبة أعطت الإسلامَ زخمًا أرضيًا في مستوى العالم. و«الثقل في الإسلام للدين قبل الأرض». والثقل في العروبة إمكانيّة كلّ إنسانٍ على وجه الأرض، مهما كانتْ جنسيّتُه، في الانتماء إليها. فالجنسيّة حقٌّ لكلّ مَن اعتنق الإسلام، ايّا كانت ارضه في المشرق أو المغرب. يقول **منح الصلح**: «ونحن العرب نهتمّ بكلّ مسلمٍ على ظهر الأرض. فهو ثمَرة رسالتنا، وجزء من كياننا الروحي... ولو وُجد بالمريخ مسلم لقامت للفور أواصر الودّ تصلُ حبالَنا بحبله»[٧٢].

***

إنّ كلّ ما في العروبة وما للعروبة هو في الإسلام وللإسلام. وكلّ ما في الإسلام هو في العروبة ولها على أكمل وجه، بحيثُ أنّه لا يتقدّم واحد من دون الآخر، ولا يتأخّر واحدٌ عن الآخَر. وما قاله **منح الصلح**، المسلم العروبيّ الغيور، في كتابه «الإسلام وحركة التحرّر العربي»، يضاهي بحماسه العصر النبويّ. فالتقدّم، في رأيه، والتطّور والتحرّر والثورة والرقيّ، مفاهيم إسلاميّة في العروبة، مثلما هي أساليب عربيّة في الإسلام، بنوع أنّه «لا عروبة ولا تقدّميّة أصيلة بدون نظرة إيجابية إلى الإسلام، كدينٍ وحضارة. ولا ثورة ولا نصر حقيقي على الذات وعلى الآخرين بدون التفاعل التام الخيّر مع الإسلام وطاقاته الغنيّة الزاهرة»[٧٣].

---

(٧٢) محمد الغزالي، حقيقة القوميّة العربيّة، ص ٩٣-٩٤.

(٧٣) منح الصلح، الإسلام وحركة التحرّر العربي، ط ٤، ص ٢٧.

معنى ذلك أنّه لا ثورة ولا تحرّر ولا تقدّم ولا حركة ولا حياة... إلاّ بعملية تقريب الإسلام من العروبة، والعروبة من الإسلام. وكلُّ تقدُّمِيٍّ في العالم، لا بدّ من أنّه هو كذلك بسبب انتمائه إلى الإسلام والعروبة معاً. بل كلُّ مدافعٍ عن كلِّ حركةٍ فكريّةٍ، أو سياسيّةٍ، أو ثوريّة، هو مدافع بذات فعله عن العروبة والإسلام معاً. يقول **منح الصلح** نفسُه: «لقد بدأت نبوءة الثوريّين العرب تتحقّق. وها إنّ التقدّميّين عندنا، والتقدّميّين في كلِّ مكان، يقتربون من أن يصبحوا المدافعين الوحيدين عن الإسلام وثوريّة الإسلام»[٧٤]. وبالوضوح والتأكيد إيّاهما يضيف : أنّ الإسلام «سيكون دعامةً للدعوات التقدّميّة الصادقة، ولحركات التحرّر. فهو لها بكلِّ طاقاته»[٧٥].

ليس من تقدمية في العالم، بنظر المسلمين العروبيّين، ألاّ ويشدّها إلى تقدميّة الإسلام والعروبة مشدّ. «لقد استطاعتِ العروبة، العروبة الحيّة الجديدة، التي هي من أهم حركات التحرر في العالم، أن تشدَّ إليها قلوب التقدّميّين الأحرار أينما كانوا، وتجعلهم يحبّونها ويحبّون الإسلام الذي هو منها. إذ لا حبَّ للعرب ومعه نفرة من الإسلام، كما لا إخلاص في الإسلام مع التآمر على العرب»[٧٦]؛ بل «ليس مضمون الإسلاميّة الجماهيريّة من حيث الجوهر إلاّ نفس مضمون حركة التحرّر العربيّ»[٧٧].

ففي نظر المسلمين إذاً، أنّ كلَّ حركات التقدّم والتحرّر والثورة، في العالم، هي من بركات الإسلام. وكان للإسلام هذه البركات لكونه ينتمي إلى اللّه عضويًا . وكان اللّه «أكبر» لأنّه عرف اختيار أمّةٍ تستحقّ كلَّ خيرٍ

(٧٤) منح الصلح، المرجع السابق نفسه، ص ٤٢.

(٧٥) منح الصلح، المرجع السابق نفسه، ص ٤٣.

(٧٦) منح الصلح، المرجع السابق نفسه، ص ٤٣

(٧٧) منح الصلح، المرجع السابق نفسه، ص ٦٥.

وبركة، وهي الأمّة العربيّة. لقد استحقت العروبة أن تستوعب كلّ تقدميّة وتحرّر، لأنّها استوعبتِ الإسلام، ولأنّها تحمل في قلبها «كبر» اللّه.

إنّ الشعوب المختلفة تسعى إلى التطوّر والتحرّر كما تسعى إلى الحياة، لأنّها تشعر بحاجةٍ ملحّة اليهما، وتحسّ بالنقص في كيانها؛ لذلك هي تسعى. وتناضل. وتكافح. وتثور. وتغيّر دساتيرَ وأنظمة. وتطلب «العلم ولو في الصين». وتجاهد جهادًا مستميتًا... هذا شأن كلّ شعبٍ متخلّف يريد النموَّ والرقيّ. غيرَ أنّ الأمّة العربيّة ليس هو شأنها. إنّها تناضل لأجل الكمال، لا لأجل التخلص من التخلّف. تجاهد لأجل الإسلام، لا لأجل أيّ إيمانٍ كان. تثور لأجل الكرامة، لا لأجل توسّعٍ جغرافيٍّ أو ازدهارٍ اقتصاديّ، أو غير ذلك... بهذا «تبدو أمّتُنا (العربيّة) شعبَ الإسلام المتميّز بين كلّ الشعوب التي شُرِّفتْ بالتديّن بهذا الدِّين»[٧٨].

يبدو من العلاقة العضوية الحاصلة فيما بين العروبة والإسلام أنّ التقدميّة شأن الاثنين معاً. كلاهما يدعو إليها. وكلاهما بها مُلتزم. يرقى الإسلام فترقى به العروبة، وترقى العروبة فيرقى بها الإسلام. هذا موقف المسلمين والعروبيّين سواء. وهم على خطى الرسول سائرون ، وبقوله يأخذون، وهو القائل: «إذا عزّ العرب عزّ الإسلام. واذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام». هذا دليل على ضرورة وجود العروبة وأهميّتها القصوى لأجل خير العالم الحرّ وصلاحه. لكأنّ العرب هم ضمير العالم ومنارته، فهم، في كلِّ حال، «خير أمّة أُخرجت للناس».

(٧٨) د. محمد عمارة، الإسلام والعروبة والعلمانيّة، ص ٩.

ثالثًا – اللغة هي العروبة في الإسلام

«إنّ العروبة في الإسلام تعني، عند **حسن حنفي**، اللغة»[٧٩]. لذلك «إنّ الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته، كما يقول **ابن باديس**، ستتكلّم بلسانِ الإسلام، وهو لسان العرب، فينمو عدد الأمّة العربيّة بنموٍّ عدد مَن يتكلّمون لغتها، ويهتدون مثلها بهدي الإسلام»[٨٠]. معنى ذلك أنّ اللغة العربيّة مرشّحة هي الأخرى لأن تكون لغة أبناء الأرض. ولا مندوحة في الأمر، فالنبيّ تحدث بذلك وقال: «ليست العربيّة بأحدكم من أبٍ ولا أمٍّ، وإنّما هي اللسان. فمَن تكلّم العربيّة فهو عربيّ»[٨١]. وفي روايةٍ، قال: «إلاّ أنّ العربيّة اللسان. إلاّ أنّ العربيّة اللسان»[٨٢].

إنّ اللغة، بحسب **د. زبادية**، هي «إحدى المقوّمات الأساسيّة للقوميّة العربيّة»[٨٣]، أي هي، بحسب **د. عبد العزيز الدوري**، «صارت أسًّا للهويّة العربيّة. فالناس عرب أو عجم بلغتهم»[٨٤]. واستفاض الباحثون في هذه النقطة للقول بوحدة القوميّة العربيّة بسبب وحدة اللغة. وقد عبّر **ساطع الحصري**، المناضل العروبي الكبير، وصاحب المؤلّفات العديدة في القوميّة العربيّة، بقوله: «لقد أثبتتِ الأبحاث العلميّة والأحداث السياسيّة أنّ أهم

---

(٧٩) حسن حنفي، في «القوميّة العربيّة والاسلام»، ص ٤٢٥.

(٨٠) ابن باديس، آثاره، تصنيف وإعداد عمّار الطالبي، ٢/١٩٨.

(٨١) تهذيب ابن عساكر، طبعة دمشق ٢/١٩.

(٨٢) رواية عن ابن كثير عن معاذ بن جبل عن الرسول.

(٨٣) د. زبادية، في «القوميّة العربيّة والاسلام»، ص ١١٥.

(٨٤) د. عبد العزيز الدوري، الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب في «القومية العربية والاسلام»، ص ٦٥.

عناصر القوميّة ودوافعها: اللغة والتاريخ.. فقد آن الأوان ليدرك الناطقون بالضاد أنّهم أبناء أمّة واحدة»[٨٥]. وفي مكان آخر يقول: «إنّ أس الأساس في تكوين الأمّة وبناء القوميّة هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ... ولكن، لا وحدة الدين، ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية، تدخل بين مقوّمات الأمّة الأساسيّة»[٨٦].

وعبّر **جمال الدين الأفغاني** (ت ١٨٩٧)، مؤسّس تيّار الجامعة الإسلاميّة، عن أهميّة اللغة في نشوء الأمّة وقال: «إنّه لا سبيل إلى تمييز أمّة عن أخرى إلاّ بلغتها. والأمّة العربيّة هي «عرب» قبل كلّ دينٍ ومذهب. وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان»[٨٧].

فاللغة العربيّة، في رأي الأفغاني، هي« وعاء الحضارة، ومظهر الوحدة النفسيّة، وقبلة الفخر والولاء. ثمّ هي الرباط الذي يشدّ الوحدة القوميّة ويدعمها، وييسّر هذه الوحدة في حال التمزّق والتجزئة.. ويكفي أنّه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات»[٨٨]. ويردّ الأفغاني على مَن يقول بأنّ القوميّة عرق ونسَب، فيقول: «إنّ كلَّ الذين تعربّوا وأصبحتِ العربيّةُ لغتَهم، والولاءُ لحضارتِها موقفَهم، هم عرب، بصرف النظر عن الأصول العرقيّة لأسلافهم والمواريث الحضاريّة لأجدادهم»[٨٩].

---

(٨٥) ساطع الحصري، دفاع عن العروبة، دار العلم للملايّين، بيروت.

(٨٦) ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القوميّة العربيّة ١٩٢٣-١٩٦٣، القاهرة، دار المعارف بمصر ١٩٦٤، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٨٧) الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، دراسة وتحقيق محمّد عمارة، القاهرة، طبعة أولى، سنة ١٩٦٨، ص ٢٣٧.

(٨٨) المرجع السابق نفسه، ص ٢٢١.

(٨٩) المرجع السابق نفسه، ص ٢٠٩.

وبسبب الرباط المتين بين اللغة والقوميّة من جهة، وبين اللغة والإسلام من جهة ثانية، قامت قيامة المسلمين على كلِّ مَن يمسُّ قدسيّة اللغة العربيّة. فهو لا يطعن بالعروبة ولغتها فحسب، بل يطعن مباشرة بالقرآن والإسلام. ذلك لأنّ اللغة العربيّة هي لغة الإسلام. بها كانت معجزته الإلهيّة. وبها تكلّم خاتم النبيّين؛ بل، كما يقول **السيوطي**: «إنّ كلام العرب لا يحيط به إلاّ نبيّ»[٩٠]. ومتى انحطّت اللغة العربيّة عن مستواها، نال الإسلامُ والقرآن من هذا الانحطاط.

لا يستطيع القيّمون على العروبة والإسلام جهل هذا الرباط بين اللغة العربيّة والإسلام. جاء في **بيان الأزهر** في ١٦/ ٥/ ١٩٧٤ ما يلي: «وبذلك نجد أنّنا، وجهاً لوجه، أمام مشروع إحلال العاميّة محلَّ الفصحى، وهو مشروع قديم، روّج له أعداءُ العروبة والعرب، وخصومُ الإسلام، منذ أمد طويل»[٩١].

وهكذا، وبكلٍّ وضوح، يوازي المسلمون، في اللغة، بين أمرين: بين واجب الحفاظ علي قدسيّتها، وواجب تطوّرها. والأمران لا يكونان معاً. لذلك يعتبرون أولئك القائمين بمشروع إحلال العاميّة محلّ الفصحى «أعداء العروبة والعرب وخصوم الإسلام». وهذا شأن منطقي بالنسبة إلى المسلمين، لا يمكن المساس به. بل القول بـ «تطوّر اللغة» هو قول مهووسين لا يعرفون ان اللغة «قد قامت عند العرب مقام الولادة والأرحام الماسّة»[٩٢]، كما يقول **الجاحظ**، تماماً كما الإسلام حلّ محلَّ النسب والعرق، وأولد

---

(٩٠) السيوطي، المزهر، ١/ ٦٤، الصاحبي٤٧.

(٩١) أنظر: بيان الازهر في: زكي النقاش، دور العروبة في تراثنا اللبناني، ص ١٥٧. وأيضاً في الكتاب نفسه، قيامة الدكتور زكي على الرئيس شارل حلو لأنّه يتكلم الفرنسيّة، ويمثّل الناطقين جزئيًا بالفرنسية، ص ١٤٥.

(٩٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٤، ١/ ٢٩.

الناس ولادة جديدة، وأصبح الناس جميعاً، بدخولهم في الإسلام، عرباً. هكذا تبدو العروبة غيرَ مؤسَّسةٍ على النسب والعِرق، بل، كما يقول **محمّد عمارة**، على «جعل اللغة والتعرُّب والوَلاء للجماعة الجديدة، أي الإسلام، رباطاً هو والرباط العرقي والنسبي سواء بسواء»[٩٣].

فإذا كانت اللغة حاملةً لواء الإسلام فهي إذاً عنوان الولاء للإسلام. ولا ولاء للإسلام إلاّ بحمل لواء اللغة العربيّة، وبالتالي حمل لواء العروبة. فمَن كان مسلماً كان عربيًا لا محالة، ومَن كان عربيًا وجب أن يكون مسلماً، لا محالة؛ لأنّه، بمعرفته العربيّة، حصل على أقدس ما في الإسلام، أي حصل على «كلام اللّه»، بل على اللّه ذاته... ففي كلِّ عربيٍّ، إذاً، ينام مسلم، وتحت لسانِ كلِّ مسلمٍ، يسيل لعابٌ عربيّ. وإذا كان كلُّ لسانٍ بإنسان، على ما يُقال، واللسان العربي هو لسان الإسلام، فكلُّ عربيٍّ، إذاً، هو مسلمٌ، لا محالة.

إنّ قدسية اللغة العربيّة تفوق كلَّ تطوّر مزعوم. وهل من غاية للتطوّر غير بلوغ الكمال؟! وهل هناك أكمل من كلام اللّه! «فالإسلام، بحسب **محمّد الغزالي**، أضفى على اللغة العربيّة قداسةً جعلتِ الحفاظَ عليها دينًا، وضَبْطَ قواعدِها عبادةً»[٩٤]. أضف إلى ذلك أنّ كلّ تطوّر يعني افتراض نقص حاصل في الشيء المطلوب تطويره، ولكنّ نقصًا واحدًا لا يمكن أن يكون في كلام اللّه... وكم هي غنيّة عن التطوّر تلك التي تحمل كلامَ اللّه!!. ولو كان مسلمو اليوم أكثَرَ أمانة للإسلام ولكلامِ اللّه لاستغنوا، ليس فقط، عن النظر في تطوير اللغة العربيّة، بل وأيضًا، عن أيَّة لغةٍ غير لغتهم. وهذا منطق.

فنظريّة تعريب العلوم هي نظريّة إسلاميّة منطقيّة للغاية. ومن المفروض أن يقف المسلمُ ضدّ كلِّ تيَّارٍ يحاول إفساد قدسيّة اللغة. لذلك «فأي

(٩٣) د. محمد عمّار، الإسلام والعروبة والعلمانيّة، ص ١٥.

(٩٤) محمد الغزالي، حقيقة القوميّة العربيّة، ص ٨٨.

قرآنٍ يُترجم إلى لسانٍ آخر فهو قرآنٌ على المجاز، لا على الحقيقة، إذ هو تفسيرٌ أجنبيٌّ للوحي العربي، أو نقْلٌ لما تيسّر من معاني القرآن إلى اللغات الأخرى... أمّا القرآن نفسه... فإنّ الأسلوب العربي بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصم عن جوهره»[٩٥]. وكلّما اقترب العربيُّ من لغة القرآن في فصاحتها وبلاغتها ومعانيها وصيغتها وإيجازها وإعجازها، كان عالمًا عارفًا بكلِّ أمر. والمسلم الحقيقي هو مَن يُتقنُ لغة العرب. وكلّما اقترب منها اقتربَ من كمال الإسلام.

اللغة العربيّة هي إذاً لغة دينيّة، وهي أسمى من كلِّ لغة يُقصد منها التفاهم فحسب. ليس المهمّ أن تفهم ما يقوله المسلم بلغته، بل الأهم أن تشعر شعوره من خلال ما يقول. والأهم أن تعتبر نفسَك مصلّيًا وأنت تتكلّمُ لغةَ الإسلام. فالعربيّة تحمل تاريخًا إلهيًا، لا يدركه غيرُ المسلم. فيها غنًى إلهيٌّ لا يحوطه عقلُ إنسانٍ غيرِ مسلم. إنّها لغةُ الإسلام، و«الإسلام بغير العربيّة يستعجم ويضمحل. والعربيّة بغير الإسلام تنكمشُ وتزول»[٩٦]. و«القرآن لا يسمّى قرآناً إلاّ فيها، والصلاةُ لا تكون صلاةً إلاّ بها»[٩٧]. لهذا فهي «أجدر بالحضارة وأحقُّ بالخلود من غيرها»[٩٨].

---

(٩٥) المرجع السابق نفسه، ص ٢٠.

(٩٦) المرجع السابق نفسه، ص ٢٢.

(٩٧) المرجع السابق نفسه، ص ٢١، نقلاً عن الزّيات.

(٩٨) المرجع السابق نفسه، ص ٨٧.

رابعًا – العروبة وطن الإسلام

«ألأمّة العربيّة. إنّها المدينة الإسلاميّة»[٩٩]. بهذا يفهم **د. حامد عبد الله ربيع** أنّ الإسلام أمّة واحدة، لا تحدّها حدودٌ عنصريّة أو جغرافيّة. و«الدولة الإسلاميّة لم تكن، أساسًا، إقليمًا وإرادةً، وإنما هي جماعةٌ، وترابطٌ بين عناصر تلك الجماعة من خلال وعيٍ معيّن.. مفهوم الأمّة، بهذا المعنى،.. يقوم على العنصر الديني، وليس على الأساس الدموي أو الإقليمي.. ألإرتباط الحقيقي ينبع من العلاقة الدينيّة.. (لهذا فـ) إنّ غير المسلم لا موضع له في التعامل السياسي، أو في الوجود السياسي.. إنّ العالم الإسلاميّ يقبلُ الأقليّات، ويحترمها، ويقدّس حقوقها، ولكن كجماعاتٍ طائفيّةٍ إجتماعيةٍ، وليس ككياناتٍ سياسيّة»[١٠٠].

من هذا المفهوم الحقيقي للإسلام يتّضح لنا أنّ وطن المسلم هو الأمّة المسلمة أينما كانت، وإلى أيّ عنصرٍ أو عرقٍ أو أرضٍ انتمتْ؛ ووطنَ العربي هو الإسلام، بمعنى أنّه لا يمكن أن يكون عربيٌّ خارج الإسلام. وبعض المسيحيّين الناطقين بالعربيّة أدركوا ذلك، وناضلوا في سبيل الإسلام، لاقتناعهم بانتمائهم الوطني اليه. قال **سلامة موسى** المفكّر المسيحي المصري: «إنّني أدافعُ عن الإسلام لأنّه دينُ وطني»[١٠١]. وقال **مكرم عُبيد**، أمينُ السرّ العام لحزبِ الوفد (١٩٣٦–١٩٣٩)، والوزيرُ المصري المسيحي: «إنّني مسيحيّ دينًا، مسلمٌ وَطنًا»[١٠٢]. وقال أيضًا: إنّ جماعةَ الأقباط هي

(٩٩) د. حامد عبدالله ربيع، في «شؤون عربيّة»، عدد ٣ أيار ١٩٨١، ص ٤٥.

(١٠٠) المرجع السابق نفسه، ص ٤٦.

(١٠١) أنظر قوله في: «الاسلام والعروبة» لمحمد عمارة، ص ١٣٣ مع الحاشية.

(١٠٢) استشهد بقوله «كولومب» المؤرخ الفرنسي. انظر محمود كامل، «الاسلام

«قبطيّةٌ بالمولد، إسلاميّةٌ بالحضارة»[١٠٣]. وقد كان «أوّل مَن دعا إلى عروبة مصر»[١٠٤].

إذا كان بعض المسيحيين أدركوا مدى ارتباط الوطن العربي بالإسلام، فالمسلمون كانوا أشدَّ إدراكاً وأكثرَ وضوحًا وصراحةً. فـ **عبد الرحمن عزّام** أكدّ بأنّ «الإسلام وطن المسلم.. ووطن المسلم ليست له حدود جغرافيّة. فهو يمتدّ إلى حيث تمتدّ عقيدته الدينيّة»[١٠٥]. هذا يعني أنّ الوطن يقوم على أساس الدين، لا على أيِّ أساسٍ آخر؛ لأنّ «العالم الإسلامي عالم فكرةٍ، لا عالمُ حدود»[١٠٦]، على ما قال **محمود شاكر**. و«المسلم، أينما كان، هو مواطن. جنسيّتُه عقيدتُه.. والأرض، في نظره، قسمان: قسم هو دارٌ للإسلام، وهي دارُه ولو كان خارجًا عنها بعيدًا منها؛ وقسم هو دارٌ للكفر، وهو ليس منها ولو كان مُقيمًا في ربوعها»[١٠٧].

ألإسلام، إذاً، هو «الأُمّة». والأُمّة في الإسلام لا تقوم على حدود فَرَضَتْها تضاريسُ بحار، أو ضفافُ أنهار، أو ودايا وجبال، وسهولٌ وسهوب.. بل تقوم على العقيدة الدينيّة. «ألأمّة جماعة من الناس تعيش بعقيدة واحدة، وتتبنّى نظاماً ينبع من تلك العقيدة، وذلك مهما اختلفتْ أجناسُ أتباعها وألوانُهم.. لأنّ العقيدة هي العامل الأوّل في تكوين الأمّة»[١٠٨]. والمسلمون «أمّة واحدة، أينما كانت أرضُهم، ومهما نأتْ ديارهم،

والعروبة»، ص ١٣٣ مع الحاشية.

(١٠٣) أنظر: د. أنور عبد الملك، في «القومية العربية والاسلام»، ص ٥٧٤.

(١٠٤) المرجع السابق نفسه، ص ٥٧٤.

(١٠٥) عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة، القاهرة ١٩٤٦، استشهد به زين في كتابه «العلاقات التركية العربية» بالانكليزية، أنظر محمّد كامل، ص ٤٢.

(١٠٦) محمود شاكر، سكّان العالم الإسلامي، ص ٧.

(١٠٧) المرجع السابق نفسه، ص ٨.

(١٠٨) المرجع السابق نفسه، ص ٩.

وابتعدتْ أمصارهم، لأنّهم يشتركون بعقيدةٍ واحدة»[١٠٩] هي الإسلام.

و«أصل الأمّة، عند **الطبري**، ألجماعة تجـتمع على دين واحد»[١١٠]، أو هي «الجمـاعة المتـفقة عـلى دين واحد»[١١١]. ويعلقّ **د. ناصيـف نصّار** على الطبـري بقوله: إنّ الطبـري «يكتفي بالخـبر عن الأمّـة من الخبـر عن الدين لدلالتها عليه»[١١٢]. وفي رأيه، هذا المعنى هو المقصود بكلمة «أمّة» في بعض آيات القرآن[١١٣]. بل قد تكون معظم آيات القرآن بهذا المعنى.

ولكن، لئـلاّ يضيع المسلمـون بين الأمم، اشترطوا للأمّـة الإسلامـيّة مفهومـاً يتعدّى مفاهيمنا المـألوفة. فهي لا تعني وطنًا، أو دولةً، أو مملكة، أو أرضًا، أو عنصريّةً، أو عرقاً، أو نسَباً، أو عـرفاً، أو تقليداً، أو حدوداً جغرافيّة فرضتْها الطبيعة أو السياسةُ الدوليّة. إنّها تعني أوّلاً وآخِرًا: الإسلام.

ولكنّ الإسلام اعتمد على العروبة، وكان العربُ مادَّتَه، واللغةُ العربيّةُ لسـانَه، والبلادُ العـربيّـةُ منطلقه. وبالعـرب كـان له «الفتح» و «النصـر» و «الجهاد» و«الشهادة». فليس من المستـبعد قط أن تكون الأمّة الإسلاميّة هي نفسـها الأمّة العربيّـة، والوطنُ الإسلامي هو نفسـه الوطن العربي، والوطن العربي هو قاعدة الوطن الإسلامي.

ولحجّةٍ أكـبر نستمع إلى جهابذة الـفكر في الإسلام يؤكّدون لنا بأنّه «أصبح عربيًا كلُّ مَن اعتنق الإسلام، وتحدّث بالعربيّة، دون نظرٍ إلى انتمائه العِرقي»[١١٤]. هذا ما يقوله **د. محمّـد كامل**. وعلى اللبنانيّين المسيـحيّين أن

---

(١٠٩) المرجع السابق نفسه، وإعـادة تأكيده بقوله: «الأمّة هي جماعـة من البشر تعيش بعقيدة واحدة». انظر: صفحة ٦٧. وهو قول سائر عند المسلمين.

(١١٠) الطبري، جامع البيان، تفسير سورة البقرة ٢/ ٢١٣.

(١١١) ورد قوله في «مفهوم الأمّة بين الدين والتاريخ» د. ناصيف نصّار، ص ١٨.

(١١٢) المرجع السابق نفسه، وتفسير الطبري لسورة البقرة ٢/ ٢١٣.

(١١٣) أنظر: سورة الأعراف ٧/ ٣٤، سورة الأنعام ٦/ ١٠٨، سورة الحج ٢٢/ ٣٤.

(١١٤) الدكتور محمد كامل، الاسلام والعروبة، ص ١٠٧.

يُدركوا، في نهاية الأمر، ويتأكّدوا أنّ وجودَهم، بحسب **منح الصلح**، مرهون بوجودِ «دورٍ فعّال يلعبه الإسلام في الدفاع عن عروبة لبنان ووحدته الوطنيّة ومكانته»(١١٥).

وأعظم من ذلك قول **د. ناجي معروف**: إنّ «العربي، إذا تطرّف في عروبته، كان أقرب إلى الإسلام؛ والمسلم، إذا تطرّف في إسلامه، كان أقرب إلى العروبة، بل كان عربيًا»(١١٦). وعنده أيضًا: «إنّ كلّ مَن يسعى لرفع راية الإسلام يُسمّى عربيًا. وإنّ كلّ مَن يعتزّ برسالة محمّد والدِّين الإسلامي الحنيف، ويسعى لنشر الإسلام، يُسمّى عربيًا»(١١٧).

إنّ العلاقة العضويّة بين العروبة والإسلام تجرّ حتماً إلى القول بأنّ العروبة هي وطن المسلم، وأنّ الإسلام هو وطن العربي، سواء بسواء. ويوم لم يكن التطرّف فضيلةً، فإنّه هنا أعظم الفضائل. أي لا يكون مسلمٌ حقيقيٌّ إنْ لمْ يكنْ مبالِغًا في حبِّه للعرب، ولا يكون عربيٌّ حقيقيٌّ إنْ لمْ يغلُ في حبِّه للإسلام. وقواعد نشوء الدول تقف مقصِّرةً عندما تُواجِه حقيقةَ العلاقةِ التكوينيّة بين العروبة والإسلام.

ولئن نَعِمَ المسيحيّون، مثلاً، بالاحتفاظ بدينهم في دولةِ الإسلام، فإنّهم بالإنعام نفسه يَفتخرون بانتمائهم إلى العروبة. بهذا، هم يعيشون في «ذمّة» الإسلام، ولكنّهم يدركون أنّه، بحسب **د. حامد عبد الله ربيع**، «ما كان يمكن (للمسيحي) أن يكتمل ويشتدّ عوده لو لم يرتبط ويتفاعل بالتقاليد العربيّة الإسلاميّة. وأحد عناصر هذه التقاليد هو مفهوم الحماية السياسيّة للأقليّات»(١١٨). فعيش المسيحيّين في «ذمّة المسلمين» نعمةٌ، بها يفتخرون.

---

(١١٥) منح الصلح، الاسلام وحركة التحرّر العربي، ص ٥٩.

(١١٦) د. ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ص ٨.

(١١٧) المرجع السابق نفسه، ص ٢٣.

(١١٨) د. حامد عبدالله ربيع، الظاهرة الانمائية والتطوّر الوحدوي: حول بناء نظام

نستنتج بحقّ أنّ المدى الذي يعمل فيه كلٌّ من الإسلام والعروبة هو العالم كلّه. ولن يهدأ للإسلام بالٌ إلاّ عندما يغزو العالَمَ بأسره. ولن تؤدّي العروبةُ رسالتَها التي حُمِّلَتْها إلاّ يومَ يتوّحدُ العالمُ كلُّه تحت أكناف الإسلام. وما «الوحدة العربيّة» المنشودة أبدًا إلاّ بواكير «وحدة العالم في ظلّ العروبة». وما «الجامعة العربيّة» و«الجامعة الإسلاميّة» اللتان تسعيان لضمٍّ دولةٍ بعدَ دولةٍ إلاّ ابتغاء ابتلاع «منظّمة الأمم المتحدة» في تنظيمٍ عالميٍّ، إسمه منظّمة العالَم تنظيماً عربيًا إسلاميًا واحداً موحَّداً.

إسلامي عربي جديد، شؤون عربية، عدد٣ أيار ١٩٨١، ص ٤٤.

خامساً – ألوحدة العربيّة مرتجى المسلمين

سعي «العرب»، وهمُّهم الأكبر، وهدفهم الأخير، وحلمهم المدغدغ، ومثالهم الأعلى، أينما كانوا، وكيفما كانوا، وحيثما كانوا، هو الوحدة، أي، على حدّ قول **د. محمود كامل**، «ألوحدة العربيّة تحت شكل دولة عربيّة واحدة هي المثل الأعلى للأمّة العربيّة»(١١٩).

هذه الوحدة، إنْ لم تكن اليوم، فستكون غداً أو بعد غد. مقوّماتها وعناصرها موجودة. ولقد «اتّفقَ كثير من العلماء على أهميّتها كمقوّمات للقوميّة. وهي، كما يعدّدها **د.م.مصطفى زيدان**: اللغة، الوحدة التاريخيّة، وحدة الجنس، الوحدة الجغرافية، التكامل الاقتصادي»(١٢٠).

وهناك أيضًا مقوّمات أخرى يجب ألاّ تغيب عن البال، اختصرها **علي ناصر الدّين** بقوله: «للعروبة تقاليد وعادات واحدة، مثل قضيّة الضيافة، وقضيّة العرض الذي يقدّسونه جميعاً، وقضيّة تفاخرهم بالشجاعة والعفّة والكرم والنجدة وحماية الجار والوفاء... وقضيّة أخذِهم بمشيئة كبرائهم... والإحساس الوجداني الأصيل»(١٢١).

هذه كلّها بالنسبة إليهم تؤلّف عادات واحدة في مصر والسودان والجزيرة العربيّة والمشرق والمغرب في موريتانيا وإريتريا والصومال، وفي كلّ مكان من «العالم العربي». ولهذا أعلن **المفتي حسن خالد** للموفد

(١١٩) محمود كامل، الإسلام والعروبة، ص ٣٣.

(١٢٠) د. محمد مصطفي زيدان، القومية العربية بين التحدي والاستجابة، ص ٢٦.

(١٢١) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ٣٨.

الأميـركي دِينْ بْرَاوْن في ٣/ ٤/ ١٩٧٦: «إنّنا «ننظر إلى البلاد العـربيّة من المحيط إلى الخليج على أنّها بلدٌ واحد»[١٢٢].

وكمـا يقول **سلّوم سـركيس**، «إذا كان للـوحدة أن تقوم فلـن تقوم وتبقى وتعمل إلاّ لأنّ الشعوب العـربيّة ما زالت أصيلة. أعني: ما زالت تنظر إلى نفسها وإلى الوجود نظرة خاصّة تميّزها عن عالم الإنعزاليّين»[١٢٣]. هذه «النظرة الخاصّة» تقضي بـ «أن لا صمـود، ولا إنجاز للعروبة، ما لم تهتدي إلى ذاتها، وأن لا هداية إلى الذات العربيّة إلاّ بالوحدة العربيّة»[١٢٤].

أمّا «الانعـزاليّة» (فهي) لدى القـريب أو الغريب، كلُّ مـوقفٍ حذر، أو مـشكّك، أو معـاد، تجـاه العـمل على انصهـار المجـتمع الـعربي في وحـدة وثيقة»[١٢٥]. والانعزالي هو كلُّ عربي مسلم لا يحقّق في نفسه حلمَ الوحدة. ومَن لا يسعى إلى تحقـيق ذلك فهو عدوّ الأمّة العربيّـة والإسلام. وقد يكون الانعزالي أخطر على الوحدة من الغريب، لأنّه عدوّ داخلي.

والوحدة العـربيّة ليست «تجـمعًا» سـياسيًا أو اقـتصاديًا، أو سـوقًا مشتركة، أو مـجموعة دول تبقى كلُّ واحدةٍ منها على سيادتهـا واستقلالها، أو دولاً لا يربط بعضـها ببعض إلاّ رغبةٌ كـرغبة الخصيان.. بل الوحدة تربط العرب رباط مصير، وهدفهـا إنشاء «وطن عربي كبير». فـ «هذه الأقطار من المحيـط الأطلسي إلى الخليج العربي، بحـسب **علي ناصر الدّين**، إنّما تُدعى بحقٍّ الوطن العربي وليس العـالم العربي»[١٢٦]. وفي الوطن الواحد، كما هو معـروف، وحدة أرض، ومصـير، ودين، وتقاليـد، ولغة، وجنسـيّة، وهويّة،

---

(١٢٢) أنظر: المسلمون في لبنان والحرب الأهلية، قمّة عرمون، ص ٢٤٦.

(١٢٣) سلوم سركيس، العروبة بين الانعزالية والوحدة، ص ١١١.

(١٢٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

(١٢٥) المرجع السابق نفسه، ص ٨.

(١٢٦) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ٩٩، حاشية ١.

ومصالح مشتركة؛ بينما في العالم ضياع هويّة وتشتّت كامل.

هذا الحلم تحقّق، في أواسط القرن العشرين، مراراً، وانفرط مراراً. وما يزال يتحقّق وينفرط. ولن يهدأ بالُ العرب إلاّ عندما ينصهرون في وحدة متكاملة في وطن واحد. والدّاعي إلى هذا الانصهار هو ما جمّل اللّه به الأمّة العربيّة من مكان فريد وحيد بين أمم الارض. لهذا، كما يقول **محمّد عزّة دروزة**، «يحتل الجنس العربي مكاناً فريداً بين الأجناس البشريّة القائدة الهادية ذات الحيويّة العظيمة. ولقد اختصّه اللّه برسالته الداعية إليه، المرشدة إلى الحقِّ والخير وصلاح الإنسانيّة.. ولقد ازدهرتْ حضارتُه وثقافتُه فشعّتْ على الكون، وأمدّتِ البشريّةَ بنورها الوهّاج. وما تزال»[١٢٧].

منذ أنِ اشتدّتْ علّة «الرجل المريض»، شهدت المنطقة العربيّة، على ما يقول **ساطع الحصري**، «نشاطاً جماهيريًا ملحوظًا يدعو للوحدة العربيّة»[١٢٨]. وكلّما ازداد مرضُ الدولة العثمانية كان شعور العرب بالوحدة يشتدّ. فنشأت، منذ أوائل القرن العشرين، جمعيّاتٌ ورابطاتٌ وأحزابٌ؛ وعُقدتْ مؤتمراتٌ ونوادٍ، تدعو إلى توحيد الصفوف العربية وتعمل لوحدتهم.

ففي سنة ١٩٠٤ أسّس **نجيب عازوري** «عصبة الوطن العربي»، ووضع سنة ١٩٠٥ كتاباً حَدَثاً بعنوان «يقظة الأمّة العربيّة». وفي سنة ١٩٠٦ أسّس مجلّة لم تعمّر طويلاً باسم «الاستقلال العربي». وفي سنة ١٩٠٨ تأسّست «جمعيّة الإخاء العربي العثماني»، هدفت إلى المساواة بين العرب والأتراك. وفي سنة ١٩٠٩ نشأتْ «جمعيّةُ المنتدى العربي». وفي السنة نفسها ظهرت «الجمعيّة القحطانيّة». وسنة ١٩١١ تأسّست «الجمعيّة

---

(١٢٧) محمد عزّة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ١/ ٥.

(١٢٨) ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، ص ١٣٦.

العربيّة الفتاة» بباريس، ثمّ نقلتْ مركزها إلى بيروت ثمّ إلى دمشق. وسنة ١٩١٢ نشأ «حزب اللامركزيّة الإداريّة العثمانية» الذي رعى «المؤتمر العربي الأوّل» بباريس بين ١٨ و ٢٣ حزيران من سنة ١٩١٣. وفي هذه السنة أيضًا قامتْ «جمعيّة الإصلاح». وفي السنة التالية نشأت «جمعيّة العهد»، ثمّ «الجمعيّة الثوريّة». وفي سنة ١٩٢١ تأسّست «الرابطة الشرقية». وفي ٢٥ آذار سنة ١٩٢٥، عُقد اجتماع ضمّ عدداً من العلماء برئاسة شيخ الجامع الأزهر، وتقرّر فيه ضمّ دعوة مؤتمر إسلامي للنظر في مَن يتولّى الخلافة.

وارتاح الوَحدويّون فترة ليعودوا «مع تطور القضيّة الفلسطينيّة منذ عام ١٩٣٦» إلى المؤتمرات ونوادي الكلمة. فكان «المؤتمر الطلّابي العربي الأوّل عام ١٩٣٦، ثمّ المؤتمر البرلماني الأوّل عام ١٩٣٧ في سوريا، ثمّ المؤتمر النسائي الأوّل في ١٩٣٨ في القاهرة، كما تكوّن في القاهرة أيضاً في ٢٥ مايو ١٩٤٢ نادي الاتحاد العربي الذي دعا إليه فؤاد أباظه باشا[١٢٩]، ويقوم على إيجاد اتحادٍ شعبي بين الأقطار التي تتكلّم العربيّة، وهي مصر والسودان والجزيرة العربيّة والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن وشمال أفريقيا، مع ترْك البحث في الخلافة الإسلاميّة التي كانت سبباً في توتّر العلاقات بين الأسر الحاكمة في السعودية ومصر»[١٣٠]. وفي ٢٥ مايو من عام ١٩٤٢ قامت «جمعيّة الاتحاد العربي»، وفي العام ١٩٤٥ تأسّست «جامعة الدول العربية».

ألاّ أنّ «جامعة الدول العربيّة» لم تفِ بالمراد، إذ اعتمدتْ، لأجل الوحدة، أساليبَ ديمقراطيّةً تمثيليّة. ولم تستطعِ القيامَ بأيٍّ عملٍ يهدف إلى

---

(١٢٩) فؤاد أباظة، الاتحاد العربي، الكتاب الثاني، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، سنة ١٩٥٠، ص ٦-٨.

(١٣٠) د. عبد الحميد الموافي، تأسيس جامعة الدول العربيّة، في شؤون عربية عدد ١.

توحيد الصفوف العربيّة: فلا السوق العربيّة المشتركة، ولا البنك العربي، ولا خطّة الدفاع المشترك.. تخطّتْ ملفّات خزائن أمانة سرّ الجامعة.. فدفعًا للوحدة إلى الأمام، قامت أحزاب سياسيّة عقائديّة تبشّر بالضرورة الماسّة إلى الوحدة العربية. فكان مثلاً حزب البعث العربي «الذي جعل السلطة أداةً في خدمة النضال لتحقيق بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحّد»[١٣١]؛ ثمّ حزب «القوميّة العربيّة»، ثمّ «الديمقراطيّون العرب»، و«العلمانيون العرب»، و«الناصريون».. وغيرهم..

ثمّ قامت أحزابٌ لا تؤمن بوحدة الشعوب العربيّة، فاقتطعت لها من «الوطن العربي الكبير» جزءًا لها. وهي تؤمن بوجود «قوميّات» متعددة في هذا العالم المشرقي. منها «الحزب السوري القومي» الذي دعا إلى وحدة الهلال الخصيب. و«الوحدة الأفروآسيويّة» التي أسست في مؤتمر باندونبج بين ١٨ و ٢٤ أيلول سنة ١٩٥٥. وغيرهما...

إنّ «فكرة الوحدة العربيّة، كما يقول **د.محمود كامل**، تجسّمتْ في الجامعة العربية.. كما تجسّمتْ في محاولات إقامة وَحدات عربيّة، مثل الجمهوريّة العربيّة المتّحدة التي وحّدت بين مصر وسوريا في عام ١٩٥٨، والاتّحاد الفيدرالي بين مصر وسوريا والعراق في عام ١٩٦٣، والاتّحاد الفيدرالي بين مصر وسوريا وليبيا والسودان في عام ١٩٧٠. وفشلُ هذه المحاولات لا يغيّر من تطلّع الشعوب العربيّة نحو الوحدة»[١٣٢].

وبالفعل تطلع علينا الأمّة العربيّة في كلّ عام بمشاريع وحدوية لا حصر لها. فكم حاولت سوريا أن تؤلّف وحدةً بينها وبين ليبيا، تارةً، وبينها وبين العراق طوراً، وبينها وبين الأردن طوراً ثالثاً، ثمّ مع مصر، والسودان،

---

(١٣١) الأحكام الدستورية للبلاد العربية، مقدمة الدستور السوري، ص ١٤٠ص.

(١٣٢) د. محمود كامل، الاسلام والعروبة، ص ٣٢.

ولبنان، رابعاً وخامساً وسادساً!!. وكم حاولت ليبيا بدورها أن تتّحد مع تونس تارة، ومع الجزائر طوراً، ومع مصر والسودان ثالثاً!!. وكم حاول الجميع اغتصاب لبنان ليُقيم الوحدة مع مصر تارةً، ومع سوريا طوراً، ومع الإثنين ثالثاً!!. وكذلك قل عن اليمن ودول المغرب والخليج وغيرها... واليوم تعمل جامعة الدول العربيّة «بجديّة مسألة تعديل الميثاق لكي ينصّ فيه على أنّ الوحدة هدفُ عملِ الجامعة. مثل هذا النصّ الذي لم يُقرّ نهائيًا مع غيره من النصوص الجديدة»(١٣٣).

إنّ دوافع الوحدة مجذّرة في تاريخ العرب. لكأنّهم يبغون تعويضاً عن تاريخ كانوا فيه مختلفين مشتّتين متقاتلين، يغزو بعضهم بعضاً، يوم كانوا قبائل وعشائر وبطوناً وفخوذاً وعصبيّات. وكأنّهم يبحثون عن هويّتهم الضائعة أبدًا ليثبّتوها بوحدتهم. وبالرغم من عاملَي اللغة والدين، نرى الوحدة تنفر من العرب نفورها من تحكّم العرب بها. لكنّ العرب يتّهمون الدول الغربيّة باستمرار بوقوفها في وجه وحدتهم. إلاّ أنّها تهمة هي من قبيل رفع المسؤوليّة عن الضمير؛ أكثر منها واقع وحقيقة.

---

(١٣٣) د. جورج جبّور، خواطر مجددة حول مستقبل الوحدة العربية، مجلة «شؤون عربية»، عدد ٥ تموز، سنة ١٩٨١، ص ٤١-٤٢.

سادساً - دَساتير الدول العربيّة

لم تبق فكرة الوحدة العربيّة وقفاً على دعاةٍ ومؤتمراتٍ وأحزابٍ ومنظّرين؛ بل دخلت في صلب النصوص الدستوريّة للبلاد العربيّة جميعها. ودخلت العروبة على أسماء هذه الدول، حتّى أصبحت كلُّ دولة تعرّف بالعروبة. واعتلتْ على البيارق والأعلام والشعارات والرموز الوطنيّة والدينيّة. وبتنا لا نعرف هذه الدول التاريخيّة العريقة إلاّ بأسماء جديدة، مثل: جمهورية مصر العربيّة، والجمهوريّة العربيّة السوريّة، والمملكة العربيّة السعوديّة، والجمهوريّة العربية اليمنية، والإمارات العربية... وغيرها. وبات الاقتصاد اقتصادًا عربيًا، والنفط نفطًا عربيًا، والجيوش جيوشاً عربيّة، والأرض أرضًا عربيّة، والإذاعات إذاعات عربية، والقضيّة الفلسطينيّة قضيّةً عربيّة.. وهكذا.

والذين تتبّعوا أسباب الحروب اللبنانيّة منذ الاستقلال حتّى اليوم، وبخاصّة حرب سنة ١٩٧٥ المستمرّة، يعرفون جيّداً الصراع الحاصل بين المسلمين والمسيحيّين على هويّة لبنان العربيّة. فـ **المفتي حسن خالد** يطالب بتعديل الدستور «بحيث يحرص على ذكرِ أنّ لبنان جزء مِن الأمّة العربية»[١٣٥]، ويعني بذلك لا «إلغاء الاستقلال والسيادة، بل نصرّ على سيادة لبنان العربي.. فأنا وغبطة البطريرك الماروني نتكلّم العربيّة، ولنا تاريخنا العربي، ولنا تطلّعاتنا العربيّة المشتركة، ولنا آلامنا وآمالنا، ولنا وحدة مصيرنا. فهذا واقع لا بدّ من ذكره في الدستور. فلماذا تجاهله؟»[١٣٦].

---

(١٣٥) جاء ذلك في لقاء المفتي خالد مع دين براون الموفد الأميركي في ٣/ ٤/ ١٩٧٦.

(١٣٦) اللقاء نفسه في كتاب «المسلمون في لبنان والحرب الأهلية»، ص ٢٤٩ و٢٥٠.

ويذهب المفتي نفسُه ليفسّر لوفـد أميركا دِينْ بْرَاوْن مَعنى ما جاء في الميثاق بأنّ «لبنان ذو وجه عـربي»، ويقول له: «كيف يمكن لبنان أن يكون ذا وجهٍ عربي وروح غير عـربيّة؟.. هذا غير مقبول عربيّـا. عندما تطلق الصفة على الجزء يعنـي بها الكلّ»[١٣٧]. ومع الموفـد الفرنسـي جـورج غورس قـال سماحةُ المفتي الشيء نفسه[١٣٨]. وبأكثر وضوح قال للموفد البابوي بْرِينِي، وهو يأخـذ على القـائلين بـ «أنّ لبنان لبناني يعني غـيـر عربي. فـهذا قـول مردود لأنّ لبنان بلد عربي»[١٣٩].

ويؤكّد سـماحتـه بمناسبـات عديدة على عروبة لبنـان، بل يؤمن بها ويطالب الذين ما زالوا يشكّكون بذلك، ويقـول: «نؤمن بأنّ لبنان يمثّل جزءًا من الأمّة العربيّة. إنّي كنت ولا أزال مع الذين يؤمنون بالوحدة العربيّة»[١٤٠]. ويقول أيضًا: «إنّ لبنان الحديث هو لبنان العربي الوجه والدم واللسان الذي عرفناه مع الاستقلال، وما زلنا نعرفه هكذا حتى الآن، ولا نريد أن نعرفه إلاّ هكذا على مدى الأزمان»[١٤١]. ويحذّر بقـوله: «إذا فَقَدَ لبنان هويّته العـربيّة فَقَدَ دورَه بين العرب، وفَقَدَ دورَه في العـالم، وفَقَدَ دورَه في صعيد الإنسان في كلّ مكان»[١٤٢].

توقّفـنا على كلام المفـتي وحده في عـروبة لبنان لأنّه يمثل المسلمين اللبنانيّـين جمـيـعـهم. والأكـثـر دلالةً على «عـروبة لبنان» إطلاقـهـا على مؤسّسـات الدولة اللبنانيّة جميـعها، مثل: «جيش لبـنان العربي»، و«صوت لبنان العـربي»، و«لبنان العربي»، و «أرض لبنان العـربيّة»... لكأنّ الجـميع

(١٣٧) أنظر كتاب «المسلمون في لبنان والحرب الأهلية»، ص ٢٥٠.

(١٣٨) مع الموفد الفرنسي في ١٠/٤/١٩٧٦. المرجع نفسه، ص٢٥٣.

(١٣٩) مع الموفد البابوي في ٢/٤/١٩٧٦، المرجع نفسه، ص ٢٦١.

(١٤٠) حديث المفتي الى جريدة البعث السوريّة في ٢/٣/١٩٧٧، المرجع نفسه ٢٧٣.

(١٤١) حديث المفتي الى الصيّاد في ٣١/٥/٧٣، المرجع نفسه، ص ٢٠.

(١٤٢) خطبة المفتي في عيد الأضحى في ٢٤/١٢/١٩٧٤، المرجع نفسه ، ص ٧٩.

يعلنون إيمانهم مع مفتي الجمهورية ويقولون معه ووراءه: «نحن نؤمن بلبنان بلدًا عربيًا»[١٤٣]، أو أيضًا: «لبنان جزء من الأمّة العربيّة[١٤٤]».. وهكذا.

وحدَه الدستور اللبناني، بين دساتير دول الجامعة العربيّة، لا ينصّ على عروبة لبنان. ولذلك يطالب معظمُ المسلمين بـ «تعديل الدستور»[١٤٥]..

وإذا ولجنا في دساتير الدول العربيّة نراها جميعها تقرّر ثلاثة أمور:

ألأوّل، اعتبار كلّ دولة جزءًا من الأمّة العربيّة،

ألثاني، اعتبار دين الدولة الإسلام.

ألثالث، ألهدف الأخير لكلّ دولةٍ الدعوة إلى الوحدة العربيّة الكاملة الشاملة؛ ذلك، في نظر **د.محمود كامل**، أنّ «الوحدة العربيّة قاعدة قانون عام عربي»[١٤٦]، و«الوحدة العربيّة.. تتكامل مع الاتجاه نحو التضامن الإسلامي»[١٤٧].

ونريد إثبات ما نقول بالاعتماد على نصوص الدساتير العربيّة جميعها، ولو تكلّف القارئ صبرًا.

١ . جاء في مقدّمة **الدستور السوري** الصادر في ٥ أيلول سنة ١٩٥٠: «إنّ الشعب السوري الذي هو **جزء من الأمّة العربيّة** بتاريخه وحاضره ومستقبله، يتطلّع إلى اليوم الذي تجتمع فيه أمّتنا العربية **في دولة واحدة**، وسيَعمل جاهداً على تحقيق هذه الأمنيّة المقدّسة»[١٤٨].

---

(١٤٣) حديث المفتي لمجلة بيروت المساء في ١٩٧٥/٣/٣١، ص ١٣٠.

(١٤٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٣٢.

(١٤٥) أنظر حديث المفتي لمجلة «مونداي مورننغ» البيروتية في ١٩٧٥/٦/١٨، في كتاب «المسلمون في لبنان...»، ص ١٥١، وحديثه مع كوف دومرفيل في ٢٢/١١/ ١٩٧٥، المرجع نفسه، ص ١٩٤.. وجملة احاديث في الكتاب نفسه...

(١٤٦) د. محمود كامل، الاسلام والعروبة، ص ٢٣.

(١٤٧) د. عبد العزيز الدوري، في «القومية العربية والاسلام»، ص ٧٤٥.

(١٤٨) د. محمود كامل، المرجع السابق نفسه، ص ٢٣.

وفي ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ «جاءت الحركة التصحيحيّة، إستجابةً لنداء **الوحدة التي تحتلّ مكان الصدارة في الوجدان العربي**»[١٤٩]. والدستور السوري الجديد استند «إلى المنطلقات الرئيسيّة التالية: ١. إنّ الثورة العربيّة الشاملة ضرورة قائمة ومستمرة لتحقيق أهداف الأمّة العربية في **الوحدة** والحرّية والاشتراكيّة. ٢. إنّ جميع الانجازات التي حققها أو يمكن أنْ يحققها أيٌّ قطر عربي في ظلٍّ واقعِ التجزئة تظل مقصِّرة عن بلوغ كامل أبعادها... ما لم تعزّزها وتصنها **الوَحدة العربيّة**»[١٥٠].

ومن مبادئ هذا الدستور الاساسيّة، كما جاء في المادّة الاولى، إنّ «٢. القطر العربي السوري **جزء من الوطن العربي**. ٣. ألشعب في القطر العربي السوري **جزء من الأمّة العربيّة**، يعمل ويناضل لتحقيق **وحدتها الشاملة**». وفي مادّة ٧ يكون القَسم الدستوري لرئيس الجمهوريّة على الشكل التالي: «أقسم باللّه العظيم أن.. أعمل وأناضل لتحقيق أهداف الأمّة العربية في **الوحدة** والحرّيّة والاشتراكيّة»[١٥١].

٢ . وجاء في دستور **دولة البحرين** في مادّته الأولى ما يلي: «البحرين دولة عربية إسلاميّة... شعبها **جزء من الأمّة العربيّة**، وأقليمها **جزء من الوطن العربي الكبير**»[١٥٢].

٣ . وفي دستور **الجمهورية الجزائريّة** «تلتزم الجزائر، كلّما تهيّأتِ الظروف الملائمة **لقيام وحدة** مبنيّة على تحرير الجماهير الشعبية، باعتماد صيغٍ للوَحدة، أو للاتّحاد أو للاندماج، كفيلة بالتلبية الكاملة للمطامح المشروعة والعميقة للشعوب العربيّة»[١٥٣].

---

(١٤٩) الاحكام الدستورية للبلاد العربية، ص ١٤٠-١٤١.

(١٥٠) الاحكام الدستورية للبلاد العربية ص ١٤١.

(١٥١) المرجع السابق نفسه، ص ١٤٢.

(١٥٢) المرجع السابق نفسه، ص ٥٨.

(١٥٣) المرجع السابق نفسه، ص ٩٩.

٤ . وجاء في المادّة الأولى من دستور **الجمهورية العراقيّة** المعلن في ١٦ تموز سنة ١٩٧٠: «العراق جمهورية ديموقراطية شعبيّة ذات سيادة، **هدفه الأساسي تحقيق الدولة العربية الواحدة**». وفي مادّة ٥: «ألعراق **جزء من الأمّة العربيّة**»[١٥٤].

٥ . وفي دستور **دولة قطر** مادّة أولى: «وشعب قطر **جزء من الأمّة العربيّة**»[١٥٥].

٦ . وفي دستور **الكويت** مادّة أولى: «وشعب الكويت **جزء من الأمّة العربيّة**»[١٥٦]

٧ . وجاء في دستور **الجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الاشتراكيّة** الذي أُعلن في مؤتمر الشعب العام، في ١٩٧٧/٣/٢: «إنّ الشعب يعلن التزامه **بتحقيق الوحدة العربيّة الشاملة**»[١٥٧].

٨ . ونصّ الدستور **الأردني** الثالث في ١٩٥٢/١/١ على أنّ «**المملكة الأردنيّة الهاشميّة دولة عربيّة... والشعب الأردني جزء من الأمة العربيّة**»[١٥٨]

٩ . وفي الدستور **المصري** الذي صدر في ١٩٥٦/١/١٦، والذي نصّت مقدّمتُه على ما يلي: «نحن الشعب المصري الذي يشعر بوجوده **متفاعلاً في الكيان العربي الكبير**، ويقدر مسؤوليّاته والتزاماته حيال النضال العربي المشترك لعزّة الأمّة العربيّة ومجدها». واستهلّ رئيسُ

---

(١٥٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٨.

(١٥٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٧١.

(١٥٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٨٤.

(١٥٧) المرجع السابق نفسه، ص ٢١٩.

(١٥٨) المرجع السابق نفسه، ص ٨.

الجمهوريّة الخطابَ الذي قدّم به مشروع الدستور: «انّ **الكيانَ العربي يمتدّ من المحيط الاطلسي إلى الخليج العربي، كلّنا شعب واحد**... نكافح جميعاً متّحدين متكاتفين. من أجل حقّنا في الحرّيّة، ومن أجل حقّنا في الحياة، نكافح جميعاً ضد الاستعمار. **نحن نعلن عروبتّنا الحقيقيّة ونعلن تماسكنا مع العرب جميعاً**»(١٥٩).

وفي إعلان وثيقة دستور ١١/٩/١٩٧١، جاء: «**إنّ أمل أمّتنا العربية عن يقين بأنّ الوحدة العربيّة نداء تاريخ، ودعوة مستقبل، وضرورة مصير**». وفي مادة ١ منه جاء: «والشعب المصري **جزء من الأمّة العربيّة، يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة**»(١٦٠).

١٠ . وفي المادّة الأولى من دستور **جمهوريّة اليمن الديمقراطيّة الشعبيّة** إنّ «الشعب اليمني شعب واحد. وهو **جزء من الأمّة العربيّة**، والجنسيّة اليمنية واحدة»(١٦١).

١١ . وفي الدستور الدائم للجمهورية العربيّة اليمنيّة المعلن في ٢٨/١٢/١٩٧٠، جاء ما يلي: «نحن اليمنيّين شعب عربي مسلم. لا بقاء لنا ولا لوطننا إلاّ بالتمسّك بجنسيّتنا العربيّة الأصيلة، التي لا يستطيع شعبٌ ينتمي إلى العروبة أن يدّعيها قبلَنا، أو يقدّم لنا دروساً فيها». وجاء في مادة ١ منه: «اليمن دولة عربيّة إسلاميّة... **والشعب اليمني جزء من الأمّة العربيّة** »(١٦٢)

١٢ . «أما دستور **سلطنة عمان** فمستمدّ مباشرة من القرآن، وقائم على التقاليد والعرف المستمدّة من الشريعة الإسلاميّة. وقد أخذت هذه التقاليد والأعراف شكل دستور»(١٦٣).

---

(١٥٩) د. محمود كامل، الاسلام والعروبة، ص ٢٣.

(١٦٠) الاحكام الدستورية للبلاد العربية، ص ٢٢٣ و ٢٢٤.

(١٦١) المرجع السابق نفسه، ص ٢٦٢.

(١٦٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٨٦ و ٢٨٨.

(١٦٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٨.

١٣ . وكذلك دستور **المملكة العربيّة السعوديّة** الذي جاء على الشكل التالي: «اتّخذَت المملكةُ العربيّة السعوديّة الأحكام الواردة في الشريعة الإسلاميّة دستوراً لها. فكلُّ أنواع المعاملات تُطبّق فيها أحكام الشريعة الإسلاميّة، حتّى الأنظمة التي وضعت في المملكة لتنظيم الإدارة رُوعي في نصوص موادّها أن لا تخرج عن دائرة الشريعة الإسلاميّة . وكلمات «قانون» و«تشريع» و«شريعة» لا تطلق في السعوديّة إلاّ على الأحكام الواردة في الشريعة الإسلاميّة»(١٦٤).

١٤ . وجاء في مقدّمة دستور **تونس** بأنّ الشعب التونسي مصمّم «على تعلّقه بتعاليم الإسلام... **وبانتمائه للأسرة العربية**.. كما جاء في الفصل ٣٧ منه: «إنّ رئيسَ الجمهوريّة هو رئيس الدولة، ودينه الإسلام»(١٦٥).

١٥ . ونصّ دستور **الإمارات العربيّة المتحدة**، الصادر في ١٨/٦/١٩٧١: أنّ الإمارات «متعاونة مع الدول العربيّة الشقيقة»، وتعمل للسير بشعوبها «قدمًا.. في مجتمع عربي إسلامي». وجاء في مادّة ٦: إنّ «**الاتّحاد جزء من الوطن العربي الكبير**، تربطه به روابط الدين واللغة والتاريخ والمصير المشترك. وشعب الاتحاد شعب واحد، و**هو جزء من الأمّة العربيّة**». وجاء في مادّة ١٢: «تستهدف سياسة الاتّحاد الخارجيّة نصرة القضايا والمصالح العربيّة والإسلامية»(١٦٦).

١٦ . أما **جمهوريّة السودان الديمقراطيّة** فهي «**جزء من الكيانَين العربي والأفريقي**». وفي مادّة ٩: «الشريعة الإسلاميّة والعَرف مصدران رئيسيّان للتشريع والأحوال الشخصيّة لغير المسلمين». وفي مادّة ١٦:

---

(١٦٤) المرجع السابق نفسه، ص ١١٢. هذا كلّ الدستور السعودي.

(١٦٥) المرجع السابق نفسه، ص ٧٨و ٨١.

(١٦٦) المرجع السابق نفسه، ص ٣١، ٣٢.

«جمهوريّة السودان الديمقراطيّة، ألدين (فيها) الإسلام، ويهتدي المجتمع بهدي الإسلام دين الغالبية، وتسعى الدولة للتعبير عن قِيَمه»[١٦٧].

١٧ . و«**المملكة المغربيّة** دولة إسلاميّة... وهي جزء من المغرب الكبير. وبصفتها دولة إفريقيّة فإنّها تجعل من بين أهدافها تحقيق الوحدة الإفريقيّة». ثمّ «الإسلام دين الدولة»[١٦٨].

***

لقد عبّر **ناصر الدين** عن واقع الوَحدة العربيّة بين شعوب الدول العربيّة، بما يتخطى أمنيات الدساتير جميعها، فقال: «إذا قلنا مثلاً: مصري، إنّما هو تعريف جغرافي موضعي ضيّق خاصّ. أي إنّه عربي يقطن مصر. كما نقول: مغربي، أو يمني، أو عراقي، أو.. إلخ.. فـ هؤلاء كلّهم عرب. نُسبوا نسبةً موضعيّة ضيّقة إلى البقاع التي يقطنونها. فالقوميّة العربيّة تجمعهم، والوطن العربي كلُّه وطنهم»[١٦٩].

ودليلُه على ذلك في قوله: «يخطب إبن المغرب، أو إبن الجزائر، أو إبن تونس، أو إبن السودان.. فتموج لخطابه ملايينُ العرب في المشرق وفي المغرب. ويُرسل بشاره عبد الله الخوري، الأخطل الصغير، في لبنان، وعُمر أبو ريشة في الشام، ورضا الشبيبي.. أو أحمد الصافي في العراق، قصيدةً، فتمشي لها القلوبُ في صدور ملايين العرب في المشرق وفي المغرب»[١٧٠].

والذين يشكّكون بأصالة عروبة إحدى البلاد العربيّة الإسلاميّة هم، بنظر **محمّد عزّة دروزة**، مكابرون، مُغرضون، أعداءُ رافضون. لهذا يجب أن

(١٦٧) المرجع السابق نفسه، ص ١١٤ و ١١٥ و ١١٦.
(١٦٨) المرجع السابق نفسه، ص ٢٤٦ و ٢٤٧.
(١٦٩) علي ناصر الدين، قضيّة العرب، ص ٢٩-٣١.
(١٧٠) المرجع السابق نفسه، ص ٣٤ - ٣٥.

نحبط «مكرَ المستعمرين والمبشِّرين والمستشرقين المغرضين وأعداءِ العروبة الذين تتجاوز مكابرتُهم كلَّ حدٍّ ومنطق، فيتجاهلون السيلَ العربي الصريح الذي أخذ يتدفّق على بلاد العراق والشام قبل الإسلام وعليها وعلى وادي النيل منذ الفتح الإسلامي إلى الآن دون انقطاع، ويغمر مدنَها وقراها وبواديها استمرارًا لما كان يجري قبل دور العروبة الصريحة والذي تفوق أعداده أعداد سكّان هذه البلاد أضعافًا مضاعفة... ويحاولون فصل تاريخ سكّانها القدماء عن تاريخ الجنس العربي ليوقروا في أذهان سكّانها الحاضرين وهْن الصلة بينهم وبين العروبة الأصيلة، وليجعلوهم يعتبرون العرب الذين جاءوا إلى هذه الأقطار تحت راية الإسلام غزاةً كسائر الغزاة الذين طرأوا عليها ووطّدوا حكمهم فيها بالقوة العسكريّة وحسب»[١٧١].

(١٧١) محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ١/ ٩.

خاتمة الفصل الأوّل

في رأي **محمّد عزّة دروزة**، إنّ رسالة النبي محـمّد إلى أهل الجزيرة العربيّـة قد أكملت «المجـد العربي شرفًا باهر الـنور والسناء، وكانت الطّور النهائي لتلك الميزة العظمى التي امتاز بها الجنسُ العربي... لأنّها احتوت من المبادئ والأسس والحلول الجـذريّة ما يكفل حاجـة البشر، ويحلّ مـشاكلهم الروحيّة والمادّيّـة في كلِّ زمان ومكان إذا ما رجعـوا إليها»(١٧٣). وكما يقول **حسين رشيـد خريس**: «ليس في هذا شيء من الغرابة، فـالإسلام والعروبة متـلازمان، تلازم المنشـأ والضرورة والوجـوب أيضاً، بحـيث لا يمكن لأيٍّ باحث أن يغفل، وهو يتحدّث عن العـروبة، دورَ الإسلام، أو وهو يتحدّث عن الإسلام أن يغفل مكانة العروبة ودورَها في الإسلام»(١٧٤).

«والنتيجة التي انتهى إليـها الإسلام، كما يقول **خريس** نفسه، هو أنّ كلَّ من اتخذ الإسلام ديناً له والعروبةَ لسـاناً، أصبح عربيًا. وهذا هو المعنى الجـديد الذي جاء به الإسـلام لمفهـوم العـروبة أو الجنسيّـة العربيّـة، وهو مفهوم قومي أكسبه الإسلامُ هذه الميزة الانسانيّة التي لا ترتفع إلى مستوى إنسـانيّتـها أيّةُ قـوميّـة أخرى. وبذلك أصـبح المسلم هو العربي الجـديد، لا بعقـيدته الدينيّة فحـسب، ولكن بعقيـدته القوميّة أيضًـا. وهذا هو السرّ في عظمة الإسلام»(١٧٥).

---

(١٧٣) محمّد عزّة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ٦/ ٢٣.

(١٧٤) حسين رشيد خريس، مدير إدارة الشؤون والعلاقـات الثقافية في الأمانة العامة لجامعة الدول العربيّة، في «شؤون عربية»، عدد٢ نيسان ١٩٨١، ص ١٣٩.

(١٧٥) المرجع السابق نفسه، عنوان المقال: «بين العروبة والاسلام»، ص ١٤٥.

والعرب مادّة الإسلام «جاهدوا في سبيل انتشاره، ودافعوا طويلاً عن مقدراته، فمنحهم الإسلامُ عروبةً خالدة، وأمّةً متميِّزة تستعصي على كلِّ باغٍ وظالمٍ أن ينال من كينونتها أو استمرارِ وجودها في التاريخ، وكذلك كان الشأن للإسلام الذي أعزّ العربَ وجعلهم الأغلبين بعدَ ضعف، ووحّد شملهم حتى رفعوا أعلامَه في مشارق الأرض ومغاربها... و أصبحت كلُّ دعوة عربيّة لا تستوحي روح الإسلام كأنّها صرخةٌ في خواء»[١٧٦].

ولكي لا يتشوّف العربُ على العالم أخرج اللّه الإسلامَ من بين أيديهم ونشره في أنحاء العالم، يحمل معه خصائص العروبة ومميِّزاتها ولسانها. وهو مجد للعرب ومجال ضَعَةٍ في آن معًا. هذا ما يقوله **محمّد عزّة دروزة**: «لقد كان تمامُ المجدِ العربي، الذي كَمل بالرسالة المحمديّة، أنْ حملتْ هذه الرسالةُ الجنسَ العربي... بنشرها في مشارق الأرض ومغربها، وبين جميع البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم.. حتّى لا يثير... في نفس الجنس العربي غروراً، ولا رغبةً في الاستعلاء والاستغلال إزاء إخوانه في الدين»[١٧٧].

قد يكون القول أعلاه إستدراكًا حكيماً من رجلٍ باحث في شؤون الإسلام والعروبة. ولكنّه جاء من قبيل المداراة والمسايرة، أكثر مما هو من قبيل الحقّ والواقع. فالعروبة، في أبحاثه، مجدٌ، وكلّما اقترب العالم منها كان العالم في مجد. وأصدق منه قول باحثٍ آخر، هو **د. ناجي معروف**، يستوحي الحديثَ النبويّ، ويقول: «لا عزّة للإسلام إلاّ بالعرب... ولا عزّة للعرب إلاّ بالإسلام والمسلمين»[١٧٨]...

***

---

(١٧٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٤٦.

(١٧٧) محمد عزة دروزة، الجنس العربي، ٦/ ٢٣.

(١٧٨) د. ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ص١٥.

منذ ما قبل النبيّ ابتدأتِ القبائل العربيّة تتجمّع في مكّة، فألّفتْ في تجمّعها قبيلةً واحدةً، هي قبيلة قُرَيش، أي قبيلة «التجمّع»(١٧٩). وكان هذا كـ «ردّة فعل» ضد الحياة «الفرديّة» التي كانت تتحكم بالعشائر. وبقيتِ «الوحدة العربيّة» المنشودة أبدًا «ردّة فعل» لماضٍ ممزّق، أو «حلماً» يقترب ثمّ يبتعد، أو «تعويضًا» عن هويّة ضائعة بين كثبان الرمال وغزوات الرجال. إنّ ما يدعو العرب إلى نشدان الوحدة هو نظرتهم إلى الماضي أكثر من نظرتهم إلى المستقبل. فلأنّ ماضيهم كان غزواً وسلباً ونهباً وتفردًا، فهم يأملون بمستقبل يكون الجميع فيه في «أمّة عربيّة» واحدة وفي «وطن عربي» موحّد.

«ألوحدة العربيّة» حلم كلّ مسلم، وأمل كلّ عربيّ. ألكلُّ يعمل لها، والكلُّ يرجو دنوّها. وليس من مسلم عربيّ واحد لا يخّصها بصلاته، ولا يفرد لها أحسن أوقاته، ولا يدخلها صلب اهتماماته، ولا يطلب لها في دعائه.. منذ البدء، بدأت «الوحدة» تلوح، وعبر التاريخ وفي مساره كانت تتحقق ثمّ تفلت. كانت تظهر ثمّ تختفي. كانت الدعوة إليها تنشط ثمّ تخبو. وفي لاوعي كلّ مسلمٍ عربيٍّ حنين دفين إلى الوحدة.

كلُّ مسلمٍ عربيّ، منذ أن يفتحَ عينَيه كلَّ صباح، يسجد على ركبتَيه، ويرفع باتجاه السماء يديه، ويصلّي: أللهمّ! يا واحداً أحد، يا موحِّد وَحدات الكون، يا داعي إلى وحدة الشعوب. نؤمن بوحدتك ووحدانيّتك وأحديّتك! نطلب منك الوحدة والاتّحاد والتوحيد. نسألك وحدةَ الأرض والشعب والدين واللغة والمصير. نبتهل من وَحدانيّتك أنْ توحِّد بيننا، وتجمع شملَنا،

---

(١٧٩) قال ابن كثير في معني قريش: «وأما اشتقاق قريش فقيل من التقرّش، وهو التجمعّ بعد التفرّق... فإنّهم كانوا متفرّقين. فجمعهم قُصَي بالحرم (السيرة النبوة، ١/٨٧). وقيل في قصي شعراً:

أبوكم قُصَي كان يُدعى مجمِّعاً به جمع اللهُ القبائلَ من فِهرِ.

وتضمّ إليك القبائل والعشائر والبطون والفخوذ. نرجوك، لأجل توحيدك، توحيدَنا، فنُحسن لوحدانيّتك، يا وحيداً في وحدات هذا الكون.

في علم كلّ مسلم عربي أنّ التفرقة سببُ كلّ ضعف، والانفصالَ سببُ كلّ علّة، والخلافَ علّةُ كلّ خصام، والتحزّبَ علّةُ كلّ تشرذم، والتشرذمَ سببُ كلّ اقتتال... ولن يزول ضعفٌ، أو خصامٌ، أو اقتتال إلاّ بالوحدة والاتّحاد. ولذلك يبقى اللّه لأنّه واحد، ويبقى القرآن لأنه واحد، ويبقى الإسلام لأنّه واحد... والمسلمون، في كلّ حال، هم، بحسب تحديدهم القرآني، الذين لم يفرّقوا. قال: «لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون»[١٨٠]. وقال أيضاً: «نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ.. إِلَهًا وَاحِدًا. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون» (٢/٣٣). وقال: «إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُون» (٢١/١٠٨). وقال: «إِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون» (٢٩/٤٦).

هذه الوحدة لازمت العروبةَ والإسلام منذ البدء. والأسباب الداعية إليها لا تُحصر، ولكنّها كانت، في كلّ مرة، يعتريها اضطرابٌ وفشل. فانطلاقاً من الدين الواحد، إلى الكتاب الواحد، إلى وحدة الأرض والتاريخ، إلى اللغة الواحدة... كانت الوحدة فيما بين القبائل العربيّة تتحقّق. وقد يكون عنصر اللغة وحده بنظر العروبيين والمسلمين، كافيا لتحقيق الوحدة المنشودة، لأنّ «أوصاف التشارك اللغوي خاصّة قويّة، حتى لتكاد تسوغ وحدَها دعوى وحدة الأرومة بين الموجات التي خرجتْ من جزيرة العرب في مختلف أدوار التاريخ القديم، وبين الذين بقَوا في هذه الجزيرة من الجنس العربي»[١٨١].

---

(١٨٠) سورة البقرة ٢/ ١٣٦، آل عمران ٣/ ٨٤.

(١٨١) محمد دروزة، تاريخ الجنس العربي ١/ ١١.

الفصل الثاني

معاني العروبة

أوّلاً : العروبة في الحضارات القديمة

ثانيًا : العروبة في الآداب العبريّة

ثالثًا : العروبة عند اليونان والرومان

رابعًا : العروبة في العربيّة القديمة

خامسًا : العروبة في القرآن والحديث

خاتمة الفصل الثاني

أولاً - العروبة في الحضارات القديمة

نُضطر في بحثنا هذا إلى إطلاق لفظة «عرب»، بمعناها المعروف المتداول، على سكان البلاد العربيّة، أو الجزيرة العربيّة... إلاّ أنّ هذا المدلول لم يكن لها في الأصل، لا في أيّ معنى من معانيها، ولا في أيّة مرحلة من مراحل تاريخها. وليستِ اللفظة، في كلّ حال، من إنشاء مَن نسمّيهم اليوم «عرباً». إنّها، لغةً، من أصلٍ أرامي. أُطلقتْ على الأراميّين سكّانِ «غربي الفرات». فهي، إذاً، تابعة لموقع، لا لجنسٍ أو عرق.

فلفظة «عَرَب» تعني «غَرْبِيّين»، في أصلها الأرامي، كما في اللّغات الساميّة كلّها، كالعبرانيّة والبابليّة والسريانيّة، وغيرها.. وأصبحت لغةُ هؤلاء «الغربيّين» تسمّى «اللغة الغربيّة»، أي «اللغة العربيّة». ثمّ، لمّا كان هؤلاء «الغربيّون» يسكنون، في معظمهم، البوادي، «أصبحت لفظة "عرب"، في رأي الدكتور جواد علي، أكثر الباحثين في أصل العرب، تُطلق على كلّ مَن قطَنَ البادية، وعاش حياة البداوة والإعرابيّة والجفاف والفقر»[1].

ومهما يكن من أمر «العرب» فهم ليسوا شعباً، ذا عرقٍ أو إثنيّة أو جنس، يسمّى «عربيًا».

والعرب أنفسهم، قبل الإسلام وبعده، لم يعتمدوا، في بحوثهم عن نشأة الكلمة، على نصوصٍ جاهليّة، أو على دراساتٍ عميقة مقارَنة. لقد استعملوها «على الحدس والتخمين». ورأيهم في تفسيرها وفي إيجاد أصلها ومعانيها، هو إسلامي، دُوِّن في الإسلام، وبعد الإسلام بقرون.

---

(١) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/١٨. أنظر أيضًا ١/ ١٤.

وحيرتهم ظاهرة في الكلام على مَن كان أوّل الناطقين باللغة العربيّة: فمنهم مَن ينسبها إلى آدم في الجنّة؛ ومنهم مَن ينسبها إلى «يعرب» بن قحطان، بعد آدم بقرون عديدة؛ ومنهم مَن ينسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم الذي أُلهِم الكلام بها إلهاماً؛ ومنهم مَن حاول التوفيق بين هذه الآراء المتضاربة(٢)؛ ومنهم أخيرًا من جعل أصلها في بلاد الشام، من الحيرة والانبار، وقد نقلها تجّار قريش معهم إلى مكّة والحجاز، أو نقلها المبشرون النصارى في سياحاتهم التبشيريّة في مكّة وأسواق الحجاز.

أما معنى الكلمة في الحضارات القديمة فيختلف، أساسًا ، عمّا ذهب اليه «العرب» في تفاسيرهم، وفي بحثهم عن نشأة لفظة «عرب»، وعن اللغة المسمّاة «عربيّة»، وعن الشعب المعروف بـ «العرب».

***

١ . أمّا **الآراميّون** فقد أطلقوا اسم «عرب» على سكّان غربي الفرات، لأنّ لفظة «عرب» في لغتهم تعني «الغرب». ومنها «عْرُبُو» ܥܪܒܐ أي: «غروب»، و«مَعْرْبُو» ܡܥܪܒܐ أي: «غرب» و«مغرب»... وتعني أيضًا «خلط» و«مزج»، ومنها «عْرُوبْيُو» ܥܪܘܒܝܐ أي مزيج وخليط، و«عَرِبْ» ܥܪܒ أيضاً، ومنها «عُورْبُو» ܥܘܪܒܐ ألمزيج والخليط. ومنها أيضًا اسم «عْرُوبْتُو» ܥܪܘܒܬܐ ليوم «الجمعة»، الذي كان يسمّى كذلك في الجاهليّة: «يوم العروبة» ܥܪܘܒܬܐ وهو يوم الغروب، أي غروب الأسبوع قبل يوم السبت المقدس، عند اليهود والنصارى. وسمّى الجاهليّون يوم «العروبة» بيوم الجمعة من تجمّعهم فيه للتبضّع قبل حلول السبت الذي فيه تُمنَع كلّ حركة(٣).

---

(٢) أنظر في ذلك: تاج العروس، ولسان العرب، في مادّة «عرب»، والمزهر للسيوطي ١/ ٣٠، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٨٦، و السير النبوية..

(٣) أنظر مقالاً في مجلّة «بيبليا» عن «يوم الجمعة في الإسلام».

ونحن لا نزال، حتّى اليوم، نقول بلغتَين آراميّتَين: غربيّة وشرقيّة، أي غربيّ الفرات وشرقيّه. وبما أنّ منطقة غربي الفرات كانت صحراوية قاحلة، اختلط معنى العروبة بمعاني البادية والغرب سواء. ولذلك «فَهِمَ الأراميّون بالعربِ وببلادِ العرب كلَّ مَا له علاقةٌ بالإعرابيّة والسَّكَنِ في البادية»(٤).

٢. وفي **الكتابات البابليّة** وردت جملة «مَاتُو آرَابِي» : Matu-A-Ra-Bi أي «أرض عربي»، أو «أرض العرب»، أو أيضًا «أرض عرب»(٥). والمقصود بها: «البادية الحافلة بالبدو الذين يعيشون حياة الفقر والتبدّي، والذين يعيشون غربيّ الفرات. ولهذا سمّى سكان مدن بابل أهل البادية باسم «عربو»، أي أهل الغرب، لأنّ بلادهم واقعة غربي الفرات. وهو اسمهم القديم في بابل... ثمّ سمّوهم «عريبي» أو «عرب»، ومعناها أيضاً في اللغة السامية الأصليّة «الغربيّون»، وكانوا يسمّون بلادهم «مات عربي» أي بلاد الغربيين، أو بلاد العرب. وبما أنّ تلك البلاد صحراء بادية صار لفظ «عرب» في اللغات الساميّة يدل على البادية أيضًا، ومنها «عرب» ערב في العبرانيّة، والإعرابي في العربية»(٦).

٣. وفي **الكتابات الأشوريّة** نجد أقدم نصّ وردت فيه لفظة «عرب» من أيّام الملك شلمنصّر الثالث (ت ٨٢٤ ق.م.)، الذي قاد حملة على ملك دمشق الارامي وحلفائه ملوك حماة وإسرائيل وعمّون وكيليكيا. وقد انتصر عليهم في «قرقر»، سنة ٨٥٣ ق.م. في بلاد الشام. وترك لنا نصًا شهيرًا، يقول فيه: «قَرقَر عاصمتُه الملكيّة. أنَا خرّبتُها. أنا دمّرتُها. أنا أحرقتُها

(٤) د. جواد علي المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/ ٢٢.

(٥) MAROLIOUTH, The Relations between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam; London 1924, p. 3.

(٦) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٧.

بالنار: ١٢٠٠ مركبة، **١٠٠٠٠ جمل لجندب العربي**... هؤلاء تألّبوا عليّ»[٧]. والمقصود بلفظة «عرب» في هذا النّص، «بداوة ومشيخة كانتْ تحكم في أيّامها البادية، تمييزاً لها عن قبائل أخرى كانت مستقرّةً في تخوم البادية»[٨]. ويعلّق فيليب حتّي: «ومِن بديع الاتفّاق أنّ اسم أوّل عَربي يسجّله التاريخ جاء مقروناً باسم الجَمَل»[٩].

٤ . وفي **النص الفارسي** المكتوب للملك داريوس (ت ٤٨٦ ق.م.) جاءت لفظة «عرباية» Arpaya بمعنى البلاد الصحراويّة المتاخمة لأرض فارس[١٠]. ووُجدت هذه الكتابة في قرية «بهستون» Bahistun في همذان وحلوان[١١].

***

ومراد الأراميّين و « البابليّين أو الأشّوريين أو الفرس من " العربيّة " أو " بلاد العرب " ، البادية التي غرْب نهرِ الفرات الممتدّة إلى تخوم بلاد الشام»[١٢]. «وبهذا المعنى ذهب بعض العلماء إلى إدخال طور سيناء في

---

(٧) حتّي، تاريخ العرب، ص ٦٦. أنظر: LUCKENBILL, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1927, Vol., I, p. 61.

(٨) د. جواد علي، ألمفصّل...، ١/١٦. The Jewish Encyclopedia, N.Y. 1902; p. 41; MONTGOMRY, Arabia and the Bible, p. 27; CHENE, Encycl. Biblica, I/273; Encycl. Islam.,I/908...

(٩) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٦٦.

(١٠) The Sculptures and Inscriptions of Darius The Great on the Rock of Behistun in Persia, London, 1907, XIVIII, 161.; Encycl. Bibl., p. 273.; Dict. of the Bible, p. 46...

(١١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/٣١٥.

(١٢) جواد علي، ألمفصّل، ١/١٨.

جملة هذه الأرضين البوادي»[١٣]، حتّى إنّ كلّ أرضٍ صحـراء قاحلة، في أيّة بقعة، دعيتْ "عربيّة"، وكلّ شعبٍ يعيش على البداوة سُمّي "عربيًا".

(١٣) Encycl. Bib., 1/267, 273; Dict. of the Bible, 1/46, 131.

ثانياً – العروبة في الآداب العبريّة

«إنّ أقدم نصٍّ في العهد القديم يتكلّم على "العرب" نجده في إرميا (ت٥٨٠ ق.م.) يتكلم عنهم كشعوبٍ في الصحراء، تائهين بدون مقرّ»[١٤].
يقول إرميا في وصف المرأة الزانية: «لقد قعدتِ لهم كالإعرابيّ في البادية، ودنَّسْتِ الأرضَ بِزناكِ وفُجورك»[١٥] وهو يقصد بذلك أنّ هناك صلةً وثيقة بين الإعرابي والبادية، بين العربي وحياة الفقر والبداوة، وأيضًا بين البدوي وحياة الزنى والفجور والأرض المدنسّة، أي: بين البدوي وحياة التفلّت والتحرّر.

وعند إرميا أيضاً تعدادٌ للشعوب «المختونين مع الغلف، مصر ويهوذا وأدوم وبني عمّون وموآب وكلّ مقصوصي الزوايا الساكنين في البرّيّة»[١٦]. وهو يقصد بـ «مَقصوصي الزوايا»[١٧]: «القبائل البدويّة»[١٨] الذين يحافظون، بقصّ شعورهم ولحاهم، على بعض التقاليد الممنوعة في إسرائيل[١٩]. ويجدر بالذكر ان اسم «عرب» غير موجود في النص مع سائر الشعوب. لذلك، فهم، أي «العرب»، يعرفون بصفتهم، لا بإسمهم.

---

(١٤) Dict. des Noms propres de la Bible, art. Arabes, 36-37; cf.Is 13/20 dans TOB. n.s.

(١٥) إرميا ٣/٢.

(١٦) إرميا ٩/٢٥.

(١٧) ترد ثلاث مرات في العهد القديم. أنظر: BJ. sur jér. 9/25.

(١٨) أنظر إرميا ٢٥/٢٣، ٤٩/٣٢.

(١٩) أحبار ١٩/٢٧، أنظر: TOB. sur jér. 9/25; n.o.

وفي إرميا كذلك قوله: «على قيدار[٢٠] وممالك حاصور[٢١] التي ضربَها نبوكدنصّر ملك بابل. هكذا قال الرب: قوموا اصعَدوا إلى قيدار، ودمّروا أبناء المشرق[٢٢]. إنّهم يأخذون أخبيتَهم وغنَمَهم، ويستولون على شققهم وجميع أدواتهم وإبلهم، وينادون عليهم بالهول من كلِّ جهة: أهربوا سريعاً واشردوا، أسكنوا في الأعماق يا سكّانَ حاصور، يقول الرب. إنّ نبوكدنصّر ملك بابل قد ائتمر عليكم بمشورة، وفكّر عليكم فكراً. قوموا اصعدوا إلى أُمّة مطمئنّة[٢٣]، ساكنةٍ في الدعَة، يقول الرب، لا أبوابَ لها، ولا مزاليج، سكناهم في العزلة، فتصير إبلُهم نهباً ومواشيهم الكثيرة سلباً. وأذرّي لكلِّ ريحٍ أولئك المقصوصي الزوايا، ومن كلِّ حدودهم أجلب عَطَبهم، يقول الرب. فتصير حاصورُ مأوًى لبناتِ آوى، مستوحشة إلى الأبد، لا يسكن هناك إنسان، ولا يتغرّب[٢٤] فيها ابن بشر»[٢٥].

وصفُ إرميا هذا «كان أيّام نبوكدنصّر سنة ٥٩٩ ق.م. الذي غزا قبائل العرب»[٢٦]، وقد عبّر عنه بعد حدوثه بحوالي عشر سنين. وفيه إشارات واضحة إلى قبائل موصوفة في النصّ بتبدّيهم، ولكن دون ذكرهم باسم «عرب». فهم مثلاً: "أبناء المشرق"، و"أصحاب الأخبية والغنم والإبل"، و"سكّان العزلة والقفر"، و"أهل النهب والسلب"، مشهورون

---

(٢٠) قبيلة في الناحية الشمالية من الجزيرة المسماة فيما بعد «عربي». ترد ٢١ مرّة. أنظر إرميا ٢/١٠ Tob.n.r.

(٢١) إسم بعض قبائل عربية متحضرة، عكس «قيدار» بدو الصحراء. وهي ترد في العهد القديم ١٩ مرة. أنظر:.TOB. n.s. BJ. n.h.sur jér

(٢٢) «قِدِم» تعني بالعبرانيّة «المشرق».

(٢٣) أي «التي لا تشك بشيء البتة». أنظر ترجمة TOB

(٢٤) أي يسكن ويقطن.

(٢٥) أرميا ٤٩/٢٨-٣٣.

(٢٦).TOB. sur Jér. 49/28,n.p.

بالاستوحاش والتغرّب... «فالمفهوم، إذاً، من لفظة عرب في إصحاحاتِ إرميا إنّما هو البداوة والبادية والإعرابيّة ليس غير»[٢٧].

***

أما في سفر أشعيا (٧٠٠ ق.م) فنرى أيضاً لفظة "عرب" «استعملتْ بمعنى بداوة وإعرابية، كالذي جاء فيه "ولا يخَيِّم هناك إعرابيّ"[٢٨]، "وحي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب تَبيتِين يا قوافل الددانيّين"[٢٩]. فقصَد بلفظة عرب في هذه الآية الأخيرة البادية موطن العزلة والوحشة والخطر، ولم يقصد بها قوميّةً وعَلَميّة لجنس معيّن بالمعنى المعروف اليوم»[٣٠]. وبلاد العرب عند أشعيا تعني «البادية التي بين الشام والعراق وهي موطن الأعراب»[٣١].

***

وفي حزقيال (٥٧١ ق.م) إشارة إلى تجارة العبرانيّين مع الأعراب، فيتكلّم على القيداريّين الذين تاجروا مع العبرانيّين بشتّى أنواع المواشي. قال: «العرب -أي البدو- وجميع رؤساء قيدار هم تجّارُ يدِكَ بالحملان والكباش والتيوس. فإنّهم بهذه اتّجروا معك. تجّار شبأ ورعمة[٣٢]، وبأفضل كلِّ طيب وبكل حجر كريم وبالذهب»[٣٣]. إلاّ أنّ هذه التجارة المتبادلة بين العرب والعبرانيّين كانت في زمن الجلاء، إذ تخلّف بعض اليهود المسبيّين عن

---

(٢٧) د. جواد علي، ألمفصّل..، ١/ ١٩.
(٢٨) إشعيا ٣١/ ٢٠.
(٢٩) إشعيا ١١/ ١٣.
(٣٠) جواد علي، ألمفصّل، ١/ ١٨.
(٣١) المرجع السابق نفسه، ١/ ١٩.
(٣٢) موضع في جنوبي الجزيرة العربية.
(٣٣) حزقيال ٢٧/ ٢١-٢٤.

أورشليم وفلسطين، فطاب لهم العيش في البادية، أو أُجبروا على البقاء فيها، لمراقبة الأعراب أو للانتقاع منهم.

***

أما أسماء «العرب» التي وردت في التوراة، على لسان العبرانيّين، فهي لهم أوصاف أكثر منها أسماء علمية.

وكان أوّل ما وُصفوا به أنّهم «**أبناء المشرق**»، وبالعبريّة «بني قدم» Bene Qedem[٣٤]، و«قدمونيت» Qadmonites[٣٥]، و«قدموت» Qédémoit[٣٦]. وهي صفاتٌ أُطلقت عليهم نسبةً إلى مساكنهم شرقي بلاد العبرانيّين[٣٧]. و«كانتْ عادةُ القدماء في تسمية الأمم بمساكنهم بالنظر إلى غروب الشمس أو شروقها. ولذلك كان العبرانيّون يُسمّون "العرب" أهلَ المشرق בני קדם ، لأنّ مقامهم في تلك البادية يقع شرقي فلسطين»[٣٨].

«أبناء المشرق هؤلاء، وصفتْهم التوراةُ بأنّهم عشائر بدويّة، يعيشون في الصحراء، يُربّون الجمال، ويَرعون الأغنام، ويمارسون الغزو، ويسكنون الخيام. حياتُهم حياةُ نهبٍ وسلب، لا يعرفون السلام ولا الاستقرار.. قال فيهم سفر القضاة: " وبنو المشرق يَخرجون عليهم (أي على الإسرائيليّين)، ويجيشون عليهم، ويفسدون غلّة الأرض، إلى مدخل غزة، ولا يُبقون ميرةً في إسرائيل ولا غنماً، ولا بقراً ولا حميراً، لأنّهم كانوا

(٣٤) أنظر هذا التعبير في: تكوين ٢٩/١، قضاة ٦/٣، ٣٣، ٧/١٢، ٨/١٠، ٣ ملوك ٥/١٠، أيوب ١/٣، إشعيا ١١/١٤، إرميا ٤٩/٢٨، حزقيال ٢٥/٤ و١٠.

(٣٥) تكوين ١٥/١٩.

(٣٦) تثنية الاشتراع ٢/٢٦، يشوع بن نون ٢١/٨، ٢١/٣٧، ١ أخبار ٦/٦٤.

(٣٧) J. SIMONS, The Geographical and Topographical Texts of the Old Testament, p13.

(٣٨) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٨.

يَصعدون بماشيتهم وخيامهم، ويأتون في مثلِ كثرةِ الجراد، بحيث لا يعدّون هم ولا جمالهم، ويأتون الأرض ويفسدونها "[٣٩].

ثمّ أصبحوا فيما بعد يُعرفون بـ «**الإسماعيليّين**»[٤٠]، وقد نظر إليهم العبرانيّون نظرة عداء، لأنّهم كانوا يتحرّشون بهم، ويُغيرون عليهم، ويَتعرضّون لتجارتهم، وهم على شكل قوافل تجاريّة، كانت تؤمُّ مصرَ للبيع والشراء. ووُصفوا بساكني الخيام، وبرُعاة الأبل. وقصّتهم مع يوسف بن يعقوب شهيرة. وقد ذُكر اسمهم في التوراة تسع مرات[٤١].

وعُرفوا أيضًا بـ «**الهاجريّين**»، ووُصفوا بساكني الخيام، والغزاة، وأصحاب النهب والسلب، ويملكون سرحاً كثيراً ومراعٍ عديدة[٤٢].

أمّا إسم «**أنباط**» فقد أُطلق عليهم في جيلٍ متأخِّر جدًا، في سفر المكابيّين[٤٣]، وذلك بعد أن أصبحوا أسياد الأردنِّ وبلادِ الشام[٤٤]. إلاّ أنّه قبل ذلك لم يُعرفوا بأنّهم كذلك. ويتبرَّأ الأنباطُ مِن انتمائهم إلى العروبة التي لم يعرفوها.

***

أمّا التلمود والمشنا فيقصدان بلفظتي «**عربيم**» و «**عربئيم**» الأعراب، الذين يعيشون حياة البدو والفقر، بمقابل حياة الحضارة والترف. والجدير بالذكر أنّ العبرانيّين، عندما كانوا يتحدثّون عن أهل الحضَر، كانوا

---

(٣٩) قضاة ٦/ ٣. أنظر: تكوين ٢٩/ ١، عدد ٢٣/ ٧، حزقيال ٢٥/ ٤ و١٠.

(٤٠) نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم الذي عاش في الصحراء واستوحش.

(٤١) أنظر : تكوين ٣٧/ ٢٥و ٢٧و٢٨؛ ٣٩/ ١، قضاة ٨/ ٢٤، ٢ ملوك ١٧/ ٢٥، ١ أخبار ٢/ ١٧؛ ٢٧/ ٣٠؛ مزمور ٨٣/ ٧.

(٤٢) سبع مرات: ١ أخبار ٥/ ١٠و١٩و٢٠ ، ٢٧/ ٣١، مزمور ٨٣/ ٧، ١مكابيّين ٥/ ٢٥.

(٤٣) أنظر ١ مكابيّين ٥/ ٢٥، ٩/ ٣٥، و ٢ مكابيّين ٥/ ٨، ٢١/ ١٠.

(٤٤) TOB. sur 1 Mac. 5/25...

يذكرونهم بأسمائهم وأسماء قبائلهم وممالكهم، ونسَبهم، وأرضهم التي يقطنون فيها؛ وكانوا يحتفظون بلفظة «عربئيم» للبدو فقط.

وعند يوسيفوس المؤرّخ اليهودي أنّ العرب «قوم لا يُعرَف أصلهم، جاءوا من الشرق (إلى مصر)، وتجاسروا على محاربتنا، وغلَبونا على بلادنا، وأذلّوا ملوكَنا، وأحرقوا مدنَنا، وهدموا هياكلَنا وآلهتنا، وساموا الناس ذلاً وخَسفاً، وقتلوا الرجالَ، وسبوا النساء والأولاد.. ولم يَكفّوا عن محاربة المصريّين، لأنّهم كانوا يلتمسون إبادتَهم. وكانت هذه الأمّة تسمى **هيكسوس** Huksos، أي ملوك الرعاة.. ولكنّ البعض يقولون إنّهم عرب»[٤٥].

***

فسكّان «غربي الفرات»، عند الأراميّين، هم إيّاهم يُسمَّون عند العبرانيّين «أبناء المشرق»، وذلك لوقوعهم شرقي بلاد فلسطين وأرض كنعان. و «اليوم، إذا سمعتَ بدويًا يَقول إنّه مشرِّق فهمتَ منه أنّه ضاربٌ في البادية مهما كان اتجاهُه فيها. وكان أيّوب "أعظم أبناء المشرق جميعاً"[٤٦]، أي أبناء البادية. ولعلّ المجوس الذين أقبلوا من المشرق إلى أورشليم[٤٧] كانوا بدوًا من البادية في الشمال، لا مجوساً من فارس»[٤٨].

---

(٤٥) FLAVIUS JOSEPHE, La Guerre Juive contre Les Romains I/19

(٤٦) سفر أيّوب ١/٣.

(٤٧) إنجيل متى ٢/١.

(٤٨) فيليب حتّي، تاريخ العرب، ص ٧٤.

ثالثًا - العروبة عند اليونان والرومان

في الأدب اليوناني، يُطلق **هيرودوتس**، أبُ التاريخ (ت ٤٢٤ق.م.) - وهو أوّل مَن تعرّف من اليونانيّين إلى بلاد العرب- لفظةَ "عرب" على البادية والبلاد التي تقع إلى الشرق من نهر النيل حتى ضفاف الفرات. ولكنّه يقول بأنّ البلاد التي تقع ما بين دجلة والفرات هي بلادُ حضارة وأرضُ خصب، لم تلزمْها العروبة بشيء، إلاّ إذا حدث غزوٌ من الصحراء بدافعٍ ما[٤٩]. وأمّا عن مصر فيقول «إنّ مصر لا تشبه بشيءٍ بلادَ العرب الملتصقة بها»[٥٠]. لكنّ جبل سيناء، مع كونه في صحراء سيناء شمالي نهر النيل، فهو يحسبه من بلاد العرب، اي من الصحراء القاحلة.

ويبدو أنّ القسم الأهم من الجزيرة العربيّة، وهو القسم الجنوبي، لم يكن، أيّام اليونان، يلتحق بالجزيرة. يقول هيرودوتس: «أمّا جنوبي الجزيرة العربيّة، بين خليجِ فارس والبحر الأحمر، فكان اليونان القدماء يعدّونه من إثيوبيا (الحبشة)، فيجعلون الحبشة واليمن وضفاف خليج فارس إقليماً واحداً، يُسمُّونه «إثيوبيا آسيا»[٥١]. و«سكّانه أمم وقبائل تُعرف بأسماء خاصّة بها، كالسبأيّين والحميريّين والمعينيّين وغيرهم»[٥٢].. وهكذا تضطرب حدود «العرب» مع اليونان الأقدمين، باضطراب الحضارة وتوّسعها.

---

(٤٩) د. جواد علي، ألمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/ ٢٢.

(٥٠) أنظر تاريخ هيرودوتس، الكتاب ٢، فقرة ٨/ ١١.

(٥١) ألمرجع السابق نفسه، كتاب ٢، فقرة ١٢.

(٥٢) RAWLINSON, Five great Monarchies, in 4 vol.; London, 1867;I, p.61.

وكذلك فهم الرومان بالعروبة على أنّها البداوة والحياة الصحراويّة. وبلاد العرب هي بلاد البدو، و«سكّانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم، على سبيل التغليب، لاعتقادهم أنّ البداوة كانت هي الغالبة على هذه الأرضين. فأطلقوها من ثَمّ على الأرضين المذكورة»[٥٣]، أي على بلاد الحجاز وبريّة الشام وسيناء.. بل على كلّ بريّة وبادية في أيّ مكان. ويُسمّي **سترابون** جملة دول وممالك عرّف عنها بأسمائها فقط، من دون أن يعتبرها أو يصفها «عربية»[٥٤].

***

يبدو من مجمل الآداب اليونانيّة واللاّتينيّة أنّ «العرب» هم الشعوب الذين عناهم الأراميّون والبابليّون باسم «الغربيّين»، او الذين عناهم العبرانيون بـ «الشرقيّين». ونحن نرى اللفظتين معًا يستعملهما اليونان والرومان: لفظة «عرب» Arabae و Arabia ، ولفظة «شرقيون» Sarakenoi، وهي تحريف للفظة Sharky، أي «شَرْقي»[٥٥]. وعرف **المسعودي** هذه اللفظة اليونانيّة «ساراقينوس» التي تطلق على العرب[٥٦].

---

(٥٣) جرجي زيدان، ألعرب قبل الإسلام، ص ٤٢.

(٥٤) STRABON, Géographie, III, 355

(٥٥) "Dans le lointain passé, les Arabes ont été connus des Grecs d'après Ammien Marcellin, sous le nom de Sarakenoi (Gérard WALTER, La Montée des Sassanides,1964, p.174). Le mot pourrait dériver de l'appellation de Sharquioûn (orientaux) qui a dû leur être appliquée" (Ed. RABBAT, L'Orient chrétien à la veille de l'Islam, p. 202). Voir aussi MUSIL, Arabia Deserta p. 311;

أنظر ايضًا: مجلة الهلال سنة ٦ عدد ٨ سنة ١٨٩٧، ص ٢٩٦؛ والمشرق، سنة ٧ عدد ٧، ص ٣٤٠؛ ومجلة لغة العرب، عدد ٤ ، ١٩٢٩، ص ٢٩٣.

(٥٦) ألمسعودي، ألتنبيه والإشراف، ص ١٤٣.

ثمّ استعمل اليونان والرومان أيضًا، وعلى السواء لفظة Scenitae أو Skénitai من لفظة Skene أو Skynai، وهي «الخيمة». وجاءت عند **سترابون** في هذه الجملة: Arabae Skénitai et Camelorum Pastores، أي «العرب سكّان الخيام ورعاة الجمال»(٥٧). ويحدّد سترابون منازلهم على حدود سوريا الشرقيّة في شمالي «العربيّة السعيدة»(٥٨). وفي مكان آخر يعتبرهم من بدو العراق(٥٩).

وذكرهم أيضاً **بلينوس** Pline على أنّهم من سكّان البادية، أيّة باديةٍ، أكانت في غربي الفرات، أم في صحاري الجزيرة العربيّة، أم في بادية الشام، أم في صحراء سيناء(٦٠). وبهذا المعنى جاء قول **القديس بولس** عن «سيناء جبل في بلاد العرب»(٦١)، أو، بحسب تفسيرات أخرى للكتاب المقدس: «هاجر تمثّل سيناء في اللغة العربيّة»(٦٢). وبعد أن يعدّد سفرُ **أعمالِ الرسل** جميعَ الشعوب الغريبة عن أورشليم، وعددها ستة عشر، يذكر في آخرها العرب؛ وهو، بهذه اللفظة يقصد، لا شعباً معيّناً، بل وكأنّه يريد أن يقول: «وسائر البدو»، أي الشعوب المتبدية المتخلفة(٦٣).

---

(٥٧) STRABON, Gégr. XVI,2. ؛ أنظر: VAN DEN BRANDEN, Hist. de Thamoud, p. 11

(٥٨) المرجع السابق نفسه. III, 196,441

(٥٩) المرجع السابق نفسه. III, 166, 190, 204

(٦٠) PLINY, 6, 143

(٦١) غلاطيّين ٤/ ٢٥.

(٦٢) "Car le Sinaï est en Arabie"; Variante: "Agar représente le Sinaï en Arabie" (ou: "en langue arabe" (Bible de Jérusalem, note f sur Galates 4/25). Voir aussi TOB où il est dit sur le même verset: "Le mot Agar, dans certains mns, se trouve au début de ce verset qu'il faut alors traduire: Car ce nom, Agar, représente le mot Sinaï en Arabie - et cette femme correspond à la Jérusalem actuelle, puisqu'elle est escalve avec ces enfants."

(٦٣) أعمال الرسل ٢/ ١١.

.وهكذا «صارت لفظة عرب عندهم (أي عند اليـونان والرومان) عَلَما على الأرضين المأهولة بالعـرب، والتي تتغلب عليـها الطبيـعة الصـحراويّة. وصارت كلمـة عربي عندهم علَماً للشـخص المقيم في تلك الأرضين من بدوٍ ومِن حـضر»[٦٤]. وربما يكون الأثر الأرامي في تسـميـة هذه الشعـوب بـ «العـرب» في الآداب اليـونانيّـة والرومانـيّة مـعًـا هو الأثر النافـذ في ذلك، والمتغلّب على سائر الأسماء.

***

يتـضح ممّا تـقـدم بأن لفظة «عـرب» ومـشـتـقّـاتهـا لا تعني، في الحضارات القديمة، عِرقاً أو جنساً لشعب معيّن، أو لأرضٍ خاصّة. «ألعرب» صفة لشعب يسكن غربي الفرات ويعيش في البادية حياةَ فقرٍ وجفاء.

---

(٦٤) جواد علي، ألمفصّل...، ١/ ٢١ -٢٢.

رابعًا – العروبة في العربيّة القديمة

في النصوص القليلة الباقية من مختلف أنحاء الجزيرة المسمّاة عربيّة، والتي تشير، من قريب أو بعيد، إلى «العرب»، لا نجد نصًّا واحداً يتكلّم عليهم كشعبٍ واحد، ينتسب إلى عرقٍ واحد، أو يتميّز بإثنيّة معيّنة، أو بهويّة خالصة. أكثر ما في هذه النصوص يتكلّم على قبائل بدويّة تعيش حياة رديئة، تسعى وراء الإبل والأغنام، وتسكن الخيام، وترحل باستمرار، وتترقّب المطر أنّى يتساقط، لتجد لها مرعى وماء لتتمكن من بعض العيش.

١ . ففي نصوص **المنطقة الجنوبيّة للجزيرة**، أعني في كتابات مَعين وقتَبان وحضرمَوت وسَبأ وحِمَير وغيرها، «وردت لفظة "أعرب" بمعنى "أعراب"، ولم يُقصَد بها قوميّة، أي عَلَم لهذا الجنس المعروف، الذي يشمل كلَّ سكّان بلاد العرب من بدوٍ ومن حضر»[٦٥]. ولفظة "عرب" جاءت بمعنى "الأعراب"، أي البدو، سكّان "العربة" أي البادية.

وأمّا أهل المدن والممالك التي قامت في العربيّة الجنوبيّة، فكانوا يُعرفون بمدنهم وبممالكهم. و« لهذا قيل: سبأ، وهمدان، وحمير... وقبائل أخرى، بمعنى أنّها قبائل مستقرّة متحضّرة، تمتاز عن القبائل المتنقلّة المسمّاة «أعرب» في النصوص العربيّة الجنوبيّة، ممّا يدلّ على أنّ لفظة "عرب" و"العرب" لم تكن تؤدّي معنى الجنس والقوميّة، وذلك في الكتابات العربيّة الجنوبية المدوّنة الواصلة إلينا إلى قُبيل الإسلام بقليل سنة ٥٤٢-٥٤٩ م »[٦٦].

---

(٦٥) جواد علي، المفصّل...، ١/ ٢٣.

(٦٦) المرجع السابق نفسه.

ولهذا أيضاً كان السبأيّون، مثلاً، إلى تاريخ الميلاد، إذا ذَكروا بعضَ قبائل الحضر وبدوِها، قالوا: «ألقبيلة الفلانيّة وأعرابها»[٦٧]. وكان الحميريّون يُطلقون على ملوكهم لقب: «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات (أي اليمن) وأعرابهم»[٦٨].. وفي هذا دليل على أنّ «أهل اليمن حضر مِن أقدم زمانهم، ولذلك لم يُطلق عليهم إسم العرب قديماً»[٦٩].

ومن ذلك قول ملكٍ من ملوك حِمير لأحد البدو. قال: «ليس عندنا عربيت»[٧٠]، وهو قولٌ قديمٌ يُشير إلى أنّ أهل اليمن، في عهد مملكة بني حِمير، لم يكونوا عرباً، ولم يتّصفوا بالعروبة. ويعني أيضاً أنّ العروبة لا تكون إلاّ في البادية، لأنّ ياقوت الحموي ينقل إلينا نقشاً من على جدار سورٍ في «ظفار» عاصمة الحميريّين، وفيه نسبة أهل اليمن إلى شعوب أمّتها من كلّ ناح ما عدا الناح العربي. «قالتْ: لمن ملك ظفار؟ لحمير الأخيار. لمن ملك ظفار؟ للحبشة الأشرار. لمن ملك ظفار؟ لفارس الأحبار؟ لمن ملك ظفار؟ لحمير سيحار»[٧١].

ثمّ إنّ لغات المنطقة الجنوبيّة لم تتّصف يوماً بالعربيّة ، ولم تصنّف على أنّها عربيّة، بالمعنى المتداول اليوم للعربيّة. وكذلك قَلَم هذه اللغات لا يشبه بشيء قلم اللغةِ العربية المعروفة اليوم. ولا القلم العربي المتداول يشبه بشيء قلم لغات اليمن القديمة، المسمّى «المسند»[٧٢].

---

(٦٧) جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام، ص ٤٢.

(٦٨) بدأ هذا اللقب يظهر في أواخر القرن الأوّل قبل الميلاد. أنظر جواد علي، المفصّل، ٢/ ٤١٦ – ٤١٧.

(٦٩) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢١٥.

(٧٠) معجم البلدان، ٤/ ٦٠، مادة «ظفار»، و «عربيت يريد بها العربية في لغة حمير».

(٧١) معجم البلدان، ٤/ ٦٠.

(٧٢) أنظر لائحة الأقلام المقارنة في فصل «اللغة العربيّة» من هذا البحث.

٢ . وأمّا في **المنطقة العربيّة الوسطى**، حيث نجْدٌ وتهامة والحجاز، وحيث الحياةُ البدويّة الخالصة، لم يصل إلينا أيُّ نصٍّ يحمل في كلماته لفظة "عرب" ومشتقّاتها. وليس ما يشير إلى وجود اللفظة في لغاتها الثموديّة والدّيدانيّة واللّحيانيّة والصفويّة إلاّ ما قيل عن «يوم العروبة» أي «يوم الجمعة». و«يوم العروبة» هذا هو «يوم الغروب»، كما رأينا أعلاه.

ثمّ إنّ لغات هذه المنطقة الوسطى لا تشبه بشيء اللغة العربيّة المعروفة لدينا، وقلمها بعيدٌ كلَّ البعد عن قلم عربيّة القرآن، بل هو مأخوذ مباشرة من القلم المسند، ويشبهه إلى حدّ بعيد. ويعرف بالقلم «الجزم»(٧٣)

٣ . أمّا في كتابات **المنطقة الشماليّة للجزيرة**، وفي مناطق الهلال الخصيب، فليس لدينا، حتّى الآن، غيرُ نصٍّ واحد، وهو النصّ الذي يعود إلى امرئ القيس بن عمر سنة ٣٢٨م، أحد ملوك اللّخميّين في مملكة الحيرة، وهو في القلم النبطي واللسان العربي الشمالي. -وسنذكر هذا النصّ بصورته الكاملة فيما بعد- وقد ورد فيه تعبير: «مر القس بر عمرو ملك العرب كله»، ومعناه: «أمرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم».

ولكنّنا، « لا نستطيع أن نقول: إنّ لفظة "العرب" هنا يراد بها العرب بدوًا وحضرًا؛ أي يراد بها العَلَم على قوميّة؛ بل يظهر من النصِّ، بوضوحٍ وجلاء، أنّه قصد "الأعراب"، أي القبائل التي كانت تقطن البادية في تلك الأيام »(٧٤). أو أيضًا المقصود بهم «القبائل التي كانت تقطن غربي الفرات»، حيث كان المناذرة يسيطرون ويمدّون نفوذهم أيّام امرىء القيس.

٤ . أمّا الممالك التي تعاقبت على القسم الشمالي من الجزيرة المسماة عربيّة، فلم يُعرف عنها أنّها كانت تسمّى "عربيّة" :

---

(٧٣) أنظر المقارنة في فصل «اللغة العربيّة».

(٧٤) د. جواد علي، المفصّل...، ١/ ٢٣.

أ- فمملكة **الأنباط** «هي دولة عربيّة لم يعرفها العرب. ولا وجدنا لها ذكراً في كتبهم»[٧٥]. تتكوّن «من قبائل أراميّة عراقـيّة جاء بهم نبوخذ نصر في القـرن السادس قـبل الميلاد لمّا اكـتسح فـلسطين فأنزلهم في بِطرا ومـا يليـهـا»[٧٦].. هاجـرت بسـبب من أسـبـاب الـهـجـرة القـاهرة، وتاهت في الصحـارى، وابتعـدت عن مواطنها الحـضارية الأصليّـة، ثمّ استـقرّت على الطرق التجاريّة التي تـربط الجزيرة ببلاد الشام. وكان أهمّ مكان اسـتقرّت فيه واستوطنت ووجدت لقمة العيش مكانًا يسمّى "الحجر" أو "بترا".

ولما اشتدّ أمر الأنباط، وجمعـوا شتاتهم، ونالوا من القوافل التجاريّة أرباحًـا وافـيـة راحـوا هم، بدورهم، يتـعـاطون التـجـارة بين مـيناء غـزّة و "الجزيرة العـربيّة" وبلاد الشام، واسـتطاعوا التـغلّب على الأدوميّين[٧٧]. وشنّوا عليـهم هجمـات مـتتـالية، واسـتولوا علـى عاصـمتـهم "البتـرا"، واتّخـذوها قاعـدة لهم، و«هي عند ملتقى جـميع القـوافل، بين تدمـر وغزّة وخليج فـارس والبحـر الأحمر واليـمن»[٧٨]، وتملّكوا العـربيّة الصـخريّة، واستطونوا جنوبي شرقي فلسطين، واستحكمـوا بجميع القوافل المارّة عبر بلادهم، وفرضوا عليهم الضرائب، حتى عظمت شوكتهم، وقويت دولتهم.

---

(٧٥) جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام، ص ٩١.

(٧٦) جرجي زيدان، المرجع نفسه، ص ١٠٤ معتمداً على كوسّان دي بورسيفال.

(٧٧) «**الأدوميون**» جماعة سكنت بين البحر الاحمر وخليج العقبة في الغرب، ثمّ في غرب وادي الملح، أنظر: يشوع بن نون ٥١/١-٢١، قضاة ١/٣٦. وعُرفوا بأبناء سعير: ٢ أخبار ٢٥/١١و ١٤، وجبالهم جبال سـعير: ٢ أخبار ٢٠/١٠ و ٢٢ - ٢٣، الجامعة ٥٠/٢٦. في عـهد القـضاة حـاولوا السكن في جنوبي اليهـودية: قـضاة ٣/٨-١٠ فحدث بينهم وبين شاوول حروب: ١ ملوك ١٤/٤٧، وغزاهم داود الملك: ٢ ملوك ٨/ ١٤-٣١، ٣ ملوك ١١/١٥-١٦، مزمور ٦٠/٢، ١ أخبار ١٨/١١؛ وتزوّج سليمان من بناتهم : ٣ ملوك ١١/١. بعـد خراب الهـيكل سنة ٥٨٧ احـتلّوا جنوبي فلسطين حتى حبرون. وحدث بينهم وبين الانباط حروب خسروا فيها كيانهم.

(٧٨) جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام، ص ٩٢ - ٩٣.

تكلّم الانباط اللغـةَ الأراميّة التي أخـذوها عن جيرانهم في الشـمال. وأشـار ديدورس الصقلّي إلى كـتابٍ تسلّـمَه النتـغونس منهم «بالحـروف السريـانيّة»(٧٩). «ثمّ تطوّر الخطّ النبطي الذي نقل عن الأرامـي، وأصبح في القرن الثـالث للميـلاد الخطّ المألوف في لغة عرب الـشمال، أي لغـة القرآن، ولغة العـصر الحـاضر»(٨٠). وتميّزت حـضارتهم بسـمة هلّنسـتيّة راقـية. واعتنقوا المسيحيّة منذ منتصف القرن الثاني للميلاد، وكانوا على اليهودية– المتنصّرة، لجـأوا إلى "الحجـر" بعد خراب فلسطين سنـة ١٣٥؛ وبقوا على نصرانيّتهم حتى مجيء الإسلام، فكانوا دعاته الأوّلين.

لم يكن الأنبـاط على صلة بالقوافل التـجاريّة الآتـية من الصـحراء، لأنّهم قطعوا عليهـا تجارتَها مع بلاد الشام، وفرضوا عليـها الضرائب. لذلك «تبـرّأ العربُ منهم، وعُـيّـروا بهم، وأبعدوا أنفـسهم عـنهم، وعابوا عليـهم لهجتهم، حـتى جعلوا لغتهم من لغات العجم.. وسبب ذلك أنّهم كـانوا تثقّفوا بثقـافة بني أرام، وكتـبوا بكتـابتهم، وتأثّروا بلغتـهم، حتى غلبت الأرامـيّة عليهم، ولأنّهم، فـضلاً عن ذلك، خـالفوا سَواد العـرب باشتغـالهم بالزراعة وبالرعي، وباحترافهم للحرف والصناعات اليدويّة»(٨١)، التي كانت مكروهة عند العرب.

ثمّ تثقّـفـوا بثقافة اليـونان والرومان، وتحضّروا بتأثـيرهم، وحملوا تقاليـدهم وعوائدهم وأنواع عـباداتهم، وكانت حـضارتهم تقـوم على ما لم يُعـرف عند "الأعـراب" إطلاقًـا، مـثل الزراعـة وتحـصين القـلاع، ونحت الصَخـر، وحفر خزانات الميـاه، وتشييد القـصور، وبناء الحصون، وعـبادة آلهة غريبة عن آلهة العرب.. وغير ذلك.

---

(٧٩) ديودورس، الكتاب ١٩، فصل ٩٦...

(٨٠) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ١٠٥. أنظر فصل: في اللغة العربيّة.

(٨١) جواد علي، ألمفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣/ ٥.

ب – أمّا تدمر فقد نشأت «بين دولتَين متطاحنتَين: دولة الفرثيّين ودولة الرومان. فاضطُرَّت إلى ضمان الأمان لنفسها بتوخّي التوازن بين هاتين الأمَّتَين والسعي للانتفاع من حيادها»[٨٢]. تدمر «مدينة قديمة مشهورة في بريّة الشام، بينها وبين حلب خمسة أيام»[٨٣]. تقع على ملتقى طرق القوافل التجاريّة المارّة عبر الصحراء بين آسيا وموانئ المتوسّط. و«تبوّأت هذه القاعدة الصحراوية طوال القرن الثاني والثالث للميلاد أعلى مراتب الثروة والجاه بين مدائن الشرق»[٨٤]. وفي مطلع القرن الثالث صارت تدمر مستعمرة رومانيّة أيّام سبتيموس ساويروس (ت ٢١١م) «وقد أصبحتِ الوارثَ الحقيقي للبتراء»[٨٥].

لقد كانت تدمر، خلال تاريخها المديد، حذرة جدًّا من هجوم الأعراب عليها. فهيّأتْ جيوشاً استطاعت بها «الهيمنةَ على أبناء البادية الجياعِ إلى الغزو والسلبِ ونهبِ القوافل»[٨٦].

حضارة تدمر مزيج من العناصر اليونانيّة والرومانيّة والأراميّة والفارسيّة. وفي آثارها «كتابات بالأراميّة واليونانيّة واللاّتينيّة والعبرانيّة»[٨٧]. ولكن ليس من أثر واحدٍ في أرضها وخرائبها نراه بالقلم العربي، حتى بعد فتح المسلمين لها، على يد خالد بن الوليد، سنة ٦٣٣م. وآثارُ تدمر أراميّة[٨٨]. ولغتُها آراميّة. وقومُها من أصل آرامي، من بلاد ما

---

(٨٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ١١١.
(٨٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ١٧. مادّة : تدمر.
(٨٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ١١١.
(٨٥) المرجع نفسه، ص ١١٢.
(٨٦) جواد علي، ألمفصّل في تاريخ العرب...، ٣/ ٨٢.
(٨٧) المرجع السابق نفسه، ٣/ ٨٢.
(٨٨) MUSIL, palmyrena, p. 334; A. CONTINEAU, Syria, XIV, 1933, 179; ج. زيدان، العرب قبل الاسلام، ص ١٢٠. J. STARCKY, Palmyre, p.27.

بين النهرَين، جيء بهم عيوناً ورقباء على تحركّات الأعراب في تخوم الدولة الرومانيّة الشـرقيّة. اعتنقوا المسـيحيّة منذ فجـر مبكّر، وكان عليها أسـاقفة علماء اشتركوا في مجامع كنسيّة مسكونيّة عدّة.

هكذا تميزت تدمـر، بلغتها وآثـارها وديانتها وانتمـاءاتها وأدوارها السياسـيّة عن كل من حولها من بدو وأعراب. بل كـانت في الصحراء لأجل محـاربة الأعراب، ولأجل تأمـين خطوط التجـارة بين الشرق والغـرب، وما يتبع التجارة من حضارة لم يعرفها أبناء الجزيرة العربيّة في تاريخهم.

جـ- وبقي علـينا أن نشـيـر هنا إلى دور **المناذرة والغـسـاسنة** كحضارتَين مـهمّتَين في أثرهما على العروبة ... ولكنّنا، لأهميّتـهما، سنترك الكلام عليـهـما إلى كـلامنا على الـلغة والقلـم العربيَّين، لـظنّنا انّ أعظم أثر تركتاه في «العـروبة» لا يضاهيه أثر. ولعلّ «العروبة» في أصلهـا وفصلها وتاريخها وحضـارتها وعباداتها ولغتهـا وقلمها ومعانيهـا وتقاليدها مدينة للمناذرة والغساسنة. ولعلّ قريشاً لم تقم إلاّ بمعونتهما.

٥ . بقي علينـا أن نشـيـر أخيـرًا إلى لـفظة " عـرب " في الكتـابات المعـروفة بكتـابات «**الحضـر**». لقـد «وردت في النقش الذي وسم بـ «٧٩» حيث جـاء في السطرين التاسـع والعاشر: وَبْجِنْدُو دَعْـرِبْ» ، أي «وبجنود العرب»[٨٩]. و«بْحِطْرُو وَعْـرِبْ»، أي: «وبالحضـر والعرب»[٩٠]. ووردتْ في النقش «١٩٣»: «مَلْكُـو دِي عْرِبْ»، أي: «مـلك العـرب». وفي النقش «١٩٤»، وفي نقوش أخرى[٩١]. قد وردت اللفظة في كلّ النقوش بمعنى «أعراب». ولم ترد علَمـاً على قـوم، أو جنس، أي بالمعنـى المفـهـوم من اللفـظة في الوقت الحاضر[٩٢].

---

(٨٩) هي صيغة سريانيّة حيث لفظها وحرف «د» يشيران إليها.

(٩٠) مجلّة سومر، السنة ١٩٦١، أنظر أيضاً:.Die Araber, IV.p. 243

(٩١) نفس المرجع، وأيضاً: P. 261

(٩٢) أنظر جواد علي، المفصّل، ٢٢/١، وأيضاً: p.269.

خامسًا - ٱلعروبة في القرآن والحديث

«والنصُّ الوحيد الوحيد الذي وردت فيه لفظة العرب عَلَمًا على العرب جميعاً من حضر وأعراب، ونُعِتَ فيه لسانُهم باللسان العربي، هو القرآن الكريم. ولقد ذهب د.هـ.مللر Müller إلى أنّ القرآن الكريم هو الذي خصّص الكلمة وجعلها علَمًا لقوميّةٍ تشمل كلَّ العرب. وهو يشكّ في صحّة ورود كلمة "عرب" عَلَماً لقوميّةٍ في الشعر الجاهلي كالذي ورد في نصٍّ لامرىء القيس، وفي الأخبار المدوَّنة في كتب الأدب على ألسنةِ بعض الجاهليّين "[٩٣].

لكنّ الحقيقة أنّنا نشكّ في قومية الأثنين معًا، أي: قوميّة عرب الجاهلية، وقوميّة عرب القرآن. ونشكُّ أيضًا في صحّة قول الدكتورَين معاً، أي: قول الدكتور جواد علي، وقول الدكتور مللر. فكلاهما يستشهد بآياتٍ من القرآن، وكلاهما يستدلّ بها على «علَميّة» العرب، في الوقت الذي لا تعني هذه الآيات إلاّ «وصفًا» لحياة شعب بدائي.

والقرآن، في كلّ حال، لا يوجد فيه إسمُ «عرب» دلالةً على شعب. فهو يستعمل لفظة «أعراب» عشر مرّات فقط للدلالة على شعبٍ بدوٍ منافق متخلِّف بدائي. و «عربي» كدلالة على لسان القرآن إحدى عشرة مرة. وها نحن ننقل هذه الآيات كلّها ليتأكد القارئ ممّا نعني.

يقول القرآن في وصفِ لغته وتمييزها عن أيّة لغة أخرى ما يلي: «هذا لسان عربي مبين»[٩٤]، «نزل به الروح الأمين بلسانٍ عربي مبين»[٩٥]،

---

(٩٣) جواد علي، ٱلمفصّل، ١/ ٢٤.

(٩٤) سورة النحل ١٦/ ١٠٣.

و«جعلناه قـرآناً عربيًا»[٩٦]، و«أنزلناه حكماً عـربيًا»[٩٧]، و«إنّا أنزلناه قرآناً عربـيًا»[٩٨]، «هذا كـتاب مـصدّقًـا لسـاناً عربيًـا»[٩٩]، و«أوحينا إلـيك قرآناً عربيًا»[١٠٠]، و «قرآناً عـربيًا غيـر ذي عوج»[١٠١]، «أأعجـميٌّ وعربيٌّ! قلْ هو للذين آمَنوا هدًى وشفاء»[١٠٢]. هذا كل شيء عن «عربيّ» و «عربيًا» ممّا نراه في القرآن.

ولكن ما يعني هذا؟

لم يطلق القرآن لفظة «عربي» إلاّ على اللغة. وهو لا يتكلّم إطلاقاً على شعب عربي، او أُمّة عربيّة، أو أرض عربيّة، أو حكم عربي، أو رجال عرب، أو بلاد عربيّة، أو دول عـربية، أو خيول عربيّـة، أو جيوش عربيّة، أو اقـتصاد عربي... القرآن لا يتكلّم على عنصريّة عربيّـة، أو إثنية عربيّة، أو عرق عربي، أو جنس عربي... إنّه لا يستعـمل لفظة «عربي» إلاّ في الكلام على اللغة التي نزل بها. فهو، بهذا، يقـصد بأنّه لم «ينزل» بتلك اللغات التي نزل بها الوحي القديم، كـاليونانيّة، والعبـرانيّة، والأراميّة، أو الـلغات التي نقلت هذا الوحي القديم، كـاللاّتينيّة، والـسريانيّة.. هذه الـلغات، سمّـاها القرآن «أعـجمـيّة»، والشعوب التي كانت تتكلّم بها سُمّيتْ أيضاً «أعجمية». وهكذا أصبح كلُّ مَن لا يتكلّم العربيـة «أعجميًا، أي أعـجمي اللسان، وكلُّ أعجـمي اللسان هو كلُّ

---

(٩٥) سورة الشعراء ٢٦/ ١٩٥.

(٩٦) سورة الزخرف ٤٣/ ٣.

(٩٧) سورة الرعد ١٣/ ٣٧.

(٩٨) سورة يوسف ١٢/ ٢، سورة طه ٢٠/ ١١٣.

(٩٩) سورة الأحقاف ٤٦/ ١٢.

(١٠٠) سورة الشورى ٤٢/ ٧.

(١٠١) سورة الزمر ٣٩/ ٢٨.

(١٠٢) سورة فصلت ٤١/ ٤٤.

شعبٍ لا يتكلّم العربية. فلا «الأعجميّة»[١٠٣]، إذاً، تعني شعباً معيَّناً، ولا «العربيّة» أيضًا. ألأعجميّة صفة كلّ لسانٍ غير عربي؛ وبالتالي صفة كلّ شعبٍ غير عربي. والعربيّة صفة لغة القرآن؛ وبالتالي لا تحدّد شعباً معيَّناً.

***

أمّا «الأعراب» فهم في القرآن جماعة موصوفة بكلّ ما للحياة البدويّة البدائيّة من صفات. والآيات العشر التي ترد فيها هذه اللفظة هي التالية:

«وَجاء المُعذِّرون من الأعراب ليُؤْذَنَ لهم.. سَيُصيبُ الذينَ كفروا منهم عَذابٌ أليم»[١٠٤]. «الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً. وأجدرُ ألاّ يَعلَمُوا حدودَ ما أنزَلَ اللّهُ على رسوله»[١٠٥]. و«منَ الأعرابِ مَن يَتّخذُ ما يُنفقُ مَغْرَما ويَتَربَّصُ بِكُمُ الدوائرَ. عليهم دائرةُ السَّوء»[١٠٦]. و«ممَّن حَولَكُم منَ الأعْرَابِ مُنَافقُون»[١٠٧]. «مَا كَانَ لأهلِ المدينة ومَن حَولَهم منَ الأعرابِ أن يَتَخَلَّفوا عَن رَسول اللّه»[١٠٨]. «وإنْ يأتِ الأحزابُ يَوَدُّوا لَو أنَّهُم بَادُونَ فِي الأعرابِ (أي كائنون في البادية)»[١٠٩]. «سَيَقُولُ لكَ المُخَلَّفُون منَ الأعرَاب: شَغَلَتْنا أمْوَالُنا وأهْلُونا (عن الخروج معك)، فاسْتَغْفِرْ لَنَا. يَقُولُونَ بألْسِنَتِهِمْ مَا لَيسَ فِي قُلُوبِهِمْ (أي هم كاذبون في اعتذارهم)»[١١٠]. «سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ: إذَا انْطَلَقْتُم إلى مَغانِمَ لِتَأخُذُوها! ذَرُونَا نَتَّبِعْكم.. قلْ للمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعرَاب سَتُدْعَونَ إلى

---

(١٠٣) أعجميّ ومشتقّاته: ٤ مرّات: النحل ١٦/١٠٣، فصّلت ٤١/٤٤ (مرّتين)، الشعراء ٢٦/١٩٨.

(١٠٤) سورة التوبة ٩/٩٠.

(١٠٥) سورة التوبة ٩/٩٧

(١٠٦) سورة التوبة ٩/٩٨.

(١٠٧) سورة التوبة ٩/١٠١.

(١٠٨) سورة التوبة ٩/١٢٠

(١٠٩) سورة الأحزاب ٣٣/٢٠، بحسب تفسير الجلالَين.

(١١٠) سورة الفتح ٤٨/١١، بحسب تفسير الجلالَين.

قَـومٍ أُولِي بَأْسٍ شـديدٍ تُقَـاتِلُونَهمْ، أو يُسْلِمُـونَ. فـإنْ تُطِيـعُـوا يُؤْتِكُمُ اللّهُ أجراً..»[١١١]. «قالتِ الأعـرابُ آمَنّا. قُلْ: لمْ تُؤْمِنُوا. ولكنْ قُـولوا: أَسْلَمْنا. ولمّا يَدخُلِ الإيمانُ في قـلُوبِكم»[١١٢]. «ومِنَ الأعــرَاب مَن يؤمِن بـاللّهِ واليــومِ الأخير»[١١٣].

أوصاف هؤلاء «الأعراب» هي هذه: إنّهـم منافقون، كفّار، مـتخلّفون معتـذرون عن الجهاد، مؤمنون في الظاهر، غارقـون في البداوة؛ يجاهدون مع المسلمين في سـبـيل المغـانم فقط لا فـي سبـيل اللّه؛ تشـغلهم أمـوالهم وأولادُهم؛ يهـتّـمـون بالتّـجارة؛ يقـولون بألـسنتـهم ما لـيس في قلوبهم؛ يتمـادون في النفاق؛ لا يعـرفونَ أحكامَ اللّه وحـدوده وشرائعه؛ هـم جلفاء الطبع، غليظه. ونصيبهم، لا محالة، العذاب.

ولكن، مَن هم هؤلاء «الأعـراب» الذين بهـذه الأوصاف؟ ألحـقـيقـة ليسوا هم شعباً مـحدَّداً وعلى جنس معيّن. تارةً تراهم في غزوات النبيّ، في بدر، وخيبر، والحديبة؛ وطوراً تراهم «مع بني حنيفة أصحاب اليمامة»[١١٤]، أعداء الإسلام، ومـرة أخرى تراهم مع أهل «فارس والروم»[١١٥] إلخ.. هم إذاً من كلِّ جنسٍ وعرق، ومِن كلِّ مكان وفي كلِّ مكان. أعني هم «البدو» مِن كلِّ الشـعـوب. هم سكان الصـحـاري، «أراذل»، و«أذلة»، و«أرذلون»، بحـسب القرآن[١١٦]؛ أو هم «خلعاء» «طـرداء» «صعاليك» «مـضطهدون» «عـصابات سوء» و«ذؤبان البادية» بحسب كتب الأدب والتاريخ.

---

(١١١) سورة الفتح ٤٨/ ١٥-١٦.

(١١٢) سورة الحجرات ٤٩/ ١٤.

(١١٣) سورة التوبة ٩/ ٩٩.

(١١٤) تفسير الجلالَين على ٤٨/ ١٦.

(١١٥) تفسير الجلالَين على ٤٨/ ١٦.

(١١٦) أنظر: ٢٦/ ١١١؛ ١١/ ٢٧؛ ٣/ ١٢٣؛ ٥/ ٥٤؛ ٢٧/ ٣٤ و ٣.

ومع هذا، إنّ «ما يقال في المعاجم العربية من أنّ هناك فرقًا بين كلمتَي عربي وأعرابي، وتخصيص الأولى بسكّان المدن والثانية بسكّان البادية، فلم يَحدثْ إلاّ في عصورٍ قريبةٍ من ظهور الإسلام. أمّا قبل ذلك فلم يكن هناك فرقٌ مطلَقًا؛ بل كان كلٌّ مِنَ الكلمتَين يدلُّ على سكّان البادية فَحسب. أمّا سكّان المدن والأمصار فكانوا يُنْسَبُون إلى قبائلهم، أو يُعْرَفُون بمناطقهم»[(١١٧)].

***

وفي الأحاديث النبويّة، لا يقلّ شأن «العرب» أو الأعراب عمّا هم في القرآن من نفاق وكفر وجلافة طبع. لقد اشتهر عن الرسول قوله: «مَن بدَا جفَا»[(١١٨)]، أو «مَن سكنَ البادية جفَا»[(١١٩)]. وفي معاملته معهم ومعرفته بهم قال: «إنَّ جارَ البادية يتَحوّلُ عنك»[(١٢٠)]، أي إنّ البدوي يتخلّف عمّا تطلبه منه. و«كلُّ أمّة تلحق بالبادية هلكتْ»[(١٢١)]. لهذا «لا تجوز شهادة بدويٍّ على صاحب قرية»[(١٢٢)]، أي على حضري. وعن عائشة قالتْ: «قَدِمَ ناسٌ مِن الأعرابِ على رسول اللّه (ص) فقَالوا: أَتُقَبِّلُونَ صبيانَكم؟ قالوا: نعم. قالوا: لكِنّا، واللّه، ما نُقَبِّل. فقال رسول اللّه (ص). أوَ أَملكُ إنْ كانَ اللّه نزعَ منكم الرحمة! أي مِن قلوبكم؟!»[(١٢٣)].

وأشهر ما ورد على لسان الرسول قوله: «الكبائر ثلاث... منها التعرّب بعد الهجرة»، أي: ألعودة إلى العروبة بعد الإسلام.

---

(١١٧) أ. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ١٦٤.

(١١٨) أحمد بن حنبل، ٢/ ٣٧١ و٤٤٠؛ ٤/ ٢٩٧.

(١١٩) أبو داود، أضحى ٢٤، الترمذي، فتن ٦٩، النسائي، صيد ٢٤، إبن حنبل ١/ ١٤.

(١٢٠) سنن النسائي، باب الاستعاذة، ٤٤.

(١٢١) أحمد بن حنبل ٥/ ٤٥.

(١٢٢) إبن ماجة، باب الأحكام. ٣٠؛ أبو داود، أقضية، ١٧.

(١٢٣) أنظر في ذلك: أبو داود، ٦٧، ابن ماجه ٢٢، تفسير ابن عباس على ٢/ ١٩٧...

هذه الأحاديث النبويّة تدلُّ بوضوح على اعتبار النبيّ للأعراب سكّانِ البادية بأنّهم أصحاب جفاوة وغباوة وتخلّف. وهم أيضاً، بحسب تفسير ابن عباس لكلام القرآن، «فلا رفث ولا فسوق»، وهي «العرابة»، و«العرابة في كلام العرب هو ما قَبُح من الكلام. ومنها قوله: عرّب عليه، أي: قبّح قولَه وفعلَه، وغيّر عليه، وردّه.

لكنّ في الأحاديث كلاماً على «قرى عربية»، و «قوس عربيّة»، و«كبش عربي»، و «فرس عربي»، و «كتاب عربي»[١٢٤]... وهذه أيضًا، إنْ صحّ إسنادها، لا تفيد قوميّةً أو جنسيّةً عربية. بل هي صفات تدلُّ على أصولها البدويّة البدائيّة.

(١٢٤) أنظر النسائى، باب الفيء، أحمد بن حنبل ٥/ ٢٨٨ و٢٤٤؛ ٥/ ٧٨؛ ١/ ٨٨؛ ٣/ ٢١٩؛ ابن ماجه، باب الجهاد، النسائي أيضًا باب الخيل ٩، صحيح البخاري، تفسير سورة ٩٦/ ١؛ باب تعبير الرؤيا، ١؛ صحيح مسلم، باب الايمان، ٢٥٢.

خاتمة الفصل الثاني

إنّ ما يقوله المؤرِّخون المسلمون عن معنى العروبة، عن أقسام العرب إلى عربٍ عاربة، وعربٍ بائدة، وعربٍ مستعربة، إنّما هو قول متأخِّر جدًا، لا نجده في أيٍّ مصدرٍ سابق للإسلام. والصحيح أنّ ممالك عديدة نشأتْ في اليمن، ولكن لم يُطلق على واحدة منها إسم «عرب». بل إنّ هذه الممالك سمِّيت باسماء مؤسِّسيها، أو أحد أبطالها، أو أقوى قبيلة كانت في نشأتها.

«وخلاصة ما تقدّم ان لفظة (ع ر ب) هي بمعنى التبدّي والأعرابيّة في كلِّ اللغات الساميّة، ولم تكن تُفهم إلاّ بهذا المعنى في أقدم النصوص التاريخيّة التي وصلت إلينا.. وقد عنت بها البدوَ عامّةً.. وبهذا المعنى استُعملتْ.. ولمّا توسّعت مدارك الأعاجم، وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب، توسّعوا في استعمال اللفظة، حتّى صارتْ تشمل أكثرَ العرب على اعتبار أنّهم أهلُ بادية، وأنّ حياتَهم حياةُ أعراب. ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم، فصارتْ عَلَميّة عند أولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكّانها. وأطلق لذلك كتبةُ اللاّتين واليونان على بلاد العرب لفظة Arabae و Arabia أي العربية بمعنى بلاد العرب»[٣].

والحقّ يُقال إنّ لفظة «عرب» في أصلها وفصلها، ولغتها ومعناها، وتاريخها، لا تعني إلاّ «الغرب». وقد أُطلقتْ، أوّل ما أُطلقتْ، على سكّان «غربي الفرات». ولمّا خرج هؤلاء من منطقتهم، وتعرّفوا إلى مكّة والحجاز ومختلف أنحاء البادية، دخلوا إليها بتجارتهم ولغتهم «العربية». والذين

(٣) جواد علي، المفصّل...، ١/٢٥ – ٢٦.

تكلّموا هذه اللغة من بدو الجزيرة ، أصبحوا، فيما بعد، يسمّون، بالنسبة إلى لغتـهم، «عَرَبًا». فـتكون اللغـة هي التي أعطتْ إسمَـها للناطقين بهـا. وبذلك يكون القـرآن، في إطلاقه إســمَ العروبة على اللغــة وحـدَها، أصدق مـرجع للبحث عن حقيقة العروبة... وما كتبه المسلمون، بعد الإسلام، عن مراحل ما قبل الإسلام، تخمينات لا تفيد الحقيقةَ إلاّ تعقيدًا.

الفصل الثالث

مواطن العروبة

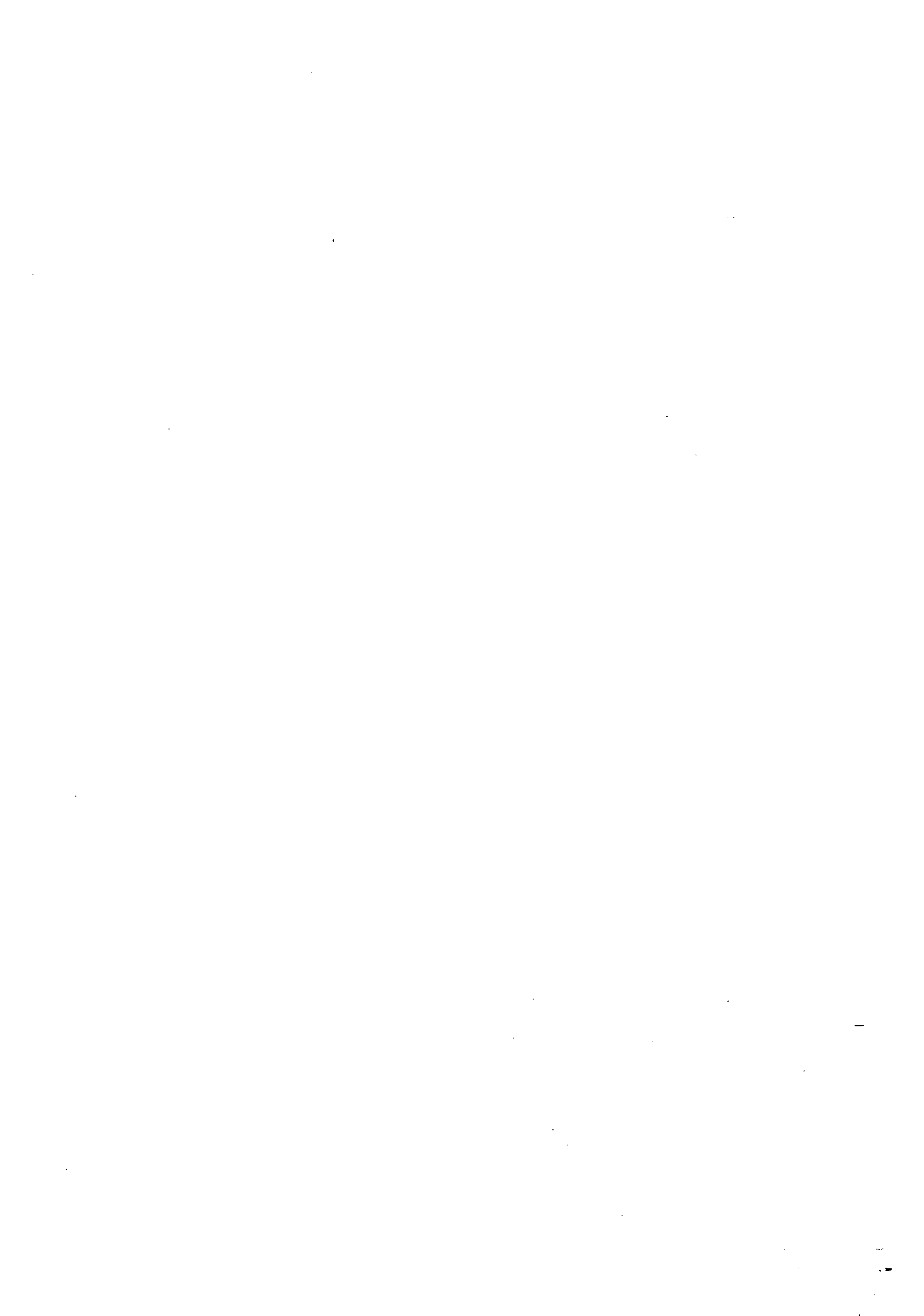
أولاً : هويّة «الوطن العربيّ»

ثانيًا : حدود العروبة

ثالثًا : طبيعة العروبة

رابعًا : أقسام العرب

خاتمة الفصل الثالث



أوّلاً – هويّة «الوَطن العربي»

في هذا الفصل دليلٌ آخر على اضطراب «العروبة»، في معانيها، وحدودها، وتاريخها، وجغرافيّتها، وطبيعتها، وأقسامها.. وهو ممّا يُثبت، مرّة أخرى، اضطرابًا واضحًا في مفهومها الحقيقي. ونحن، إذ نجول مع المنقّبين في الجزيرة العربيّة، والباحثين الأقدمين والمعاصرين في مواطنها، والمستشرقين وأهل الأخبار من المسلمين، تتأكّد لنا، أيضاً وأيضاً، صعوبةُ معرفة حدود ما يسمّى شبه الجزيرة العربيّة، وحدود العروبة نفسها، وبالتالي هويّة الوطن العربي.

ولن نعرف بالسهولة المطلوبة، لا من المؤرّخين ولا من الجغرافيّين، حدودَ العروبة، ولا هويّتها. كما لن نعرف بالتأكيد كيفيّة امتدادها وانتشارها، لا قبل الإسلام، ولا بعده. وهل هي، كما يقول **سلوم سركيس**، «حصيلة تفاعل بين تراث معلوم (التراث اليوناني والروماني) والذهنية العربيّة؟»[١]، أم هي انصهار بين الإسلام والعشائر البدويّة؟ أم هي شتات قبائل جمعها النبيّ في الإسلام، فقضى عليها به!!.

ألحقيقة إنّ كلّ شيء، فيما يخصّ مفهوم العروبة، على الأرض وفي التاريخ، مضطرب. وهذا الاضطراب عقّد الحلّ: إنّ «العربيّة الصريحة»، أو «العربيّة العاربة»، هي، بحسب أهل السِّيَر والأخبار المسلمين، «عربيّة اليمن ومخاليفها»؛ وبحسب المؤرّخين اليونان والرومان، هي «العربيّة السعيدة»؛ وبحسب العروبيّين، هي «القحطانية».

---

(١) سلوم سركيس، العربية بين الانعزالية والوحدة، ص ٣٤.

هذه العـروبة، في رأي هؤلاء، هـي الأصل. وربما كـان دسـتـورُ الجمهـوريّة العربيّة اليمنيّـة، الصادر في ٢٨/١٢/١٩٧٠، على حقّ عندما تحدّى بقوله: «لا يستطيع شعبٌ ينتمي إلى العروبة أن يدّعيها قبلَنا، أو يقدّم لنا دروسـاً فيـها»[٢].. فلكأنّ اليـمنيّين يؤكّدون بـأنّهم هم الشعب العـربي الأصيل الصريح؛ وبأنّ بلادَهم هي أصل العروبة الحقّة، وموطنها الأوّل.

أمّا سـكّان العربيـة الشمـاليّة، أي: الأنبـاط، والغسـاسنة، والمناذرة، وأهل بادية الشـام، وبدو سـيناء وتدمـر.. أي: بلاد الأردن والشـام وغـزّة وفلسطين ومـا بين النهرَين وبـلاد الرافدين.. فـهؤلاء، بحـسب أهل السِّيَـر والأخـبـار، من أصلٍ يمني، نزحـوا، بسـببٍ من الأسـبـاب الاقـتـصـاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة، من اليـمن إلى شمالي شبه الجزيرة العربيّة. وكان لهم، كما كـان لسكان العربيّة الجنوبيّة، دولٌ وممالك وحـضارات وآثار. لقد أطلق عليـهـا المؤرِّخون اليـونان والرومـان إسم «العـربيّـة الصخـريّة»، أو «الحجريّة». وهم بالتالي، وبحسب المسلمين أيضاً، «عرب خلّص».

وأمـا سكّان العربيّـة الوسطى، أي «العـربيّة الصـحراويّة»، بحـسب المورّخين، فلم يكن لهم دول ولا إمارات ولا ممالك، ولا حـضارات ولا آثار... لقد كانوا أعراباً وبدواً، وسكّانَ خيام، رحّـلاً تائهين، يتتبّعون الإبل والسرح حيث تجد لها مرعى. هؤلاء هم «العدنانيون»، أو «المعديون»، أو «النزاريّون»، أو «العرب المستعربة»، أي المنتمون إلى العروبة انتماءً. هم قبائل وعشائر من «أخلاط» العرب والعجم. عاشـوا على تخوم «الربع الخالي»، وفي «صـحراء النفود»، وفي نجْد، والحجاز، وتهامة، والعروض... فهم، بالنتيجة، وبمفهوم المسلمين أيضًا وأيضًا، «عرب مستعرِبون».

في الأصل، أي منذ تكوين الممالك العربيّـة الجنوبيّة، في القرن الثالث عشر قبل الميـلاد، لم يكن في العربيّة الصحراويّة موطـنٌ لإنسـان. لقد كانتْ

---

(٢) الاحكام الدستورية للبلاد العربية، ص ٢٨٦.

هذه البقعــة من الأرض خاويةً خالية، لا يتــمكّن أحدٌ من العيش فيــها، بسبب شدّة الحرّ وانعــدام المياه وقحط التربة.. والذين توطّنوا هذه الصــحراء كان مــعظمــهم من «الخلعــاء»، و«المــطرودين»، و«المهــجّــرين»، و«المعــارضين»، و«الطارئين».

هؤلاء طُردوا من أوطانهم ودولهم، بــسبب شــرٍ صنعوه؛ أو جــريمة اجتمــاعية اقترفــوها؛ أو معارضتــهم لسياسة حكوماتهــم؛ أو بسبب عوامل طبيعية أجبرتهم على النزوح.. هؤلاء عاشوا في الصحراء وكوّنوا «عصابات سوء»؛ وسمّوا، في كتب السِّير والأخبار، وفي كتب الأدب والشعر –والشعر ديوان العرب–، «صعاليك»، و«ذؤبان العــرب»، و«لصوص البادية»؛ وسمّوا في القرآن، «أذلّة» و«مرذولين» و«أرذال»..

هؤلاء التــجأوا إلى البوادي أفــراداً مشــتَّتين، لا مــأكل لهم فيــها ولا مشــرب. بل كان الغــزو والسلب والنهب والسطو مــورد رزقهم الوحــيد... وأحيــاناً، انتظمــوا بشكل «عصــابات» على طرق القوافل التــجاريّة العــابرة الصحراء، وجنوا منها الأرباح الطائلة. وكان لكلِّ عــصابة «سيّد» أو «شيخ» ينظّم شؤونهم، ويُسكنهم في بقاعٍ يسهل فيــها الاعتداء على القوافل. وألّفوا «قبائل» و«عشــائر». ومارسوا الغزو كسبيل وحيــدٍ للعيش. واعتنَوا بالجمل والخيــل كوسائل نــاجعة لــلعدو والاعتــداء.. وكوّنوا فــي الصحراء مــواطنَ عُرفت باسمهم.

وكــانت «مكّة» و«يثــرب» و«الطائف» و«خيــبــر» و«تيمــاء» و«وادي القرى»... أحــسن موطن لهؤلاء «الخلعــاء»، بسبب توفّر لقــمة العيش فيــها، وبسبب تــلك القوافل التــجاريّة المارّة بها. عــلى طرق التجارة عــاش الناس، وغزوا، ونهبــوا، وكان لهم بعض العيش الهني... ولكثرتــهم وشدّة بطشــهم، كانت القوافل التجارية، لِتمنعَ عن بضائعها سطوةَ الجائعين البائسين، تتمتّع بخفارة كبيرة.

هؤلاء الجائعون كانوا من أجناس متعدّدة ومتنوعة، معظمُهم كان من الحبشة، ومنهم مِن دولتَي الفرس والروم، ومنهم من اليونانيّين والمصريّين، وآخرون من غزّة وفلسطين، وآخرون من اليـمن ودولِها، ومن مختلف أنحاء العربيّة الجنوبيّة السعـيدة، الذين ظلمهم الدهر، وطردهم إلى حيثُ الجوع.. وهكذا تجمّع الناس قـبائل وعشــائر وبطوناً وفخوذاً، جـياعاً ومـحرومين.. وانتظموا أحياناً، وفرضوا على التّـجار مكوساً وضرائب. وكان أعظم تجمّع لهم في مكّة وفي قبيلة «قريش».

وبسبب هذا التنـوّع في «مكّة»، «أمّ القرى»[٣]، أي العاصمــة، يصعب علينا معرفــة هويّة سكّان «العربية الصحراويّة» عـامّة، وبنوعٍ خاص، هويّة سكان نجد وتهامة والحــجاز، وبالأخص أيضًا هويّة سكان «مكّة» و«يثرب» وسائر المحطّات الشــهيرة التي كـانت تمرّ بها القوافل التـجاريّة وترتاح من عناء السـفر.. وبســبب ذلك أيضًا، تصـعب علينا معـرفةُ مَن يحـمل الصــفة العربيّة من أصل يمني، ومَن يحملها من أصلٍ رومي، أو فارسي، أو يوناني، أو يهودي، أو فلسطيني...

هذا، علمــاً، بأنَّ سكّان اليـمن أنفـسَهم، الذين كـانوا أصلَ «العـرب»، بحسب أهل السِّـيَر والأخبار، أضاعـوا عروبتَهم هم أيضاً. ربّمــا كان سكّان اليمن، قـبل تحضّـرهم، بدواً، أي «أعراباً»؛ ولكنّهم فـقدوا هذه العـروبة بعد تحضّرهم. لهذا أصبحوا يسمّـون، بعد تحضّرهم، بأسماء دولهم وحكّامهم. ولم تنعمْ دولة واحدة من دولهم بصفة العروبة.

***

لهذه الأسباب أعلاه، لا يسعنا تحديد هويّة العروبة الآن، ولا التعريف بالوطن العـربي، الذي تضطرب حـدوده، وطبيـعـته، وحـضاراته. وتبـدو

---

(٣) تعبير في القرآن يعني به مكّة؛ رَ: سورة الأنعام ٦/ ٩٢؛ وسورة الشورى ٤٢/ ٧.

الصعوبة أشدّ تعـقيداً، عندما نرى كلَّ قطر يسمَّى عربيًا، مربوطـاً بجغرافيا معيّنة، وبطبـيعة مميّزة، وبحـضارات تختلف الواحدة عن الأخرى اخـتلافاً شاسـعاً : فمـصر، مثـلاً، مرتبطة بنيلِها وحضارتهـا الفرعونيّـة، والعراق بنهـرَي دجلة والفـرات وحضـارات ما بين الـنهرين، وسـوريا بسـهولهـا وحـضارتهـا الأراميّـة السـريانيّة، ولـبنان بجبـاله ومناخـاته وحضـارته الفينيقيّة، والسعوديّة بصحاريهـا وقبائلها البدويّة، والإمارات بعشائر تدور في فلك السـعوديّة، واليـمن بتجـارتهـا، وفلسطين وشرقي الأردنّ بنشـأة الأديان فوق أرضها... وهكذا.

أمّا الـوطن العربي، في تحـديده اليوم، من المحـيط إلى الخليج، فـهو يتـعـيّن بالنسـبـة إلى الدِّين الواحـد واللغـة الرسمـيّـة الواحـدة، أي الدِّين الإسلامي واللغة العـربيّة. وليس من ميزة أخرى، غيـر الدِّين واللّغة، تجعلنا نقول بصوابيّة الوطن العربي هذا.

ثانيًا – حدود العروبة

سمّيت بالجزيرة العربيّة، أو بشبه الجزيرة العربيّة، لأنّ المياه تحيط بها من جهات ثلاث: ألشرق والغرب والجنوب. وهي أكبر شبه جزر العالم مساحة[٤]. أكثر أراضيها صحراويّة، وأعظم شعوب الدنيا بداوة، واستمراريّة في البداوة.. بالرغم من إحاطتها بالمياه، يبقى مناخها أشدّ مناخات الأرض قساوة.

لا اختلاف بين الجغرافيّين على تحديد شبه الجزيرة العربيّة من **جهة الشرق**، حيث تنتهي عند الخليج العربي، المعروف عند اليونان، بالخليج الفارسي، وعند قدماء العراق، بـ «بحر الشروق»، أي البحر الذي تشرق منه الشمس[٥]، وعند الأشوريّين بـ «البحر المرّ»، أي المالح[٦]..

وكذلك لا اختلاف من جهة حدودها **الجنوبيّة** حيث المحيط الهندي الذي، عند اتّصاله بأفريقيا وسواحل الجزيرة، يُسمّى بـ «البحر الأريتري»..

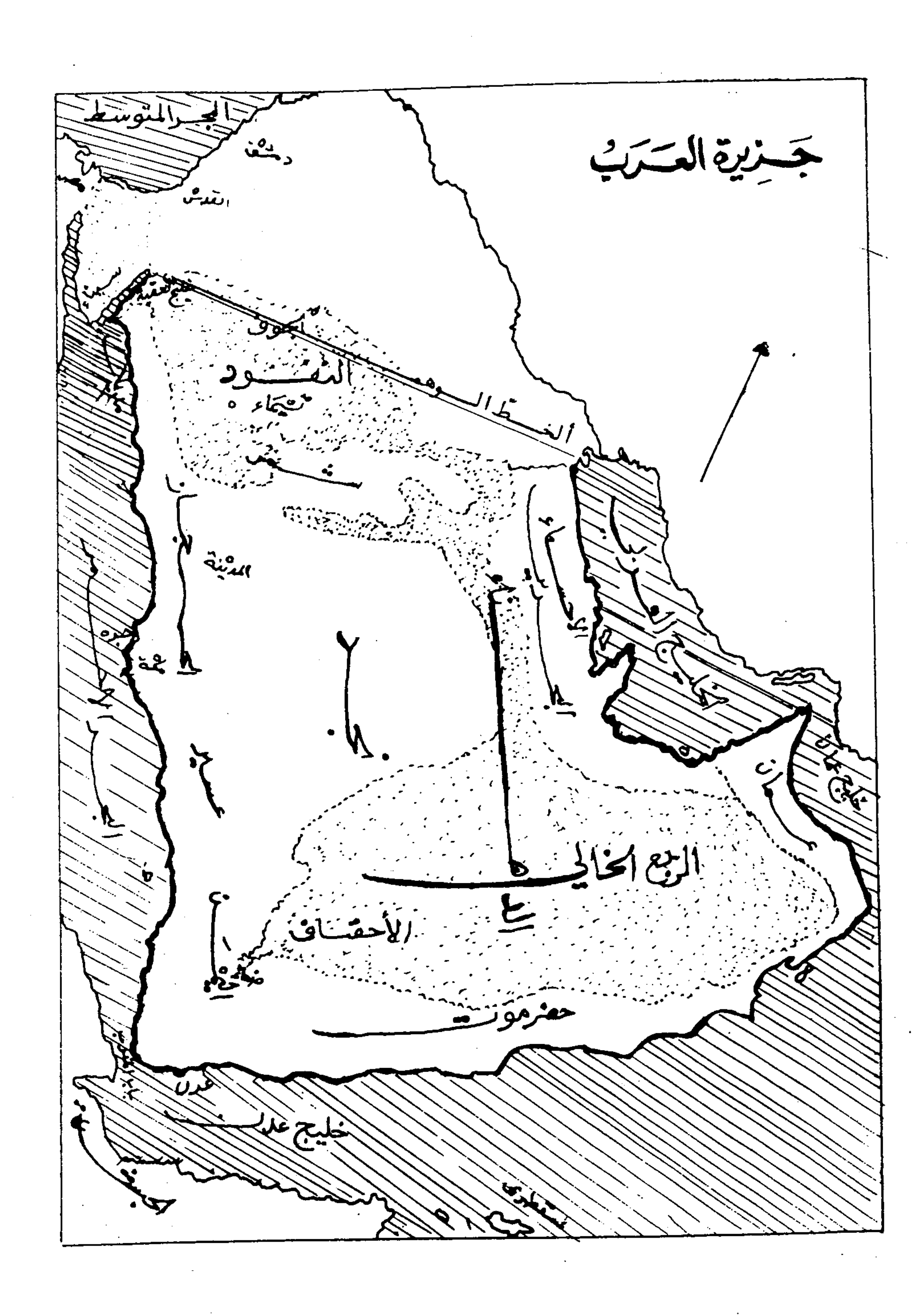
ولا اختلاف من **جهة الغرب** عند البحر الأحمر، وشكله كثعبان منتصب القرنين، رأسه في خليج العقبة، وقاعدته عند مضيق باب المندب.

---

(٤) يصعب إعطاء رقم دقيق عن مساحتها لعدم التأكد من حدودها الشمالية.. والذين يمسحونها بـ ١٠ ملايين كلم٢ يُدخلون عليها الهلال الخصيب وما يشمله من بلاد الشام والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين، ومن بعض آسيا الصغرى وإيران ومصر.. ومنهم من يمسحها بـ ٣ ملايين كلم٢، مقتصرًا بذلك على حدودها الصحراويّة الشمالية المعروفة قديماً عند العرب. أنظر: لوبون، حضارة العرب، صفحة ٥٦ وما بعدها.

(٥) GEORGES Roux, Ancient Iraq, London, 1949, p. 29....

(٦) المرجع السابق نفسه، ص ٢٤٧.



جزيرة العرب
البحر المتوسط
دمشق
القدس
الجوف
النفود
تيماء
المدينة
مكة
الربع الخالي
الأحقاف
حضرموت
عدن
خليج عدن

هذه الحدود الشرقية والجنوبيّة والغربيّة فرضتها البحار، فلا اختلاف فيها. لكنّ الاختلاف كان، منذ البدء، على كيفيّة شكل الأرض. والآراء في ذلك مختلفة: فمن الجغرافيّين من كان يقول بأنّ أرض العربيّة كانت متّصلة قديماً بأفريقيا؛ ومنهم من كان يقول بأنّها كانت، قبل ذلك، مغمورةً بمياه البحار، للوحة في التربة لا تزال بيّنة؛ ومنهم مَن ظنّ بأن البحر الأحمر كان بحيرة تحيط بها الأرضون من كلٍّ جهة، فتكون بذلك أفريقيا وشبه الجزيرة العربيّة متّصلة بعضها ببعض.. غير أنّ كل هذه الافتراضات ليستْ من شأننا في هذا البحث، لأنّها ترجع إلى ما قبل التاريخ.

أمّا الاختلاف الكبير، وعليه تتوقف نتائج جدّ خطيرة، فهو على **الحدود الشماليّة**. و«مهما يكن من أمر فإنّ الحدود الشماليّة للجزيرة العربيّة لم تكن قطّ واضحةً. يقول الجغرافي العربي المشهور ياقوت الرومي (ت ١٢٢٩م) إنّ هناك آراء عديدة حول التخوم الشماليّة. بينما الهمداني (ت ٩٤٥م)، وهو جغرافي عربي آخر، يعتبر أنّ الحدَّ الشمالي الشرقي هو مجرى الفرات الأسفل، والحدّ الشمالي الغربي هي الشواطئ الفلسطينيّة عند البحر الأبيض المتوسّط. وهذا الوصف لحدود الجزيرة العربية -في رأي بلياييف- كان يمكن الأخذ به لو لم تُقحم فلسطين في هذه الحدود، إلاّ أنّه ممّا لا شك فيه أنّ بادية الشام كانت في ذلك الحين جزءًا من الجزيرة»[٧].

لكنّ رأي الجغرافيّين القدماء يشير إلى أنّ الحدود الشمالية هي «خطّ وهمي يمتدّ، في اصطلاح العلماء العرب، من خليج العقبة حتى مصّب شطّ العرب في الخليج العربي. فيكوّن النفود الشمالي من الحدود التي تفصل الهلال الخصيب عن جزيرة العرب»[٨]. وعند فيليب حتّي أيضًا قوله: «أمّا

---

(٧) ي. أ. بلياييف، العرب والاسلام والخلافة العربية، ص ٥٣.

(٨) جواد علي، ألمفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١ / ١٤٣.

حدود الجزيرة الشماليّة فغير واضحة المعالم، ويمكن اعتبارُها خطًا وهميًا يتّجه شرقاً من رأس خليج العقبة حتّى الفرات»[٩]، أي مصب الفرات..

لكنّ المشكلة كلّها تكمن في رسم هذا «الخطّ الوهمي». أهو خطّ مستقيم، أم متعرّج؟ و «الخطّ» في طبعه مُستقيم، إلاّ أنّ بعض المؤرّخين أرادوه متعرِّجًا. ومع أنّ غوستاف لوبون يعترف بأنّ «حدّها الشمالي غيرَ واضح»[١٠]، فهو يحدّده، رغم غموضه، بخطٍ متعرّج، فيميل به من غزّة إلى جنوب البحر الميت فدمشق، فالفرات، حتّى ينتهي بخليج فارس. وهو بذلك، يريد إدخال كلّ بقعةٍ صحراويّة ضمن حدوده، أكانت هذه البقعة في بلاد الشام أو العراق أو تركيا..

ثمّ إنّ بعض المؤرّخين المسلمين يريدون هذا الخطّ ممتدًا بامتداد العرب أنفسهم. هؤلاء امتدّوا، في فتوحاتهم الإسلاميّة، إلى بغداد وجزيرة الشام وأنطاكيا، ثمّ إلى السواحل الفينيقيّة ومصر وأفريقيا.. وجعلوا هذه المناطق كلّها، بسبب امتدادهم الإسلامي، عربيّة. فأصبح الإسلامُ، بنظرهم، هو الذي يقرّر عروبةَ الأرض؛ كما أصبحتِ اللغةُ العربيّة هي التي تقرّر هويّة الشعوب.. إلاّ أنّ هذين العاملَين لا يستطيعان ولا يكفيان البتة لمثل هذا القرار الخطير. بل هناك عوامل أخرى أشدُّ فعلاً وأكثرُ صحّةً وأثبتُ علماً وأقدمُ تاريخاً، لا يمكن إهمالها؛ بل قد تكون هي الأصح.

من هذه العوامل التي تكوّن حدود العربيّة الشماليّة وتفصلها عن حدود ما سمّي بالهلال الخصيب: فروقات المناخ، والطبيعة، وألوان المعيشة، والتاريخ، والآثار، والحضارات، والتقاليد، والأعراف، والسنحة، ولون البشرة، و«نوعية الدمّ التي تحدّد العرق»[١١]، والمميِّزات الخلقية والأدبيّة،

(٩) فيليب حتّي، تاريخ العرب، ص ٤٠.

(١٠) حضارة العرب، ص ٥٥

(١١) M. RODINSON, Les Arabes, p. 46....

والأحكام والقـوانين العامّـة، والموقف الواحد من القـيم الإنسانيّـة، والنظرة الواحدة إلى المصير...

هذه كلّها لم تكن هي نـفسها جنوبي الخطّ الوهـمي كما في شمـاليه. كما لم تكن نفسها في البقاع الشماليّة.

وبسبب ذلك كـتب جرجي زيدان يقول: «أمّا قـبل الإسلام فكان يُراد بالعـرب سكّان جـزيرة العـرب فـقط، لأنّ أهل العـراق والشـام كـانوا من السريان والكلدان والأنباط واليهود واليونان، وأهل مصر من الأقباط، وأهل المغـرب من البـربر واليونـان والوندال، وأهل السـودان من النوبة والزنوج وغيرهم»[١٢]..

---

(١٢) جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام، ص ٤١.

ثالثاً – طبيعة العروبة

تتميّز طبيعة الجزيرة العربيّة، بحسب تحديدها الآنف الذكر، عن طبيعة سائر المناطق المحيطة بها، من الجهة الشمالية طبعاً. فهي يغلب عليها القحط والجفاف. وتكوّن الصحراء أراضيها، ما عدا بعض واحات صغيرة، كما يظهر ذلك على الخريطة، رقم ٢. وتتّصف هذه البادية بتربة رمليّة وبمناخ سيء، حارّ. لا ماء فيها، ولا أنهار. وبالتالي لا تصلح للزرع..

أمّا غربي الجزيرة فأرض مرتفعة، «تسيطر على السواحل الأفريقيّة، وتكوّن سلاسل من المرتفعات متّصلاً بعضُها ببعض.. ويقال لهذه المرتفعات "جبال السراة"[١٣] وهي توازي ساحل البحر الأحمر، وتقترب منه في مواضع عديدة»[١٤]. ثمّ تبتدئ الأرض بالانخفاض تدريجًا، من الغرب مروراً بالجنوب حتى تصل إلى الخليج العربي، بمحازاة البحر. ولكنّ «الجبل الأخضر» في أقصى الجنوب الشرقي يشذّ عن هذا الانحدار، إذ يعود ليرتفع حتى يبلغ زهاء عشرة آلاف قدم.

أمّا في الداخل فأغلب الأرض صحراء قاحلة، لا تصلح لزرعٍ أو لضرع. وقد ميّز الجغرافيّون فيها أنواعًا عديدة، وتعرّفوا على نوعيّة تربتها الرمليّة:

فمنها ما يسمّى بـ «الحرار»، وهي أرض بركانّية، تنتشر فوقها حجارة ناتئة حادّة يصعب السير عليها. و«الحرّة، أرض ذات حجارة سود

---

(١٣) السراة، أعلى كلّ شيء، أنظر: معجم البلدان، ٥/ ٥٩، تاج العروس، ١٠/ ١٧٤.

(١٤) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١/ ١٤٤.

نخرة، كأنهّـا أحرقت بالنار»[١٥]. و «الحرّات» موجودة في الجـزيرة العربيّة في أمكنة عديدة. ممّا يدل على كـثرة ما كان فيـها من براكين... وبسبب هذه البراكين كثـرتِ التضاريس والوديا والتلال، كـما كثرت المعـادن والأحجار الكلسية والغرانيـتية والرملية، وكذلك الموادّ الكبريتـيّة والنفطيّة.. وكلّها من آثار تلك التقلبّات الجوفية التي حدثت منذ أقدم العصور.

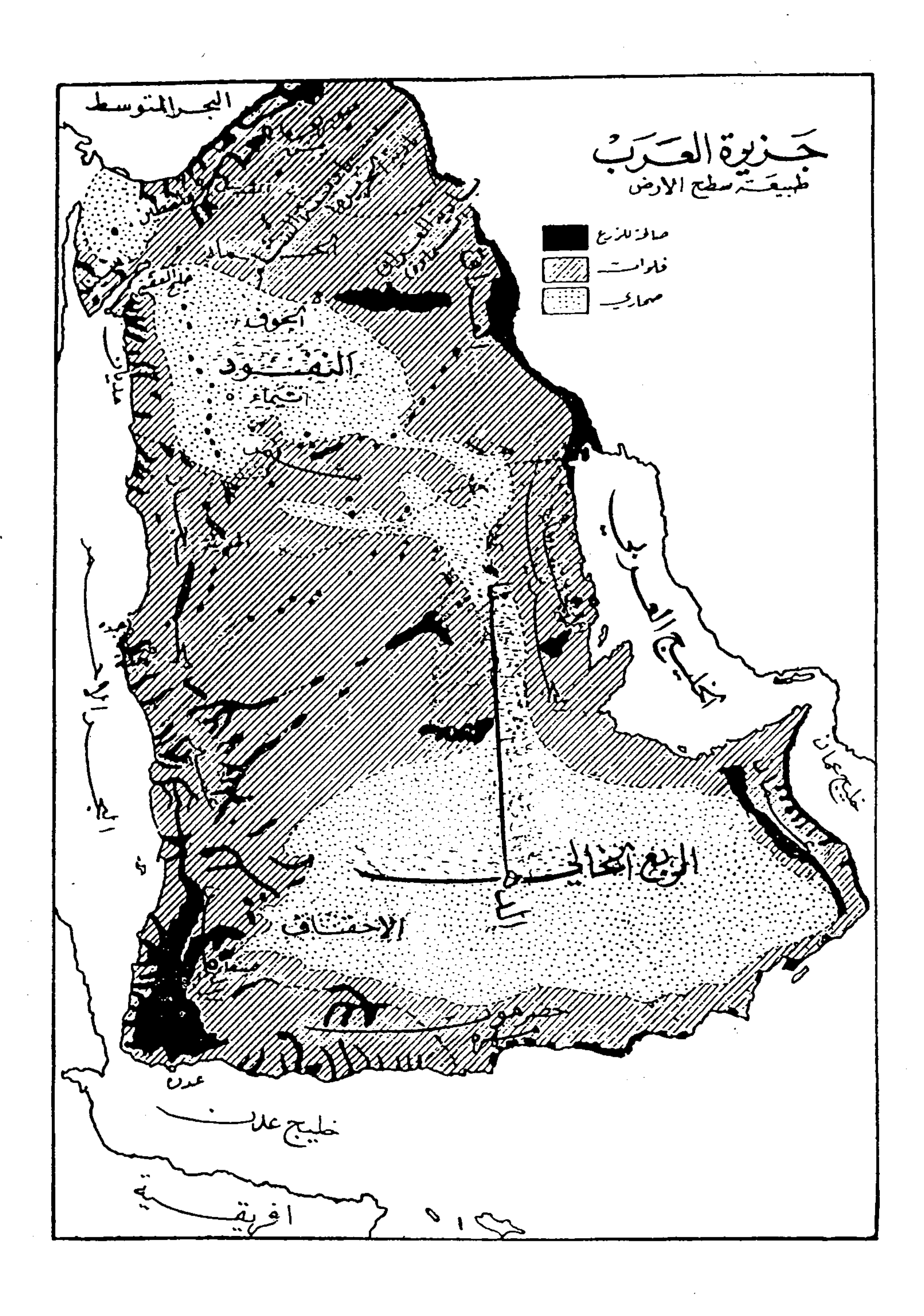
ومنهـا ما يسـمّى بـ «الدهناء» وهي مـساحـاتُ رملٍ حـمراء. فـيهـا سلاسل من التلال ذات ارتفاعات منخفضة ومختلفة، وهي تكثر في مختلف أنحاء البـلاد، وأخصّهـا تلك التي تمتّد من الربع الخـالي شمـالاً غرباً. وهي أكبـر مساحةٍ من كلِّ أرض الجـزيرة. لا تصلح لسكن، ولا ينبت فيـها نبت. تكثر فيـها العواصف الرمليّة، وتندر الميـاه، وتشتّد الحرارة. أرضهـا مالحة ممّا جـعل بعض الجيـولوجـيّين يعتـقد أنّ مـيـاه الخليج كانت، في سـالف الأزمان، تغمرها برمّتها.

ومنها «النفود»، وهي صحراء واسعة تغطّيـها رمال بيضاء وحمراء، وهي متموّجة بـسبب الرياح العاصفة التي تضربها باستـمرار، فتكوّن منها مرتفعـات وكثباناً ومنخفـضات مختلفة. تمطر عليـها السماء فتـحوّلها إلى بساط أخضر، تتزيّن بالأعشاب وبعض النباتات، فتستفيد منها الماشية، ولو إلى عمـر قصـير. ثمّ يحلّ بهـا الجفاف بعـد حين، فتنتـقل الماشية مـنها مع رعيانها إلى مكان آخر.

ومنهـا «الدارات»، وهي فجـوات تنبت فـيهـا الأعشـاب، وتتكوّن من أرض سهلـة وتربة ليّنة في أكثـر الاحيـان. وهذه متـفرّقة في طـول البلاد وعرضها، ما عدا مناطق النفود والدهناء حيث لا ينبت شـيء البتة.

---

(١٥) أنظر مـعـجم البلدان، ٣/٥٦؛ وتاج العـروس، ٣/١٣٥؛ ولسـان العـرب، مـادّة: "حرّة".


جزيرة العرب
طبيعة سطح الارض
البحر المتوسط
النفود
الربع الخالي
الاحقاف
خليج عدن
عدن
افريقية
خليج عمان
الجوف

ومنها «الجبال»، وأهمّها سلسلة جبال السراة، الممتدة بإزاء شواطىء البحر الأحمر. وأعلى قممها جبل دباغ (٢٥٠٠م)، ثمّ جبل وثر، وجبل شيبان.. ثمّ تنخفض السلسلة عند دنوِّها من مكّة، ثمّ تعود لترتفع حيث يبلغ أقصى ارتفاعها في اليمن.

ثمّ تتجه الجبال من اليمن نحو الشرق إلى أرض عُمان، وأعلى قممها الجبل الأخضر (عشرة آلاف قدم)... وهناك جبال موزّعة في قلب الجزيرة هنا وهناك، مثل جبل شمّر (٢٥٠٠ قدم)، وهو موطن قبيلة طيء، وجبل طويق، جنوبي شرقي الرياض. وكلاهما في إقليمِ نجْد.

ومنها أخيرًا «الأودية»، وهي أنهار صغيرة تسمّى جعافر، أو أودية، تطغى عليها السيول عند سقوط المطر، وسرعان ما تجفّ عند انحباسه. وأشهر الودايا: وادي الرمَّة عند حرّة فدك، وطولها ١٣٠٠ كلم؛ ووادي الجريب أو الجرير من أوسع فروع وادي الرمّة يتجه نحو الشرق؛ ووادي الحمض أو وادي أضم من جنوب حرّة فدك نحو ميزب، يتّصل بوادي العقيق؛ ووادي القرى يصب في البحر الأحمر؛ ثمّ وادي حنيفة يبتدئ من غرب جبل طويق ويتّجه نحو الشرق عند الخليج العربي..

***

وبالعموم «لا تعدو الجزيرة العربيّة كونها صحراء رمليّة صخريّة، تتخلّلها هنا وهناك بقاع من الأرض قد نما فيها القليل من النبات.. إنّها بلاد وعرة ماحلة، لا أنهار فيها ولا مراعي، ولا أشجار. لا تسرّ النظر، ولا توفّر إلاّ العيش الرهيب الجديب.. فالأرض تبدو، وكأنّها مشتعلة بنارَين: أشعة الشمس المحرقة، ونار الرمال والصخور التي تعكس حرارة هذه الأشعّة»[١٦]. وعن شدة هذه الحرارة قال أحد الإيرانيّين: «كانت الحرارة شديدة بحيث

---

(١٦) L. CAETANI, Studi di Storia Orientale, I, p. 53....

تحرق مخّ العظم. ويستحيل فيها السيف الصلب في غمده إلى مادّة ليّنة كالشمع، كما تستحيل الجواهرُ التي تُرصِّع قبضةَ الخنجر إلى جَمْر»[١٧]. وبالنتجية «يتمشّى شبَحُ القحط والجوع في طول البلاد وعرضها شاهراً سيفًا من نار»[١٨].

---

(١٧) - S.M. ZWEMER, Arabia, The Gradle of Islam, London 1900 p. 80.

H.St.-J.B.

(١٨) PHILBY, The Empty Quarter; being a descirption of the Great South Desert of Arabia, known Ar-Rub'al Khali, London, 1933.

أنظر، بليابيف، ص ٧٤-٨٣.

رابعًا – أقسام العرب

لم تكن المشكلة في رسم الحدّ الشمالي للجـزيرة العربيّة فحسب، بل المشكلة أيضًا في تقـسيم الجغـرافيّين والمؤرّخين لها. وهذا أيضًـا ممّا يجعل مفـهوم العروبة مضطربًا ومـختلَفاً فـيه. فاليونان والرومـان قسموا شـبه الجزيرة العربيّة إلى ثلاث أقسام:

١ – العربيّة السعيدة،

٢ – العربيّة الصحراويّة،

٣ – العربيّة الصخريّة،

وهو تقسيم سياسي وطبيعي على السواء. وقد قال بالقسمين الأوّلين ستـرابون (ت ٢٥ب.م)[١٩]، وأضـاف إلـيهمـا بطليـموس (ت١٧٠ب.م)[٢٠] القسم الثالث. «في الجيل الثـالث قبل الميلاد، إيراتوستين (ت ١٩٦)، بحسب ما يقول سترابون يقسم العربيّة إلى قسمَين كبيرَين: العربيّة الشماليّة حيث يسكن الأنبـاط، والعربـيّة الجنوبيّـة حـيث يعيش السـبـأيّون والمعينيّـون والقتبانيّون والحضرموتيّون. بين الأنـباط والسبأيّين، في الحجاز وعسير، يذكر المؤلف وجود بدوٍ يصفهم بـ "عـرب الخيام، ورعاة الجمال". هذا كلّ ما يعـرفه سـترابون. ولا يضيف عليـه أي شـيء دقيق»[٢١].. أمّا بطليـموس فيسمّي مكان سكن هؤلاء البدو، العربيّة الصحراويّة، أو الوسطى.

---

(١٩) أنظر سترابون، المجلد ٣، ص ٣٠٩.

(٢٠) FORSTER, VOL. II, P. 109....

(٢١) A. VAN DEN BRANDEN, Histoire de Thamoud, p. 11....

١ . ليس **للعربيّة السعيدة** حدود شماليّة ثابتة، لأنّها كانت تتبدّل وتتغيّر بحسب الأوضاع السياسيّة. ولكن أهمّ ما كان يتضمّن هذا القسم: «اليمن». وقد تكون تسمية العربيّة بـ «السعيدة» بالنسبة إلى اليمن، وهي من «اليُمن» بمعنى الخير والخصب ووفرة السعادة فيها. وربّما تعني «اليمن»: اليمين؛ وهي تسمية بالنسبة إلى موقعها عن يمين «مكّة»؛ كما «الشام» تعني الشمال، أي شمال «مكّة». وهي، بالتالي، تسمية إسلاميّة، أو تسمية ما قبيل الإسلام.

ويبدو أنّ العرب، على معرفتهم بالتقسيم الكلاسيكي هذا، عرفوا بالجزيرة العربيّة «العربيّة السعيدة» فقط. وكذلك المؤرّخون المسلمون الذين قالوا: «إنّ «جزيرة العرب وحدَها هي العربيّة السعيدة عند اليونان والرومان»[٢٢]. وفي بعض الأحيان اعتبر هذا القسم مستقلاً عن سائر الأقسام ومميّزاً عنه بحضارته ودوله وتاريخه القديم وطبيعته. وأحياناً أخرى اعتبر أنّه «يشمل كلّ المناطق التي يُقال لها جزيرة العرب في الكتب العربيّة، كما يفهم من بعض المؤلفات»[٢٣]، وذلك لهيمنته عليها، أو لاجتياح شعوبه سائر الأقسام وإخضاعها له. وأحياناً قيل «إنّ العربيّة السعيدة لم تكن عربيّة، لا بلغتها ولا بحضارتها»[٢٤]

٢ . وأمّا **العربيّة الصحراويّة** فهي المناطق الصحراويّة التي تشمل الربع الخالي والأحقاف والنفود والدهناء ونجْد والحجاز وتهامة، أي وسط الجزيرة المسيطر عليه الجفاف والقحط. وهي أوسع بقعة جغرافيّة. ومن الطبيعي ألاّ يكون هذا القسم هامًا أو مأهولاً. ومن الطبيعي أيضًا أنْ تكون

---

(٢٢) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١/١٦٧؛ ١/١٦٣.
(٢٣) المرجع السابق نفسه، ١/١٦٤
(٢٤) أنيس صايغ، تطوّر المفهوم القومي عند العرب، دار الطليعة، بيروت ١٩٦١ عن RIZK, Entre l'Islam et l'Arabisme, p.26.

القبائل التي أمّتْ هذه المنطقة وسكنتْ فيها هي من هجرات متتالية من العربيّة السعيدة قديمًا، ثمّ من دولتَي الفرس والروم، ثمّ من الأحباش وبلاد الشام وأرض الرافدين، وغيرها، على ما ذكرنا آنفًا.

سكّان هذا القسم هم «البدو» حقًا. هم «عرب الخيام ورعاة الجمال». هم الذين طالت عندهم حياة البداوة ودامت فيهم النزعة البدائيّة. هؤلاء هم منبوذو العربيّة السعيدة وسائر الدول والممالك. هم المسمّون «خلعاء»، طُردوا من بلادهم لألف سبب وسبب. وقد عناهم القرآن في كلامه على «الأعراب»، كما رأينا أعلاه.

٣. وأمّا **العربيّة الصخريّة** أو الحجريّة فهي «القسم الواقع بين فلسطين والبحر الأحمر»[٢٥]. هي التي أطلق عليها فيما بعد إسم «مملكة الأنباط». عاصمتها «بِتْرَا» أو «بطرا» أو «البتراء» وتعني «الحجر» و«الصخر». تقع شمالي الجزيرة العربيّة، في منطقة جبليّة قاحلة. لم تكن في البدء مأهولة، ولم تكن ذا أهمّيّة تذكر. لهذا «جهل جغرافيّو العرب هذا القسم الصخري فلم يروا بلاد الحجر (بطرا) من بلاد العرب»[٢٦]. ولم يحسبوا له حساباً في تواريخهم.

وكان أوّل من سكنَ هذا القسم، على رأي المؤرّخين العرب، قبائل من أصل يمني، هاجرت إليه لسبب من أسباب القحط أو الاضطهاد أو التناحر العشائري.. إلاّ أنّ من المؤرّخين مَن يعتبر الأنباط من غير طينة هؤلاء، إذ هم يعتمدون على الزراعة كمورد رزق. وهذا ما لا نجده في أيٍّ مكانٍ من الجزيرة. ثمّ إنّهم يعبدون آلهة غريبة عن آلهة العرب الصرحاء، ولهم معابد وآثار وحفريات ليست هي من التقاليد العربيّة في شيء.

---

(٢٥) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٦٥.

(٢٦) المرجع السابق نفسه، ص ٦٥.

أمّا مـؤرِّخو الإسـلام فاعتـمدوا تقـسيمـاً آخر للعـربيّة، يقـصّر عن شمـوليّة التـقسيم اليـوناني، ويختلف عنه شكلاً ومـضمونـاً. لقد قسـموا الجزيرة إلى خسـمة أقسام، ولكن من دون العـربيّة الصخريّة أو الشـماليّة، التي لا تحسب، في رأيهم، من العروبة. هذه الأقسام هي:

١ . **نَجْد** : وهو إسم «للأرض العريضـة التي أعلاها تهامـة واليمن، وأسفلهـا العراق والشام.. حدّ نجد أسـافل الحجاز.. يقال إنّ نجـداً كلّها من عمل اليمامة.. واليـمامة معدودة من نجد»[٢٧]. فحدود نجد، إذاً: من الشمال بلاد الشام، من الجـنوب اليمن، من الغرب الحـجاز، ومن الشـرق العروض وما يتضمّنه من عُمَان والبحرَين.

٢ . **ألحجاز** : قال الأصمـعي في كتاب جزيرة العرب: «ألحـجاز إثنتا عـشرة داراً: ألمدينة، وخـيبـر، وفدك، وذو المروءة، ودار بليّ، ودار أشـجع، ودار مزينة، ودار جـهينة، ونفر من هوازن، وجلّ سـليم، وجلّ هلال، وظهر حرّة ليلى.. وسمّي حجازاً لأنّه حجز بين تهامة ونجد»[٢٨]. ويمتدّ الحجاز من العقـبة شمالاً حـتّى تهامة جنوبـاً، ويشمل على الجزء المتـوسّط من المنطقة الواقعة عـلى ساحل البحر الأحـمر، ويتضمّن على المدينتَين المقـدّستين: مكّة ويثرب؛ كما يتضمّن الطائف أيضاً.

٣ . **تهامة** : «تهامة تسـاير البحر،»[٢٩]. «سمِّيت تهامـة لشدّة حرّها وركود ريحها.. ولتغيّر هوائها». وقـال الأصمعي: «التهمة الأرض المنصوبة إلى البحر». إنّها تقع بين اليمن والحجـاز والبحر الأحمر. ويقع اختلاف بين الجغرافيّين العرب عمّا إذا كانت «مكّة» من تهامة أم من الحجاز.

---

(٢٧) ياقوت الحموي الرومي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ، المجلد ٥، ص ٢٦١-٢٦٦، أنظر أيضاً: ٥/ ٤٤١-٤٤٧.

(٢٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ٢١٨-٢٢٠ مادّة : حجاز.

(٢٩) المرجع السابق نفسه، ٢/ ٦٣. مادة : تهامة ٢/ ٦٣ - ٦٤.

٤ . **اليمن** : هي، بحسب الأصمعي، «ما اشتمل عليه حدودها بين عمان إلى نجران. ثمّ يلتوي على بحر العرب على عدن إلى الشّحر حتى يجتاز عُمَان»؛ وهي، بحسب ياقوت الحموي، يحدّها «صنعاء وما قاربها إلى حضرموت والشّحر وعُمان إلى عدن»[٣٠]. تقع، إذاً، بين الحجاز ونجد شمالاً، والعروض شرقاً، والبحر الأحمر غرباً. وهي أخصب وأغنى بلاد العرب.

منها أصل كلِّ القبائل النازحة إلى مختلف أنحاء الجزيرة وخارجها. وفيها نشأت الدول والممالك القديمة. وهي العربية السعيدة عند اليونان. وإليها ينتسب «العرب العاربة» أو «العروبة الصريحة»، على ما يقول المؤرّخون المسلمون.

٥ . **العروض** : «سمّيت تلك الناحية العروض لأنّها معترضة في بلاد العرب ما بين تخوم فارس إلى أقصى أرض اليمن مستطيلة مع ساحل البحر». وقال ابن الكلبي: «بلاد اليمامة والبحرَين وما والاها (تسمّى) العروض»[٣١]. فالعروض، إذاً، تشمل اليمامة والبحرَين وعُمَان وشبه جزيرة قَطَر والإحساء حتى نهاية الخليج الفارسي على حدود بلاد فارس. هي المنطقة المحازية للبحر جنوبي شرقي الجزيرة.

***

يبدو أنّ المؤرّخين المسلمين «اكتفوا بجزيرة العرب؛ فأخرجوا بذلك البادية الواسعة منها؛ وأخرجوا القسم الأكبر مّا دعاه الكلاسيكيّون بالعربيّة الحجريّة كذلك. وجزيرة العرب وحدَها هي العربيّة السعيدة عند اليونان

---

(٣٠) المرجع السابق نفسه، ٥/ ٤٤٧ – ٤٤٩. مادة : يمن.

(٣١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥/ ١١٢. مادة : يمن.

والرومان»[٣٢]. ويبدو أنّ «هافلي» ذهب إلى أبعد من ذلك، فرأى أنّ كلّ ما قيل في هجرة القبائل اليمنيّة إلى الشمال هو أسطورة، وأنّ ما يُزعم من انتساب تلك القبائل إلى اليمن هو حديث خرافة لا يركن إليه[٣٣]. وهو بذلك يرفض كلّ نزوحٍ سكّاني من اليمن إلى الشمال.

فيكون معنى ذلك أنّ «العروبة» تقتصر، بحقيقتها وتاريخيِّتها، على اليمن وسكّانها. ومن الطبيعي ان يكون اليمن، أو «العربيّة السعيدة»، موطن العروبة، لأنّ ما سواه من المواطن في الجزيرة غير صالح للسكن. والذين تجرّأوا على الصحراء وسكنوا فيها، هم جماعات، أو بالأحرى، أفراد «خلعاء» طردتهم حكوماتهم لجرائم اقترفوها، فآثروا الهربَ من الموت إلى البؤس، فعاشوا عصابات على طرق التجارة، وتركوا عروبتهم الصريحة، واختلطوا بعصابات أخرى من بلاد فارس والروم والحبشة، وضيّعوا أنسابهم، فأصبحوا في البادية «أعراباً»، «بدوًا»، «مستعربين».

والذين تحضّروا في اليمن وفي «العربيّة السعيدة»، وهم أصل العرب وأخلصهم، ضيّعوا أيضًا نسبتهم العربيّة. ولم تقم مملكةٌ من ممالكهم المتطوّرة، وهي تحمل معها صفة «العروبة». ولم يعرف في التاريخ بأنّ لغة من لغاتها نسبتْ إلى العروبة..

كلّ ذلك يدلّ على أن «اليمن» التي هي أصل العروبة، تركتْ عروبتَها بعد تحضّرها. وهذا ما جعلنا ويجعلنا نقول ونردّد بأنّ العروبةَ حالةُ عيشٍ بدائيّة. متى تحضّر الإنسانُ تركَها. هكذا فعلتِ اليمن. واليومَ كما بالأمس، يأبى سكّان اليمن أن يتّصفوا بالعروبة، أو أن يعتبروا أنفسهم بمنزلة واحدة مع بدو الصحراء وأعرابها. وهم إن شدّدوا، كما ورد في دستور دولتهم،

---

(٣٢) د. جواد علي، المفصل في تاديخ العرب قبل الاسلام، ١/ ١٦٧.

(٣٣) HAVELY, Muh Stud. Bd. I, 92, in Journ. Asiat. 1882, II,49

على العـروبة، فلأنّ العـروبة، عندهم وعند المسلمين كافّـة، أصبـحت تعني الإسلام.

وتجب الإشارة أيضاً إلى أنّ بلاد الشام والهلال الخصيب برمّته وما والاه من مناطق، صحراويّةً كـانت أم سهوباً و سهـولاً، لم تدخل في مجال التقسـيم العربي الإسلامي للجزيرة العـربيّة، ولا أيضًا في مجال التـقسيم اليـوناني الرومـاني الكلاسّـيكي. لذلك، لا تحـسب مناطق الشـام والعـراق وفلسطين ولبنان، لا جغرافيًا، ولا تاريخيًا، ضـمن الأقسام العربيّة الخمسة، أو الأقسام اليونانية الرومانية الثلاثة.

ثمّ إنّ ياقوت الحموي نفسه يعترف بصعوبة تحديد الجزيرة العربيّة. فهـو يؤكّد، في مطلع كـلامه على حـدود الجزيرة، فيـقول: «قـد اختُلِف في تحديدِها». ثمّ ينقل عـن أبي المنذر هشام بن محـمّد بن السائب مـستنِدًا إلى ابن عبـاس، "حَبـر الأمّة"، قال: «اقـتسمـتِ العربُ جزيرتَهـا على خمـسة أقسام»[٣٤]. ويعدّدهـا كما رأينا أعـلاه. وفي النهاية يـحدّدها بقولـه: «فمِن جزيرةِ العـرب: ألحجـاز وما جمـعه، وتهـامة، واليمن، وسـبا، والأحـقاف، واليمـامة، والشحـر، وهجر، وعمـان، والطائف، ونجران، والحـجر، وديار ثمود، والبئر المعطّلة، والقصر المشـيد، وإرم ذات العماد، وأصحاب الأخدود، وديار كندة، وجبال طيء، وما بين ذالك»[٣٥].

هذا ممّا يعني أنّ حـدودَ الجـزيرة العربيّـة لا يخـرج عن ذلك «الخطّ الوهمي» الذي تكلّمنا عليه.

(٣٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/١٣٧. مادّة : جزيرة العرب.

(٣٥) المرجع السابق نفسه، ٢/١٣٨.

خاتمة الفصل الثالث

نحن، مع تقسيم الجزيرة العربيّة، أمام تناقضات ثلاثة :

الأوّل : إنتساب العروبة الصريحة الأصيلة إلى اليمن والعربيّة السعيدة؛ ومنها خرجت بعض العشائر لتسكن في «العربة»، أي الصحراء وعاش أفرادها بدوًا ورعاة تحت الخيام، ووراء السرح والجمال. هؤلاء اختلطوا مع مَن خرجوا من أشور ومصر وفارس والروم والحبشة وبلاد الشام... وبسبب اختلاطهم، سمّوا في التاريخ العربي الإسلامي «عرباً مستعربة»، أي منتمية إلى العروبة انتماء.

الثاني : إنّ اليمن، بعد أنْ خلعتْ عنها بَداوَتَها وتحضّرت، فَقَدتْ بداوتها، وبالتالي، عروبتَها. لهذا لم تُعرفْ دولةٌ واحدة نشأت في اليمن بصفتها العربيّة. وهذا ما أكّدناه مراراً. وبعد أنْ تخلّصتِ اليمن من عربها، أي بعد أن تحضّرت، علقت العروبة بالنازحين عنها والمطرودين منها. وأصبح عربيًا كلٌّ من سكن البادية والصحراء.

فالتناقض إذاً، يقع في أنّ اليمن أنشأتِ العروبةَ و«أسعدتها». ولكنّها تحرّرتْ منها، بسبب تحضّرها و«سعادتها». وبتحرّرها هذا تحرّرتْ أيضاً من الذين ما استطاعوا العيشَ في حضارتها وسعادتها؛ فنزحوا منها إلى البادية؛ وأصبحت العروبة، معهم، حالة عيش بدائيّة.

هذه الحالة استقرّت أكثر ما استقرّتْ في الحجاز، وبخاصّة في مكّة، لتجمّع هؤلاء النازحين حول الكعبة، حيث تمرّ القوافل التجاريّة. ولكثرتهم، ووفرة لقمة العيش في مكّة، تجمّعوا، أي «تعرّبوا»، في قبيلة «قريش»، أي قبيلة «التجمّع» و «التعرّب».

الثالث : يقوم على مفهوم العروبة بمعناها الأرامي، أي «الغربي»، على ما ذكرنا في فصلٍ سابق، وعلى مفهومها في هذا الفصل بمعناها «اليمنّي». هذا التناقض سببُه مفهوم إسلامي متأخّر، هو موقف المؤرّخين المسلمين، ابتداءًا من العصر العباسي.. موقف هؤلاء المؤرِّخين انعكاسٌ لمواقفهم العدائيّة بعضهم من بعض..

وتجب الإشارة أيضًا إلى أنّ «الخلعاء» لم يكونوا كلُّهم من اليمن. بل كان هناك أيضًا «مطرودون» و«خلعاء» و«مضطهَدون» و«مهجّرون» و«أسرى» من بلاد عديدة ومختلفة. كما كان سكّانٌ متنوّعي الأديان والأحزاب والشيع. وقد أشار القرآنُ نفسُه إليها. ثمّ عَرفت مكّة وسائر القرى العربيّة اليهوديَّة والنصرانيّة والمجوسيّة والوثنيّة والصابئة[٣٦].. وعَرفتِ اليهوديّةَ بتنوّع أحزابها، والنصرانيّة بتعدّد فرقها، من ملكانيّة ويعقوبيّة ونسطوريّة وأريوسيّة وإبيونيّة وقِيرَنْثِيّة وألْكَسَائيّة وغنوصيّة.. وفي القرآن ذكرٌ لها وأثر. وهناك أيضاً ذكرٌ فيه لـ «بِيَع»، و«صوامع» و«صلوات» و«مساجد»[٣٧].. وكان عليها «أحبار»، و«رهبان»، و«قسّيسون»[٣٨].. كلّ هذه عرفتْها مكة، وعرفَ أصحابُها كيف يدخلون إلى قلب مكّة، قبل أن يدخلها الإسلام.

هذه العناصر المتنوّعة والمختلفة، في مصادرها وعقائدها وتقاليدها وانتماءاتها، كوّنتْ سكّانَ مكّة ويثرب وقرى الحجاز الواقعة على طرق التجارة. هذه العناصر سمّاهم المسلمون، فيما بعد «العرب المستعربة»، أي «أخلاط» من أصولٍ وأعراق متنوّعة؛ وذلك تمييزاً لهم عن «العرب العاربة»، الذين لم يعد لهم، بعد الإسلام، ذكر. وقد أصبحوا، في التاريخ الإسلامي، «العرب البائدة» أنفسهم.

---

(٣٦) أنظر: سورة الحج ٢٢/١٧؛ وأيضاً : ٢/٦٢؛ ٥/٦٩.

(٣٧) أنظر: سورة الحجّ ٢٢/٤٠.

(٣٨) أنظر : ٥/٤٤ و٦٣ و٨٢؛ ٩/٣١ و٣٤؛ ٥٧/٢٧.

الفصل الرابع

فصائل العرب

أولاً : تنوّع العروبة

ثانياً : العرب البائدة

ثالثًا : العرب العاربة

رابعًا : العرب المستعربة

خامسًا : العداوة بين العرب

خاتمة الفصل الرابع

أوّلاً - تنوّع العروبة

هنا أيضًا د ليل آخر على ضعف النسـبة العربيّة لمعظم سكّان جزيرة العـرب. ففي تميـيـز المؤرّخين المسلمين للعـرب، بين «عرب بائدة» و«عـرب عاربة» و«عرب مسـتعربة»، كما في تمييز اليـونانيّين والرومانيّين للجزيرة العربيّـة، بين «عربية سـعيدة» و«عـربيّة صحـراوية»، و«عربيّة صـخرية»، إشارة واضـحة إلى تنوّع الأعراق والمسـتويات.. مثـل هذا التنوّع، ولو كان مصطنعـاً، ومن زمنٍ متأخِّـرٍ، يفيدنـا في الاختلاف الحـاصل بين «العروبة الصـريحـة» و «العـروبة المنتـحلة»، أي بين «العـرب الأصـيلين» و«العـرب المستعربين»، أي المنتسبين إلى العروبة انتسابا لم يكن لهم في البدء.

ومن الأكيـد أنّ تقسيم العرب إلى مـستويات ثلاثة، أو طبـقات ثلاث، هو «تقسيـم لا نجد له ذكرًا، لا في التوراة، أو الموارد اليـهوديّة الأخرى، ولا في الموارد اليونـانيّة، أو اللاّتينيّة، أو السـريانيّة. ويظهـر أنّه تقسـيم عربي (اسـلامي) خالص، نشـأ من الجـمع بين العرب الذيـن ذُكر أنّهم بَادُوا قـبل الإسـلام، فلم تبقَ منهم غـيرُ ذكـريات، وبين العـرب الباقين، وهم، إمّـا من عدنان، وإمّا من قحطان»[1].

ثمّ إنّ «كلَّ ما رُوي عن هذا التـقسيم، وما رواه الرواةُ من أخـبارِ تلك الطبقـات، لم يردْ إلينا من النصوص الجـاهليّة؛ وإنّما ورد إلينا مـتواتراً مِن الكتب المدوَّنة في الإسـلام. لذلك لا نستطيع أن نجرؤ فنقول: إنّ هذا التقسـيم وضعه الجاهليّون»[2].

---

(١) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١/ ٢٩٥.

(٢) المرجع السابق نفسه، ١/ ٢٩٥.

فالعـرب، في طبقـاتهم الثلاث، هم، في المصـادر الإسلاميّـة: «عرب بائدة»، و«عرب عـاربة»، و«عرب مستـعربة»؛ ومن حيث القـدم، عرب بائدة وعـرب باقيـة؛ ومن حـيث النسب، قـحطانيّـون وعدنانيّـون[٣]؛ ومن حيث السياسة، يمنيّون وقَيسيّون..

من هذه الأقسـام الأساسـيّة تفرّعت كلُّ الـقبائل والعـشائر المسـمّاة عربيّـة؛ وانتشـرتْ بحسب قـدراتها على الغـزو والنهب والسلب؛ وتوزّعت بحسب استطاعتها على الهرب من الفقر والجوع ونكبات الدهر؛ وتمكّنت من الاستقرار في مكانٍ ما بمقدار ما تتوفّر لها سبل الحياة من كلأ وماءٍ وسطوٍ وغزوٍ على قوافل التجارة وطرقاتها.

وفي عـرف المؤرّخين العـرب، إنّ «القحطانيّـين» أو «العرب العـاربة» نشـأوا في اليمن، وسكنوا فـيهـا، واستـقرّوا، ثمّ تحـضّروا. ولكنّهم، بـعد تحضّـرهم، ضيّعوا النسب العـربي. والذين بقوا على عروبتـهم هُجّروا إلى أنحاء الصـحراء. واختلطوا بشـعوبٍ أعجـميّة كـثيرة، فـضيّعـوا، هم أيضاً النسب العربي، وسمُّوا «مستعربة». ومنهمْ مَنْ لمْ يُردِ الاختلاطَ مع الأجانب فصمـدوا وعاندوا، فقابلتهم الصـحراء بظلمها وأهلكتهم، فـسمّوا «بائدة». هؤلاء هم، في الحقيقة، العرب الخلصـاء. ولهذا قيل: «إنّ العرب البائدة يطلق عليهم اسم العـاربة، أو العرباء، وهم الذين كانوا عرَباً صـرحاء خلَّصاً ذوي نسَبٍ عربيٍّ خالص»[٤].

هذا ممّا يعني أنّ العـرب البـاقيـة، أي «العـاربة» و«المسـتعـربة»، أو القحطـانيين» و«العدنانيين»، هم أقلُّ صـراحة من العرب «البـائدة»، أيّ أنّهم

---

(٣) أو أيضًا: حـميـريون ومضريون، أو سـبأيون ونزاريون، أو يعـربيون ومـعديون.. «وكثيـرًا ما يستعـاض عن اسم المضريين والعدنانيين في التاريخ باسـماء البطون، كقريش وبكر وتغلب وتميم»، رَ: الشيخ خزعل، تاريخ الجزيرة العربية، ص ٤٦.

(٤) حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الجزيرة العربية، ص ٢٥ من ط ٣.

اختلطوا مع شعوب وأمم كثيرة ومتنوّعة، ففقدوا، باختلاطهم هذا، صحّة النسب.. ولأجل هذا، يبدو الافتخار بالنسب، عند أهل البادية، من أجلّ صفات المدح والعزّ والشرف والنبالة. ولهذا أيضًا كان «علْم الأنساب» من أبرز علوم العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

ومع هذا لن نذهبَ في الشكّ بعيدًا لنقول، مع الشيخ خزعل، بأنّ العرب البائدة هم وحدَهم عرب صرحاء، بل بين العرب العاربة أيضاً عرب صرحاء. وكلّ مَن استمرَّ في البداوة والعيش البدائي هم أيضاً عرب، وإنْ لمْ يكونوا صرحاء. والمستعرِبون أيضًا، وإنْ لمْ يكونوا صرحاء، هم عرب كذلك لأجل اختيارهم العروبة نوعاً من أنواع الحياة.. بيد أنّنا لن نتوقّف على نوعيّة هذه العروبة المرادة بهذا الشكل، لأنّ مثلها يُعاش في كلّ مكانٍ من العالم. نتوقّف فقط على العروبة التاريخيّة في فصائلها الثلاث: البائدة والعاربة والمستعربة، قصد التعرّف على هويّة النبيّ محمّد الخالصة والأكيدة. أعربيٌّ صريح هو؟ أم عربيٌّ هجين؟!

فالنبيّ محمّد هو، بحسب النّسابين وأهل السِّيَر والأخبار، من العرب المستعربة، من العدنانيّين، من قبيلة «التجمّع»، أي «قريش». هو، إذاً، من «خلطاء العرب»، أي من الذين ضاعتْ أنسابُهم في الصحراء، وامتزجوا بأمم مختلفة ومتنوّعة، و«تجمّعوا» في قبيلة «التجمّع»، أي «قريش».. وفي كلّ حال، إنّ موضوع عروبة النبيّ سابق لأوانه، لأنّ تحديد العروبة لم يتّضح بعد. ألمهمّ الآن وضع العروبة في موضعها الصحيح، وذلك بتتبّع أصنافهم وطبقاتهم وفصائلهم؛ فنضيف بذلك دليلاً آخر على فساد نظريّة العروبيّين.

ثانيًا – ألعربُ البائدة

ألعرب البائدة هم قبائل هلكت، ولم يبقَ منها في التاريخ إلاّ أسماؤها. وعلم الآثار يشير إلى وجود بعضها وجوداً فعليًا، في حين أنّ بعضَها الآخَر لا نجد له ذكراً. والتي وُجدتْ فعلاً كان لها موطنٌ وأرضٌ ولغةٌ وحضارة. وسبب هلاكها هو ما كان يحدث، عادةً، في الصحراء، من غزوٍ وحروبٍ ودمار، أدّتْ، بعض الأحيان، إلى «إبادة» جماعيّة، أو «تهجير» شامل، مع ما كان يتبع ذلك من مجازر وخراب ودمار وفناء. هذه المظاهر هي من مسلسلات الحياة في البادية. فالعشائرُ تأكلُ بعضها بعضاً، وتنهش بعضها بعضاً حتى الإبادة. وذلك في عمليّة «تنازع البقاء».

والأمر طبيعي أن تزول من الوجود قبائل، مثل: عَاد، وثمود، وطَسْم، وجَديس، وأميم، وجَاسم، وعَبيل، وعَبد ضخم، وجُرهَم الأولى، والعَمالقة، وحَضورا.. من هذه القبائل ما ورد اسمه في القرآن والتاريخ وعلم الآثار الباقية، ومنها ما لم نجدْ ذكرَه في مكان، إلاّ في مخيّلة كتبة التاريخ العربي. ومَن شاءَ معرفةَ شيءٍ عنها يستطيع النظر في كتب عديدة[٥]. ولن نقف عندها لعدم جدواها في بحثنا.

---

(٥) أنظر مثلاً: تاريخ الطبري، ١/١٠٣ وما بعدها، التنبيه والإشراف للمسعودي، ص ١٥٧، تاج العروس، ٣/٣٣٣ وما بعدها، تاريخ ابن خلدون، ٢/١٠ وما يلي، المعارف لابن قتيبة، ص ١٣ وما يلي، ألفاخر، ص ٥٧ وما بعدها، الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١/٢٠٥، وما بعدها، صبح الأعشى، ١/٣١٤ وما بعدها، الأغاني، ١١/ ٣٠، وما بعدها، عجائب المخلوقات للقزويني، ٢/٤٠، وما بعدها، الإكليل للهمداني، ١/٧٠، وما بعدها، معجم البلدان لياقوت، في مواضعها، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/٢٠، وما بعدها، شمس العلوم، ١/١/٣٢٠ وما يلي، نهاية الأرب، ٣/ ٨٠، وما بعدها... ومعظم التواريخ العربية القديمة وكتب السير..

ألمهمُّ في ذلك كلّه هو أنّ «إبادة» شعوب كثيرة وبكاملها حدثت في التاريخ، وتحدث أيضًا، وذلك لأسباب عديدة، منها طبيعية، كالجوع والجفاف والبراكين والزلازل والعواصف الرمليّة العاتية وانحباس المطر؛ ومنها سياسيّة، كالاضطهاد والحروب والنفي والتهجير؛ ومنها إجتماعيّة، كالنهب والسلب وسوء الأخلاق وملاحقة المطلوبين والظالمين وعصابات السوء.. كلّ هذه وغيرها أدّت وتؤدّي إلى هلاك قبائل وفوز أخرى، تنازعاً لحياة أفضل لا تكون إلاّ بشريعة القوّة والقهر.

والسؤال هو: هل هذه القبائل أُبيدت برمّتها ولم يبق منها مَن يخبر؟ أم أنّها تحوّلت إلى قبائل أخرى، وانصهرتْ فيها؟ يبدو أنّ النوعَين حدَثا: فهناك قبائل وممالك ودول تحوّلتْ ولم يبقَ من ذكرها إلاّ الإسم، مثل قتبان ومعين وريدان وسبأ وغيرهم... هذه لم يقل أحد عنها أنّها هلكت وبيدت. بل يقول التاريخ عنها بأنّ حكمها انقضى وحلّ محلّه حكم آخر.. ولكن هناك قبائل وعشائر قيل عنها بأنّها هلكت وبادت، كمثل التي ذكرنا عن عاد وثمود وجرهم والعمالقة وغيرهم..

هذه القبائل البائدة، بكونها بادتْ، لا تفيدنا في بحثنا سوى الإشارة إلى أنّهم من «العرب الصرحاء الخلّص». فهل يعني ذلك أنّ بإبادتهم انتهتِ «العروبة الخالصة»؟ أمّ أنّ العروبة هذه استمرّتْ بشكلٍ آخر وفي جماعاتٍ أخرى؟ يبدو أنّ هناك «عربًا باقية»، وهؤلاء على نوعين: «عرب عاربة» و«عرب مستعربة». ولكنّ «العاربة» صفة لازمت «البائدة». فهل هذا يعني أنّ «العاربة» من العرب هم الذين يعيشون كما كانت تعيش «البائدة»؟ أم أنّهم من سلالة هؤلاء البائدة؟

يبدو أنّ الجنسيّة الصريحة اللاّحقة بالبائدة انتهتْ، ولم يبق من العروبة شيء إلاّ عند هؤلاء الذين يعيشون على طريقتهم البدائية الرديئة. فالعربيّة الحديثة، إذاً، هي في كيفيّة الحياة والمعاش، لا في العرق وصحّة

النسب. وهنا أيضًا لسنا أمام أناس لا يغيّرون حياتهم، بل الناس، في طبيعتهم، يتطلّعون إلى الأفضل، والذين يَعونَ الأفضلَ ويتطلّعون إليه يتحضّرون. ومن تحضّر ابتعد عن العروبة وحياة البداوة. وهذا هو شأن الإسلام الذي «هجر» العروبة، و «خرج» منها وتطلّع نحو «الفتح». فالإسلام حضارة لأنّه رفض العروبة ونفضَ غبارَها. وهو في قِمّة الوعي لذاته وللطبيعة الإنسانيّة في الصميم، لذلك ابتدأ تاريخُ الإسلام، وبحقٍّ، بـ «الهجرة»، كما ابتدأ تاريخ اليهودية، وبحقٍّ، بـ «الخروج»، وتاريخ المسيحيّة، وبحقٍّ أيضاً، بـ «الفصح» أي «العبور».

فبهلاك القبائل العربية البائدة تأكّد لنا وجهها العربيّ الصريح. وهي، في حال وجودها وبقائها، حقًّا عربيّة. وفي حال عدم وجودها، عربيّة بالتأكيد. وبمجيء الإسلام كان لنا تأكيد آخر على وجوب إبادتها، وهَجرِها، وعدم العودة إليها؛ لذلك قال النبيّ: «مَنْ بَدَا جَفَا»[٦]، أي مَن سكن البادية، أو عاد إليها، أو استلذّ العيش فيها، هو صاحب جفاوة وغلظة وتخلّف، على ما طاب للقرآن أن يصف «الأعراب» باستمرار.

هذه الطبقة من العرب بادت لسببٍ من الأسباب التي ذكرنا. قد تكون إبادتها لأجل طارئ طرأ عليها من الخارج. إلاّ أنّ إبادتها المحكمة، الكاملة والشاملة، تمّتْ، في النهاية، بمجيء الإسلام، وعلى يد النبيّ محمّد نفسه. هذا كان سبباً رئيسيًا، واعياً، ومن الداخل. لهذا كان الإسلامُ الخطرَ الأعظم على العروبة، وخطره عليها دائمٌ وإلى الأبد. فإمّا الإسلام وإمّا العروبة. وكلاهما لا يعمل باتّفاقٍ من أجل أيّة قضيّة مشتركة، مهما كانت مقدّسة.

---

(٦) سنن ابن حنبل٢/ ٣٧١ و ٤٤٠، ٤ / ٢٩٧، سنن ابو داود، باب الاضحى ٢٤، سنن الترمذي، باب الفتن ٦٩، سنن النسائي، باب الصيد ٢٤.

ثالثاً - ألعربُ العاربة

ألعرب العاربة، هم القحطانيّون، أو السبأيّون، أو اليمنيّون، أو اليعربيّون. هم العرب الصرحاء الخلّص منذ أن خلقهم اللّه. نسبتهم في التاريخ إلى قحطان وهو يقطان التوراة[٧]، ابن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح[٨]. ومن أولاد يَقطان: حضرموت، وشبا، وحويلة، في «جبل المشرق»[٩]. ومن أولاده في تاريخ العرب: «يعرب» الذي تملّكَ بعدَ أبيه، وكان ملكُه باليمن، وقد غلب بقايا عادٍ، ووزّع إخوته في الأقطار. ومن إخوته: أزال الذي بنى صنعاء، وجرهم الذي ولي الحجاز، وجديس، ويمن الذي به سمّيت بلاد اليمن[١٠].

إلى «يعرب» يَنسب أهلُ الأخبار نشوءَ العرب، فيَزعمون أنّه أوّل مَن «أعرب» في لسانه[١١]، أي أفصح. سكن اليمَن، وأسكن فيها بنيه. ثمّ انتقل الملك منه إلى ابنه «يشجب»، ويقال له أيضاً «يمن»، ومن «يمن» إلى ابنه «عبد شمس»، ويقال له «عامر»، ولقّب بـ «سبأ»، وهو الذي بنى قصر سبأ ومدينة «مأرب»، وفتح مصر وبنى بها مدينة «عين شمس»، وأنّه أوّل من

---

(٧) سفر التكوين ١٠/ ٢٥ و ٢٦ و ٢٩، ١ أخبار ١/١٩و ٢٠ و ٢٣ (ست مرات).

(٨) تكوين ١٠/ ٢١-٢٥.

(٩) تكوين ١٠/ ٣٠.

(١٠) أنظر: سيرة ابن هشام ١/ ٤، مروج الذهب ١/ ٢٧٦، نهاية الأرب ٢/ ٢٧٥، الاشتقاق ٢١٧، الإكليل للهمداني ١/٨٧، تاريخ الطبري ١/ ٢٠٥، تاريخ ابن خلدون ١/٩، طبقات ابن سعد ١/١٨..

(١١) المراجع السابقة، إضافة الى القاموس ١/١٠٣، مروج الذهب ١/ ٢٧٧.

سنّ السبي، فـعُرف بـ «سـبأ». ووطّد بذلك حكم القحطانـيّين في اليمن[١٢]، على ما يقول المؤرِّخون المسلمون المتأخِّرون.

ثمّ انتـقل الحكم من «سـبأ» إلـى «حمـيـر»، وهو أوّل من وضع على رأسه تاجـاً من الذهب، وكان يلبس حللاً حـمراً[١٣].. ثمّ توالتْ بعده البنون والأحفـاد، وانشقّت أنســالهم بعضُهم عـن بعض، فكان منهم جملة قـبائل، وتفرّعت جـملة فخـوذ وبطون.. من أشهـرهم قبـائل «الأوس» و«الخَزرَج»، و«آل جَفنة» المســمّون «غـسّان»، و«ثعلبـة» ، و«الأزد، و«طيء»، و«همدان»، و«جزيلة»، و«جذامة»، و«تنّوخ» و«لخم» و«كعب» و«تيم اللّه»، و«قضاعة»..

من هذه القـبائل مَن بقي في اليـمن؛ ومنها مَن تـشرّد في الصـحراء، فأصبحوا بدواً؛ ومنها مَن بِيد وهلك؛ ومـنها مَن غزا وانتقل إلى حياةٍ أفضل، فسكن في بعض نواحـي حضرموت وعـسير واليـمامة؛ ومَنهم مَن تهـجّر فقطن الصـحراء؛ ومنهم مَن حكم وســاد وأنشأ دولةً وحـضارة، في أمكنة عديدة، كـاليمن وحـضرمـوت، وتسمّى باسم دولة من الدول التي يـذكرها التاريخ، ولها حتى اليوم آثارها وخرائبها ولغتها...

والحقـيقة إنّ كلَّ الذين خرجـوا إلى الصحراء، أي «شـرّقوا»، لم يكن لهم ذلك عن طيب خاطر، فهم إمّا خُلعوا، أو طُردوا، أو اضطُهدوا، أو هُجّروا، لسبب معارضتهم السياسيّة لحكم دولتهم؛ وإمّا هربوا لسوءٍ فعلوه، أو لثأرٍ يُطلَب منهم، أو لجريمةٍ اقترفوها في مجتمعهم..

والحقّ يقال، ليس من قحـطانّي واحد استمرأ جـدبَ الصحراء وآثره على خـصب بلاد اليـمن، لينتـقل عن طيب خاطـر إلى حيث الموت والجـوع

(١٢)الأصفهاني٨٢، التيجان٤٩، المحبّر٣٦٤، الاشتقاق ٢١٧، تاريخ ابن خلدون ٢/٤٧

(١٣) مروج الذهب ١/٢٧٨، تاج العروس ٣/١٥٨، لسان الـعرب ٣/١٤٧، ابن حزم، جمهرة العرب، ص ٤٠٦...

والفقـر والحرمـان. لهذا نقول مع د. جـواد علي: «ألقحطانيّـون.. لم يكونوا يعرفون عن باطن جزيرة العـرب شيئاً»[١٤]، ومع هافلي: إنّ «هجرة القبائل اليمانيّة إلى الشمال هو أسطورة»[١٥].

ومع هذا لا يجب أن نحـمّل هذه «الأسطورة» خـرافةً مطـلقة. فـهناك قبائل نزحت من اليمن إلى الشمال والشرق، أي إلى الصحراء القاحلة، وذلك لسـبب من أسـباب الهـجـرة القـاهرة. وحمَلَ هـؤلاء النازحون عـروبتـهم الصريحة مـعهم، ولكنّهم اختلطوا وامتـزجوا مع من سبقـهم أو لحقهم من بلاد أخرى. ولم يستطيـعوا الحفاظَ على أصالتهم العـربيّة طويلاً بسبب أنّ المصيبةَ تَجمع. ولهذا كـان «علْم الانساب» الذي حاول، دون جدوى، الحفاظَ على نقاء الدم العربي. إلاّ أنّ بؤس العيش في الصحراء كان أقوى من صحّة الانتساب و«علْم الأنساب».

ثمّ إنّ هذه «العروبة المهـجَّرة» في الصحراء ضـيّعت نسبهـا الأصيل كما ضيّعـت «العروبةُ المستقرّةُ» في اليمن شرَفَ قحطانيّـتها. هذه العروبة، بعد أن تحضّـرت ، وأسّست مدناً وممالك، أصبحتْ تُعرف في التـاريخ، كما رأينا، بأسماء هذه المدن وهذه الممالك. وهكذا، مـضـى زمانٌ والعروبةُ ضائعةٌ لا هويّة لها. فلا هي توجد بعدُ في ممالك اليـمن ودولها، ولا القبائل المهجّرة استطاعت، لاختلاط نسبـها، الافتخارَ كثيراً بتلك العروبة التي حملـتْها معها من اليمن.

وليس مستغربًا البتة في أن يضيعَ في الصحراء كلُّ شيء. ولهذا نشأ «علم القيافة» كبديلٍ عن هذا الضياع. فـهل نحمل اليومَ قنديلَ القيافة لنبحث عن العروبة الضائعة؟! هل نعود إلى ذاكرةِ الـرجال لنعتمدَ على علم الأنساب

---

(١٤) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١ / ٤٢٤.
(١٥)هافلي، الدراسات المحمّديّة، في «المجلّة الاسيوية».

ونبحث عن الدم العربي القحطاني النقي؟! إنّ اليمنّيين أنفسَهم تخلّصوا، بعد تحضّرهم، من عروبتهم، فهل يعني ذلك أنّهم ألصقوا عروبتهم بمن نزح منهم صوب الشرق والشمال؟! إنّ المعركة بين العاربين والمستعربين كانت ولمّا تزل، فهل هي معركة على الاستئثار بالعروبة الصريحة أم معركة بين حضارة اليمن وبداوة أعراب البادية؟!.

لن نفوز بوضوح الصورة إلاّ بمجيء الإسلام، مع النبيّ محمّد، حيث «الهجرة» من العروبة إلى الحضارة، و«فتح» بلاد الشام والهلال الخصيب، اللذين يقرّران هويّة العروبة ومصيرها.

رابعًا - العرب المستعربة

ألعرب المستعربة، هم العدنانيّون، أو النزاريّون، أو المَعَديّون، أو المَضَريّون، أو القيسيّون. هم من صلب إسماعيل بن إبراهيم وامرأته هاجر[١٦]. «قيل لهم العرب المستعربة لأنّهم انضمّوا إلى العرب العاربة، وأخذوا العربيّة منهم. ومنهم تعلّم اسماعيلُ العربيّة... وموطنُهم الأوّل مكّة... فيها تعلّم إسماعيل العربيّة، وفيها ولد أولاده. فهي إذن المهد الأول للإسماعيليّين»[١٧].

وعدنان هو الجدّ الأعلى لهؤلاء العرب المستعربة. ولكنّنا لا نجد له في التوراة إسمًا أو ذكرًا؛ مع أنّ مؤرّخي الإسلام نسبوه كما نسبوا قحطان، إلى سام بن نوح، وقالوا إنّ بين عدنان وسام عددًا كبيرًا من الآباء يستحيل عدّهم[١٨]. وقالوا أيضًا، بالرغم من نسبته التوراتيّة، بأنّه أقلُّ عروبةً وأصالةً ونَسَبًا من العرب العاربة.

فإذا كان «من السهل علينا الوقوف على المنبع الذي أمدّ الأخبارَ بأصلِ كلمة قحطان.. فإنّ من العسير علينا أن نتحدّث عن المنبع الذي أمدّ أهلَ الأخبار باسم عدنان. فليس في التوراة إسم يشابهه بين أسماء أبناء إسماعيل، أو غير أبناء إسماعيل، وليس فيها اسمُ ملكٍ عربيٍّ، أو سيّدُ قبيلةٍ عربيّةٍ إسمُه يشابه إسمَ عدنان. ثمّ إنّنا لا ندري كيف عَثر عليه أهلُ الأخبار، وكيف صيّروه على الوزن الذي صيغَ به اسم قحطان»[١٩].

---

(١٦) سفر التكوين، الفصل السادس عشر..

(١٧) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب..، ١/ ٣٧٥.

(١٨) تاريخ الطبري ٢/١٩١، ابن هشام ١/ ٣، مروج الذهب ١/ ٣٩١، طبقات ابن سعد ١/ ٥٤، تاريخ ابن خلدون ٢/٩٨، صبح الأعشى ١/ ٣٠٧، نسب قريش، ص٣.

(١٩) د. جواد علي، المفصّل..، ١/ ٣٨٠.

وعلى لذّة النسّابين بـإيجاد النسب لكلِّ فرعٍ وبطنٍ من فـروع العرب وبطونهم، عجز علم الأنساب عن الصعود إلى ما وراء عدنان. لهذا جاء النبيّ يكذّب كلَّ ما ورد على لسـان أهل الأنساب فقـال: «كَذِبَ النسّابون. فمـا بعد عدنان فهي أسماء سريانيّـة لا يوضحها الاشتقاق»[٢٠]. وأكّد ابن سعد ذلك بقوله: «ما وجدنا في علمِ عالمٍ، ولا شعرِ شاعرٍ، أحداً يعرف ما وراء مَعْد بن عدنان بثبت»[٢١].

لأجل ذلك يبدو لنا أنّ العـرب المستـعربة هم قـبـائل من أصلٍ غيـر «عربي»؛ بل هم ينتـمون إلى العروبة انـتماء، وأخذوا العـروبة، التي لم تكن لهم في الأصل، من الحياة البـدويّة البدائيّة التي عاشوها. فـهم، إذًا، من غير «يعرب» الذي ينتسب إليه العرب العـاربة الصرحاء. لـ «كأنّهم أغراب دخلوا البلاد وتجنّسـوا بجنسيّتـها»[٢٢]. وبسبب غرابتـهم هذه حدثَ بينهم وبين العاربة عداءٌ كبير. بل لم يُعرف لهم في التاريخ ذكرٌ لولا هذا العداء.

هذا العداء ظهـر في تفسيـر القحطانيّين لـ «معـد» جدّ المستـعربين.. فمـعد تعنـي: الشظف في العيش والغلظ في المـعاش والتقـشّف[٢٣]. وتعني أيضاً: «حياة بدويّة شاقّة بعيدة عن كلِّ وسائل الحضر وترف أهل المدَر»[٢٤]. ومن ذلك القول: «عليكم باللبـسة المعديّة»، أي خشونة اللبـاس. وقيل أيضاً: «إخشَوشنوا وتمعّدوا»[٢٥]. وورد: «تسمعُ بالمعدي خيرٌ مِن أن تراه»[٢٦].

---

(٢٠) الاشتقاق ٢٠، ابن خلدون ١/ ٣، البلاذري، أنساب ١/ ١٢.

(٢١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ١/ ٥٨.

(٢٢) د. فيليب حتّي، تاريخ العرب، ص ٦٠.

(٢٣) لسان العرب ٤/ ٤١٤، تاج العروس ٢/ ٥٠٣، الاشتقاق ١/ ٢٠.

(٢٤) لسان العرب ٤/ ٤١٤.

(٢٥) المرجع السابق نفسه ٧/ ٤٠٧.

(٢٦) تاج العروس ٢/ ٤٠٣، مجمع الامثال للميداني ١/ ١٢٩، المثل ٦٥٥.

فالظاهر إذاً «إنّ كلمة معد كانت تعني ما تعنيه كلمة عربي عند الأشوريّين، أي البدو والأعراب»[٢٧]. ولذلك اتُّهِم معدٌ بالمكر والكيد، فورد في الأخبار: «كنتُ أُخبِرُكَ أنَّ مَعداً لا ينام كيدُها ومكرُها». وقيل: «إنّ مَعَداً بن زيد فيه مكر وخديعة. والمَعديُّ لا يصلح إلاّ هكذا»[٢٨].

«يتبيّن من كلِّ ما تقدّم أنّ مَعداً كلمة أريد بها «أعراب» كانوا يتنقّلون في البوادي، يهاجمون الحضر والأرياف.. وكانوا يباغتون الناس ويُفاجئونهم. وكانت حياتهم حياةً قاسية صعبة. ولم يكونوا قبيلةً واحدة، بل قبائل عديدة، تتشابه في المعيشة، وتشترك في فقرها وفي تعيّشها على الغزو والتنقّل. وقد كانت تقيم في البوادي وعلى أطراف الحضارة.. ثمّ صارت اللفظة عَلَمًا لرجل، صُيِّرَ جَدًّا للقبائل التي عاشتْ هذه المعيشة»[٢٩].

وزاد في بداوة معدٍ ووحشتِهم ميلُهم إلى الاقتتال بعضهم مع بعض. ودَفَعَهُم إلى ذلك فقرُهم وجدبُ البادية، وحاجتُهم الماسّة إلى الكلأ والماء، ونفرتُهم من بعضهم بعضاً، وانتسابُهم إلى جدود وأصول مختلفة ومتنوّعة.. كلُّ ذلك دفعهم إلى التناحر والتشتّت والتفرق حتى ضُرِب بهم المثل، وقيل فيهم شعرًا:

لقد فُرِّقْتُم في كلِّ أوبٍ كتفريقِ الأله بني معدِ[٣٠].

وكان يقع فيما بينهم الشرُّ والعداء، إلى «أن وقع الشرّ بينهم فتفرّقوا وتخاذلوا، وقاتل بعضُهم بعضاً. يقتل العزيزُ منهم الذليلَ. قال المهلهل:

غنّيت دارنا تهامةَ في الدهر وفيها بنو معدٍ حُلولا

---

(٢٧) أنظر جواد علي، المفصّل...، ١/ ٣٨٥.

(٢٨) الأغاني ٢/ ٢٢، مروج الذهب ١/ ١٧٣.

(٢٩) د. جواد علي، المفصّل...، ١/ ٣٨٩.

(٣٠) معجم البكري ١/ ١٧٣، للشاعر البجلي.

فتساقَوا كأسًا أمرتْ عليهم　　　بينهم يقتلُ العزيزُ الذليلا[٣١]

***

بقي أن ننظر في مواطن العـرب المستعربة. وفي ذلك آراء متناقضة. «فاليمن، في رأي فيلبي[٣٢] وجماعةٍ آخـرين من المستشرقين[٣٣]، هي " مهد العرب "، ومهد الساميّين. ومنها انطلقتِ الموجاتُ البشريّة إلى سائر الأنحاء. وهي في نظر بعض المستشـرقين أيضًا " مصنع العرب "، وذلك لأنّ بقعـتها أمـدّت الجزيرة بعـدد كـبيـر من القـبـائل، قبل الإسـلام بأمـدٍ طويل، وفي الإسلام»[٣٤]. وهم يعلّلون ذلك بقولهم إنّ الإنسان يتّجه عادة من البداوة إلى الحضارة وليس العكس.

بيد أنّ بعض المنقّبين فـي الصحراء العربية وبعض المسـتشرقين رأوا أنّ الصحراء لا يمكن، بحال من الاحوال، أن تكون " مصنعاً " للرجال، وذلك لعدم وفرة سبل العيش فيهـا. ولذلك قالوا بأنّ أصل العرب كان من أفريقيا، ودعـموا رأيهم بما رأوه من تـشابه بين مـلامح الأفـريقيّين والعـرب، ومن خصـائص عرقيّـة مشتـركة، ومن صلة وثيقـة بين لغات الأحبـاش والبربر والعرب[٣٥]. ومنهم أيضاً مَن رأى بلاد ما بـين النهرين وبلاد الشام وأرض النيل هي في أساس الهجرات منها إلى الصحراء العربيّة[٣٦].. وهؤلاء يعلّلون

---

(٣١) معجم البكري ١/١٨، طبعة السقا.

(٣٢) PHILBY, The Background of Islam, Alexandria, 1949, p. 9ff...

(٣٣) MONTGOMERY, Arabia and the Bible, Philadelphia 1934 p. 126. -
V. PHILBY, op. cit., p. 9. E. SCHRADER, in ZOMG.P.14.

(٣٤) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب..، ١/٢٣٣.

(٣٥) من بين هؤلاء GERLAND و BERTIN و NOLDEKE وموريس جسترو، وكين...
ENC. Brit. 9 th. Ed. Arabia, Barton, p. 6. - Enc. of Religion, II, p. 380
أنظر: جواد علي، المفصّل ١/٢٣٥، وحتي، تاريخ، ١٠.

(٣٦) أنظر: جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام، ٤٤-٤٥، ناجي معروف، ٧٧..

ذلك بقولهم إنّ الإنسان لم يكن أوّلاً في الصحراء، بل، لسبب من الأسباب، طُرد من الأرض الخصبة إلى الصحراء، وليس العكس.

قد تكون الأسباب التي ترجّح الرأي الثاني، أقلّه في مراحل التاريخ المتأخّرة، أكثر من الأسباب القائلة بالرأي الأوّل. ومن جملة هذه الأسباب الداعية إلى القول بأنّ البلاد العامرة هي أصل سكّان الصحراء أسباب تعود إلى عوامل كثيرة، نردّد ذكرَها، وهي:

ضيق أرض الوطن عن تحمّل عدد كبير من السكّان؛ وتزاحم الناس على لقمة العيش والرزق، ممّا يدعوهم إلى التحاسد والتباغض والتناحر والتفتيش عن وطن جديد؛ وهجرة القبائل إلى أماكن أخرى لفساد الادارة وضعف الحكومات الذي «ينتج عنه تزعّم سادات القبائل؛ وانشقاقهم على الحكومات المركزية؛ ونشوب الفتن والاضطرابات؛ واشتعال نيران الحروب؛ وانصراف الحكومة والشعب عن الأعمال العمرانيّة؛ وتلف المزارع والمدن؛ وتوقّف الأعمال التجاريّة؛ وحصول الكساد؛ وانتشار الأمراض والمجاعة؛ والهجرة إلى مواطنَ أخرى يأمن فيها الإنسان على نفسه وأهله وماله.. ثمّ تدخّل الحكومات الأخرى في شؤون العربيّة الجنوبيّة، كالحبشة والفرس، ممّا أدّى إلى اضطراب الأمن في اليمن وظهور ثورات داخليّة وحروب.. وتحوّل الطرق التجاريّة»[٣٧].

يضاف إلى هذه الأسباب: هيمنة العرب الجنوبيين على الطرق التجارية التي تصل بلاد الشام باليمن، وببلاد الهند، ودول الخليج العربي، وحاميات على هذه الطرق لخفارة القوافل من غارات الأعراب والبدو و «ذؤبان العرب» ولصوص الصحراء.. وهجرات قبائل مثل الغساسنة

(٣٧) د. جواد علي، المفصّل...، ١/٢٤٦، أنظر «موسل»، نجد، ص ٣٠٩.

والمناذرة، وهم من اليمن[٣٨]، وكذلك قبائل طيء وتغلب وكلب وقضاعة.. وغيرها. ثمّ «إنّ الفتح الإسلامي هو آخر هجرة ساميّة قذفت بها جزيرة العرب إلى الخارج، وإنّها كانت بسبب الجفاف والجوع»[٣٩].

وممّا يؤكّد هذه الهجرات من البلاد العامرة إلى البريّة ما نجده في سيرة إبراهيم الخليل الذي جاء من أُور الكلدانيّين إلى البريّة مع خيامه ومواشيه[٤٠]، وفي سيرة إسماعيل مع أمّه هاجر اللّذين طُردا إلى البريّة وسكنا مكّة[٤١]، وفي سيرة يوسف الذي باعه إخوتُه إلى الإسماعيليّين[٤٢].. وفي سيرة اليهود، كلٍّ اليهود، الذين «خرجوا» من مصر إلى برّية سيناء[٤٣]... ولمّا جاء الإسلام، حدثت موجةٌ معاكسة، فأخرَج «العربَ» من البرّيّة إلى بلاد الشام، ومن الجوع والفقر إلى الخصب والغنى.. وفي بلاد الشام نشأ الإسلام، على ما يقول لامَنْس.

---

(٣٨) موسل، نجد، ص ٣١٣.

(٣٩) كيتاني، دراسات إسلامية، ص ٣٠٧.

(٤٠) تكوين ١٨/١٢-١٣

(٤١) تكوين، فصل ١٦.

(٤٢) تكوين، فصل ٣٧.

(٤٣) انظر سفر الخروج.

خامسًا - العداوة بين العرب

ألعـداوة بين الأعراب أمـر طبـيعي. إنّهـا عـداوة بين العرب العـاربة أنفسـهم، وعـداوة بين العـرب المسـتـعـربة أيضًـا. وعـداوة بين العـاربة والمستـعربة. إنّها عداوة بين الحـضارة والبداوة، وبين الفـقر والغنى، وبين الجدب والخصب:

لقد «كان الشـعبان، القحطانيّون أهل اليمن والعـدنانيّون أهل البادية، في نزاعٍ حتّى إلى زمـن النبيّ. ولربما كان هذا النزاع قائـماً في الأصل على ما بين الـبداوة والحضـارة من نزاع مسـتـمـرّ. وكان هذ النزاع يتـجلّى في اشتـباك القبـائل اليمنية والنزارية قـبل الإسلام، وفي المفاخـرات التي كان يتنافس بها شعراء الفـريقَين..، وبين الأنصار اليمنيين وقريش.. والظاهر أنّ الأديان، والمعتقـدات، والعادات، وأساليب المعيـشة كانت أيضاً مخـتلفة عند الشعبين، حـتى إنّ هنالك اختلافًا بالأسـماء.. ولعلّ أشهر وجـوه الاختلاف بينهمـا اللغة»[٤٤]. و«لم تتلاش الفـوارق بين هاتين الدوحتين العـربيتين إلى الآن، بل بقي الاختـلاف بينهما واضـحاً على الرغم ممّا حـاول الإسلام من توحيد العرب والجمع بين قبائلهم وبعث أمّة عربيّة واحدة»[٤٥].

وحتّى فجر الإسلام كانت العـداوة لا تزال مستمرّة بين العربَين، ولمّا تزل حتّى اليوم. عداوة أخذت طابع التـناحر بين بني معد والأنصار، أي بين المستعربين والمتحضّرين من أهل يثـرب. و«قد استعمل حسّان بن ثابت كلمة معد في مقـابل الأنصـار، وذكر أنّ الأنصار لها في كلِّ يومٍ من مَـعدٍ قتالٌ أو

(٤٤) الحوت، الميثولوجيا عند العرب، ص ١٧٠، Ency, of Islam, IV, 629

(٤٥) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٦٠.

سبابٌ أو هجاء»[٤٦]. وذكر أيضاً أنّ «الأنصار نَصروا رسول الله على رغم أنفِ معد»[٤٧]. والمعروف عن الأنصار أنّهم كانوا خصوم المهاجرين من قريش. والمشهور أنّ حسّان كان يعتبر نفسَه من أصل يمني نزح إلى يثرب، وكان يهجو أهلَ مكّة ويهاجمهم، ويدافع عن أهل يثرب، ويفتخر بهم على قوم معد ونزار. يقول شعرًا:

وكلٌّ محارب وبني نزار تبين في مشافره الرضاع[٤٨].

وبنو معد، كما يصفهم حسّان، في شعر نسب إليه، هم أنفار مستعربون، فيهم عجمة الكلام، بل هم كالبهائم في القفر. يقول:

وتعلّمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا، فصرتم معربين ذوي نَفْرِ[٤٩]
وكنتم قديماً ما بكم غيرُ عجمةِ كلامٍ، وكنتم كالبهائم في القفرِ.

***

وبالنتيجة، كما يقول المؤرّخ جواد بولس: «إنّ الفرق الكبير بين البيئة الطبيعيّة والعوامل الاقتصاديّة ونمط الحياة في الجزيرة من جهة، وبين البلدان الحضرية العربيّة في خارج الجزيرة العربيّة من جهة أخرى، يجعل منهما مجتمعَين متناقضَين تقريباً..

«إنّ العرب، في الجزيرة، وفي خارجها، كأسلافهم الساميّين والحاميّين، لا يؤلفّون جنساً، أو عرقاً من الأجناس أو العروق البشريّة. فهم مركّب من أجناس وأعراق متعدّدة في الأصل، عربيّة ومتعرّبة، اعتنقتِ الإسلامَ بعد ظهوره، واتّخذتْ هوّيةً جعلتها أسرةً أو جماعة ذات روابط

---

(٤٦) البرقوقي، شرح ديوان حسّان بن ثابت، ص ٦. ديوان حسّان، ط ١.
(٤٧) ديوان حسّان بن ثابت، ص ٥ و ٦و ٢٥.
(٤٨) المرجع السابق نفسه، ص ٣٦.
(٤٩) الهمداني، الإكليل، ١/١١٦.

لغويّة وثقافيّة ودينيّة، مشتركة باللغة والعقيدة الدينيّة والعادات والأعراف والممارسات..

«فالعرب هم، إذن، مجموعة بشريّة غير متجانسة جسميًا أو بدنيًا، يعيشون في الجزيرة العربيّة، وفي المشرق والمغرب، من العراق حتّى مراكش. فهم يمثّلون كثافةً بشريّةً، إنْ لم تكن إثنيّة أو عرقيّة، فهي دينيّة ولغويّة وثقافيّة. وينقسمون إلى عرب «عاربة»، أي العرب الأصليّين، أو عرب الجزيرة، وإلى عرب «مستعربة»، أي الذين تعرّبوا بعد الفتح العربي وانتشار الإسلام في خارج الجزيرة، حيث انصهروا انصهارًا تامًا»[٥٠].

في قول جواد بولس بعض الحقيقة وكثير من الخلط. الحقيقة في التركيبة العربيّة غير المتجانسة عرقاً وإثنيّة. والخلط في نشره العرب «من العراق حتّى مراكش»، في حين أنّنا رأينا العروبة لم تتخطّ، من جهة الشمال، «خطّها الوهمي» الذي تخرج العراق من حدوده، وكم بالحري مراكش وبلدان أفريقيا!!.

غير أنّ المهمّ هو ذلك النزاع الذي يشير إليه بين القحطانيّين والعدنانيّين. ألنزاع الذي تمثّل بالعداء الشديد بين مكّة والمدينة، أو بين المهاجرين والأنصار، أو بين أهل الوبَرَ وأهل المدر، أو أيضاً بين أهل البادية وبني مدرار[٥١]. هذا كان قُبيل الإسلام. أمّا في الإسلام، فقد اشتد النزاع وتسمّى بأسماء أخرى: فهو تارة نزاع بين بني كلبٍ من قحطان وبني قيسٍ من عدنان. وكان ذلك في أيّام معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم، وكان على أشدّه، اذ هلك فيه خلْق كثير من الفريقَين. واتّسع القتال حتّى شمل كلّ قبائل اليمن ضد قبائل قيس وتميم. وهو، طوراً، نزاع بين يمنيّين وقيسيّين،

(٥٠) جواد بولس، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الاسلام، ص ٤٣.

(٥١) لسان العرب ٣٨/٢، أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٧، الأغاني، ١٤٥/١٢.

وكان في التاريخ شهيراً جدًا، إذ «وقعت وقائع دمويّة بين يمنٍ وقيس أنهكتِ العربَ جميعاً، وصارت من جملة العوامل التي عجّلتْ بسقوط الأمويّين»(٥٢).

وأشار المسعودي بوضوح إلى الصراع بين فصائل العرب في زمن الحكم الأموي، واعتبر سقوطَ الأمويّين قد حدثَ بسببِ هذا الصراع. قال: «عظم الخطب من العصبيّة بين من بها من اليمانيّة والنزارية، ودامت عدّة سنين»(٥٣). ويفصّل مجرى الصراع بقوله: «وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار. وأدلى كلٌّ فريقٍ بما له من المناقب، وتحزّبتِ الناس، وثارتِ العصبيّة في البدو والحضر، فنتج بذلك أمرُ مروان بن محمّد الجعدي وتعصّبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العبّاسية، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أميّة إلى بني هاشم.

«ثمّ ما تلا ذلك من قصّة معن بن زائدة باليمن وقتله أهلها تعصبًا لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وقطعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القدم، وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين، وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة وسائر ممّن بأرض البحرين وعُمان كيادًا لِمَعْن، وتعصّبًا من عقبة بن سالم لقومه قحطان، وغير ذلك ممّا تقدّم وتأخّر، ممّا كان بين نزار وقحطان»(٥٤).

ويستشهد المسعودي بقصائد شعرية، من أواخر الدولة الأمويّة، لشعراء «يتخاصمون على مكارم أصولهم العربيّة بين اليمانيّةوالنزاريّة. فقام الكميت بن زيد الأسدي من مضر من نزار يعرّض باليمن ويطنب في وصف نزار وأنّهم أفضل من قحطان. وجاء في قصيدته:

---

(٥٢) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١/ ٤٩٥.

(٥٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٨٦.

(٥٤) المسعودي، مروج الذهب، ٣/ ٢٣٢.

وجدتُ اللّهَ إذ سمّى نـزارا وأسـكنهم بمكّة قاطنينا
وما وجدتُ نساءَ بني نزارٍ حلائلَ أسودين أحمرينا

ويجـيبـه دعبل الخـزاعي اليـمني، ويذكر مناقـب اليمن وفـضائلهـا ويعرّض بنزار، ويردّ على الكميت بن زيد ويقول في القافية نفسـها:

فان يكُ آل إسـرائيل منكم وكنتم بالأعــاجم فاخرينا
فلا تنسَ الخنازيرَ اللواتي مُسِخْنَ مع القرود الخاسئينا
لقد علمتْ نزارٌ أنّ قومـي إلى نصرة النبوّة فاخرينا[٥٥].

***

وسبب الـعداوة بين العرب تلـك النزعة الفـردية المغرقة في الأنـانيّة. فالعرب قبائل وعشائر متناحـرة، يقاتلون بعضـهم بعضاً بأشدّ ممّا يقاتلون غيـرهم. ويغزون بعـضـهم بعـضاً كـأنّهم يغزون ألدّ أعـدائهم، وذلك وفـقًا لمصالحــهم الخاصّـة وحاجـاتهم الفرديّة. هم كـالذئاب العاديـة، والوحوش الضارية، يأكل بعضـهم بعضاً، ويغير بعضـهم على بعض.

وإنْ كوّنـوا دولةً أو شبـهَ دولة فلا تلبث أن تتـفتّت وتتـشتّت لـفرط أنانيّتــهم. وإنْ حكمَهم أحد، ولو كـان منهم، فلا يَدينون له بطاعــة. يَصعب، لغـرورهم بكرامتــهم الشخـصيّـة، انقيـادُهم لرئيسٍ، أو لنظامٍ، او لمصلحـةٍ مشتركة، أو للخيرِ العام.

ولشـدّة غرورهم كـان هلاكهم على يد بعـضـهم بعـضاً. لذلك كـانت الحروب بينهم مـستمرّة. وخيـرُ مَن عبّر قديماً عن حـالهم هذه الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) الذي جاء في قوله عنهـم: «إنّ هؤلاء عرب وأنتم عرب. وهلاكُ كلِّ شيءٍ مِن جنسه»[٥٦]. وعن خـالد بن الوليـد قـوله لحامل رايتـه في غـزوة

(٥٥) المرجع السابق نفسه، ٣/ ٢٣٠ – ٢٣٢.
(٥٦) الواقدي، فتوح الشام، ٢/ ١٨٥.

اليرمـوك جَبلة بن الأيهم: «أنتم عـرب وأعداؤنا عرب. والحـديد لا يقطعه إلاّ الحديد»[٥٧]. وحديثاً قال فيهم غوستاف لوبون: «إنّ القهر، إذا وقع، كان على أيدي أعرابٍ آخَرين. فلا يَفُلُّ الأعرابَ إلاّ الأعرابُ»[٥٨].

والعداوة بين العرب من ثوابت تاريخهم. فكم انقسموا فيما بينهم إلى أقسام: إلى قحطانيين وعدنانيين، وقيسيين ويمنيين، ومهاجرين، وقرشيين، ومـدنيين؛ ثمّ إلى أوس وخزرج، وعـبس وذبيـان، وبني عـبد شـمس وبني هاشم، وربيعة ومصر، وبـكر وتغلب، وكنانة وهوازن؛ ثمّ إلى شيعة وسنّة، وأمويّين وهاشميّين، وعبّاسـيّين؛ وكلٌّ قسم منهم إلى أقسام، وكل قبيلة إلى فخوذ وبطون، وكلٌّ شيعة إلى شيع وأحـزاب. وكانت الحروب بينهم جميعاً على ضراوتها تدوم وتدوم سنين طويلة.

ومن مظاهر العداوة المتمكّنة في العرب طمعهم فيما هو لغيرهم. يدُهم على مـا لهم، وعـينهم على مـا لسواهـم. يشتـهـون أموالهـم وأراضيـهم، ونساءَهم، لتكون لهم مغـانم لا لذّةَ لهم فيها إلاّ اغتصـابًا. ومنذ القديم عرف أعداؤهم فيهم هذا الطمع. قال يوقنّا الرومي أميرُ حلب: «ويلكم! ما العرب إلاّ مـثل الذئاب. إنْ صُـدِمتْ وَلَّتْ، وإنْ تُرِكتْ طَمَـعَتْ»[٥٩]، وحـذّر البطليـوس صاحب البهسنا في الصعيد أصحابَه، فقال: «لا تُطمعوا العربَ فيكم، ولا في بلادكم، فـإنما مثل الـعرب كـمثل الـذباب، إنْ تركتَـه أكَل، وإنْ منعْـتَه فـرَّ وهلك»[٦٠]. وبعد أن فتح العرب الرها ورأسَ العين، قام ملك الروم شـهرياض يقول لجمـاعته: «يا معـاشر الروم! إعلموا.. إنْ كان (هذا البلد) لنا فـلا مقام للعرب بيننا، وإنْ كان للعرب فالبلاد لهم من دوننا»[٦١].

---

(٥٧) المرجع السابق نفسه، ١/ ٢٠١.

(٥٨) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٩٣.

(٥٩) ألواقدي، فتوح الشام، ١/ ٢٤٩.

(٦٠) المرجع السابق نفسه، ٢/ ٢٢٨.

(٦١) المرجع السابق نفسه، ٢/ ١٣٠.

خاتمة الفصل الرابع

علاوةً على ضياع العروبة الصريحة بين فصائلها وأقسامها التي لا ذكر لها في المصادر الإسلاميّة المتقدّمة؛ ثمّة فساد للنظريّة في جوهرها. ولئن كان التناقض عند المؤرّخين للعروبة بادٍ، فإنّ النظريات المتناقضة تبدو واهية، ولا أساس لها من الصحّة: فلا العروبة العاربة نشأتْ في اليمن؛ ولا انتسبت إلى قحطان بأيّةٍ نسبة؛ ولا هي أيضاً نزحتْ من جهة اليمن إلى البادية؛ ولا العروبة المستعربة أخذتْ عروبتَها من القحطانيّين؛ ولا هي أيضاً تنتسب إلى الصحراء.

فالعروبة لم تأتِ مكّةَ والحجازَ من الجنوب؛ بل أتتْهما من الشمال، ودخلت في قبائلها بما جلبتْ معها من لغةٍ وعباداتٍ وعاداتٍ وتقاليدَ. والعداء بين العرب العاربة والعرب والمستعربة لم يكن عداءً بين يمنيّين وقيسيّين، أو بين قحطانيّين وعدنانيّين؛ بل هو عَداء بين حضارةٍ وبداوة؛ أو بين شعوبٍ تتقاتل، لا بسبب عروبتها العاربة والمستعربة؛ بل بسبب الفقر والجوع والحرمان.. هذا السبب كان كافيًا ليجرّ معه وبعده اقتتالاً لا ينتهي، وعصبيّةً لا تلين ولا تهدأ.

ثمّ إنّ العروبة، بعد مجيء الإسلام، فَقَدَتْ هويَّتَها وكلَّ مقوِّماتها، إمّا بتحضّرها؛ وإمّا بهجرتها من مواقعها الصحراوية؛ وإمّا بغزو شعوبٍ متحضّرة لها. وفي كلِّ حال، إنّ فقدانَ العروبة لهو أسهل أمر حدَث ويحدث في التاريخ البشري. إذ كلُّ شيءٍ في التاريخ يستحثُّ الناسَ للخروج من عروبتهم، وذلك لسعي الانسان المستمّر أبداً نحو الأحسن والأفضل. هذا إذا كانتِ العروبةُ تعني «بداوةً»، كما يُريدها المؤرِّخون المسلمون المتأخرون.

ويبدو واضحًا للعيـان أنّ الإسلام تبرّأ من كلّ أنواع العروبة، فلا هو من العروبة الخالصة -وهذا ما يشهد له المسلمون أنفسهم-؛ ولا هو استمرأ العـيش في ظلّ العروبة المسـتعـربة، التي «هجرها»، وخـرج من مواطنـها، وقاتلها في عقـر دارها.. ثمّ غزا العروبةَ الصريحةَ نفسَها وقـاتلها.. وأخيرًا، «خرج» من الجـزيرة العربيّـة برمّتـها، و«هجـرها»، قاصدًا بـلادَ الخصب، والحضـارة، والمدينة.. وبكون الإسلام ديناً وحـضارة ورقـيًا انتـصر على العروبة بجـميع أشكالهـا. فهل يكون «الفتح» و«النصـر» إذاً فتحًـا ونصرًا عربيَّين أم إسلاميّين؟!

هناك، من دون شكٍّ، وجـهٌ عـربي ووجـهٌ إسـلامي لهـذين الفـتح والنصر. أي وجـه اجتماعي، ووجـه ديني؛ أو أيضًا سبب عـربي هو الجوع والفقر الحرمان، وسبب ديني هو الجـهاد في سبيل الله.. وقد تناول القرآنُ نفسُـه هذين العاملين، بقوله عن مـغانم كثـيرة يربحهـا المجاهدون، وجنّات خالدة معدّة لهم.. وانتصر الإسـلام.. وانتصر المسلمون بالرّغم من صعوبة مهمّتهم. ويُخشى أن تضيع قضيّة المسلمين اليوم لجهلهم الارتباط الحقيقي بين العروبة والإسلام.

وهذا الارتباط يقوم على ما يلي : لا تتساوى العروبة مع الإسلام في أيِّ أمر. بل الإسلامُ اعـتمد على العروبة لينـتصر. فانتصـر. ثمّ تخلّى، بعد انتصاره، عنها. تماماً كما يعتـمد المحاربون على السلاح كوسيلة للانتصار؛ وبعد الانتـصار لا بدّ من التخلّي عنه. وإلاّ مـا دام السّلاح حاكـمًا ومستـبدًا برقاب الـناس، لا يكون انتصـارٌ حقيـقي. ألعروبة، إذاً، وسـيلةٌ لا بدّ من أن تزول بعد الانتصار والاسـتقرار. فما بال المسلمين، اليوم، يعتـبرونَها عديلَ الإسلام؟!.

الفصل الخامس

اللغة العربية

أولاً : أيّة لغة عربيّة هي؟

ثانيًا : القراءة والكتابة في القرآن

ثالثًا : إنتشار القراءة والكتابة

رابعًا : القلَم العربي

خامسًا : قرشيّة أم عربيّة؟

خاتمة الفصل الخامس

أولاً – أيّة لغة عربيّة هي؟

أيّة لغة عربيّة هي؟ ما هي أصولها؟ وما هو مصدرها؟ وما هي قواعدها؟ وإلى أيّ فرع تنتمي؟ وهل هي اللغة العربيّة التي تكلّم بها آدمُ في الجَنّة، وإسماعيلُ في مكّة؟ أم هي لغة أهل الحيرة والأنبار؟ أم لغة حِميَر أم مَعين أم قتبان أم سبأ أم ثمود أم لحَيان؟. ما هو قلم هذه اللغة؟ وما هي حروفها؟ وما الوسائل التي دُوِّنتْ عليها؟ وكيف كانت؟ وكيف تطوّرت؟ وكيف أصبحتْ لسانَ القرآن المبين؟ وهل يُعقل أن تكون وصلتْ إلى القرآن بهذه البلاغة العظيمة ولم يكن لها قبلُ تاريخ؟ وإنْ كان لها قبله تاريخ، فما هو؟ ومن أين يبدأ؟

وتبقى العبرة في أقوال المؤرّخين والباحثين. يقول الطبري: «كانت العرب، وان جمعَ جميعَها إسمُ أنّهم عرب، فهم مختلفو الألسن بالبيان، متباينو المنطق والكلام»[١]. ويقول أيضًا: «إنّ ألسنتهم كانت كثيرةً كثرةً يعجز عن إحصائها»[٢]. ويقول ابن فارس: انّ العدنانيّين «يُعيّرون ولدَ قحطان بأنّهم ليسوا عَرَباً»[٣]. ويقول أبو عمرو بن العلاء: «ما لسان حِمير وأقاصي اليمن بلسانِنا، ولا عربيّتُهم بعربيّتِنا»[٤].

في مثل هذه الأقوال عبرة في تعدّد الألسن واللّهجات، وبالتالي في تعدّد الأجناس وتنوّعها. وحتى الآن، أحصى العلماء في الجزيرة العربيّة،

---

(١) تاريخ الطبري، ط بولاق، ١/ ٩.

(٢) المرجع السابق نفسه،١/ ١٥.

(٣) كتاب الصاحبي، قول إبن فارس.

(٤) طبقات بن سلام، ٤، إنظر: الخصائص ١/ ٣٩٢.

لغات عـديدة، نسبـوها إلى «العربيّـة»، وهي المَعينيّـة والقتبـانيّة والسـبأيّة والحِمـيريّة والحضـرموتيّة، فـي المنطقة الجنوبيّة؛ وفي المنـطقة الوسطى، اللحيانيّـة والديدانيّة والثموديّة والصـفويّة؛ وفي المنطقة الشمالـيّة، النبطيّة والتدمـريّة.. وهي لغات، إنْ تشـابهتْ ببعض المفـردات، فهي تخـتلف بالقلم والإعراب والنطق..

وأذا كانت قـبيلة «قريش» هي قـبيلة «التـقرّش» أيَ «التجـمّع». فهل تكون لغتـها أيضا لغة «تجـمّع»! وإذا كانت مكّة استـقبلتِ الحجّاج والتـجّار والمبشّـرين وأصحاب المهـن من كلِّ مكان، فهي أيضًا تسـتقبلـهم بعاداتهم وعقائدهم وطقوسـهم، كما تستقبلهم بلغاتهم ولهـجاتهم وتعابيرهم من أي مكان.. وبذلك تكوَّن في مكّة، من دون شكّ، مـجتمَعٌ مـتلوّنٌ بألفِ ألفِ لون، ومجتمعٌ غنيٌّ بألفِ ألفِ لسان.

ولكثرة تـلّون اللغات في مكّة، وضـع بعض علمـاء العرب، ومنذ عـهد مبكّر، عدّة تآليف في علوم اللغات. من ذلك «كتـاب اللغات» ليونس بن حبيب (ت ١٨٣هـ) و«كتـاب اللغات» لأبـي زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ)، و«كـتاب اللغـات» للأصـمـعي (ت ٢١٧)، و«كـتـاب اللغـات» لأبن دُريد (ت ٣٢١)، و«كتاب اللغات» لأبي عمرو الشَّيباني (ت ٢١٣)، و«كتاب مجرّد الغريب في غريـب كلام العـرب ولغاتهـا» لأبي الحسن الهنائي، و «كـتابة الاسـتعـانة بالشعر وما جاء في اللغات» لعمر بن شبة (ت ٢٦٢).. إلى غير ذلك[٥].

ومن المرجّح أنّ البـحث فـي هذه الكتب، التي لم تصل كـلُّهـا إلينا، لم يكن في تعداد لهجات العرب ومفرداتها واختلاف قواعدها، بقدر ما كان في أمور تميّزتْ بها عن لغة القرآن، وخرجتْ عـن قواعد العربيّة الفصحى. وهذا ما هدف إليـه أصحابُهـا في إثباتِ «لغات فاسـدة»، كما يقـولون، إلى جانب

---

(٥) أنظر : الفهرست لابن النديم، ص ٨٧ و٨٨ و٩٧ و١٠٧ و١٣٠ و١٦٩..

«لغةِ الوحي». إلاّ أنّ لغة الوحي ما كانت لتكون بهذه البلاغة لو لم تكن مشغولةً ومصنوعة ومصاغةً بألسنةِ شعوب حضاريّة لها جذورٌ في الحضارة.

ومع هذا، فالعودة بالبحث عن لغة القرآن، إلى ما قبل القرآن، أمر متعذر جدًا، إذ لم يُبقِ لنا التاريخُ نصًا واحدًا من زمن ما قبل القرآن؛ بل حتّى نصّ القرآن الأساسي مجهول. فلا مصحف عثمان، ولا أيٌّ من مصاحف الصحابة ونساء النبيّ، كمصحف عائشة، ومصحف حفصة، ومصحف عبدالله بن مسعود، ومصحف أُبَيّ بن كعب، ومصحف علي بن أبي طالب، ومصحف زيد بن ثابت.. بقي لنا منها نسخة.

وإذا كنّا لا نستطيع بالضبط معرفة قلم المصاحف الأساسيّة، فإنّنا، أقلّه، نستطيع معرفة اشتقاقه، ومصدره، ومعاني مفرداته، وقواعد كلماته... وهذه الطريقة في معالجة اللغة القرآنيّة تؤدّي بنا إلى معرفة مصدرها، بعلمِ مقارنة اللغات بعضها ببعض، وعلمِ تشابهِ المعاني والخطوط واشتقاق بعضها من بعض.. وهذا يؤدي بنا إلى طرح أسئلة محقّة: هل اللغة العربيّة لغة نبتتْ ونمتْ في مكّة وقريش، بقلمها وكتابتها؟ أم أنّها استوردتْ من الخارج؟ ومِن أيٍّ خارج؟

وإذا كانت من نبتٍ مكّيٍّ، فأيُّ دليلٍ لنا على ذلك؟وإذا كانت من الخارج، فمِن أين؟ وفي أيِّ وقت؟ وعلى يد مَن؟ وكيف كان هذا الانتقال من الخارج إلى مكّة؟ للمسلمين على منبت لغة القرآن إيمانٌ عظيمٌ يصعد إلى إسماعيل بن إبراهيم، وحتّى إلى يعرب بن قَحطان الذي «أعرب» في كلامه. ومنهم من رجع إلى آدم في الفردوس، وإلى الملائكة في الجَنّة، بل إلى الله في ملكوته... ولكنّ ذلك ليس من التاريخ في شيء.

وفي كلِّ حال لا بدّ من الدخول في هذه المعميات لعلّه يكون لنا دليلٌ آخر، إلى جانب الأدلّة التي رأينا، على العروبة وصحّة الانتساب إليها؛ لأنّ

اللغة دليلٌ عظيمٌ على هويّة المتكلّمين بها. فمَن هم هؤلاء المتكلِّمون؟ ولكن قبل أنْ نعالج ذلك، يجدر بنا، بادئ ذي بدء، أن نُشير إلى كثرة المتكلِّمين بهذه اللغة، لأنَّ في ذلك دليلاً على وجودها، وانتشارها، وإثباتِ قِدَمها في التاريخ، إلى درجة أنّنا لا نستطيع إطلاقًا التسليم «بأُمِّيَّة» مكّة، بمعنى جهلها القراءة والكتابة، أو «بأُمِّيَّة» النبيّ محمّد الذي سافر وتاجر وربح، ثمّ وعظ وبشّر وأنذر، وقرأ على سامعيه آياتِ الكتاب(٦). فما هي، إذاً، دلائل انتشار لغة القرآن؟ وأين؟

---

(٦) إنظر كتابَي: قسّ ونبيّ، ص ٤٦-٥١؛ وعالم المعجزات، ص ٧٩-١٠٢.

ثانيًا - القراءة والكتابة في القرآن

في القرآن آيات كثيرة «تدلّ دلالة صريحة على أنّ القراءة والكتابة كانتا منتشرتين في الكتابيِّين بوجهٍ عام.. بمقياسٍ يَصحّ أن يُقال عنه إنّه كان واسعاً بعضَ الشيء. وأنتَ إذا تقرأ ما جاء في الآيات المكّيّة التي هي في الذين كانوا في مكّة من الكتابيّين.. يحصل عندك ترجيحٌ بأنَّ أكثرَ الكتابيِّين في مكّة كانوا يَقرأون ويكتبون»[٧].

ثمّ إنّ القرآن قد «احتوى آياتٍ عديدةً ذكرت فيها أدواتُ الكتابة والقراءة من كتبٍ وقرطاسٍ وورقٍ وصحفٍ وأقلامٍ ومَدادٍ وسجلاّت»[٨]. وننبّه على أنّ هذه الآيات جميعَها مكّيّة، ومن تحصيل الحاصل أن نقول إنّ أهلَ مكّة الذين كانوا أوّل مَن سمعوها كانوا يَفهمون مدلولاتها. ولقد وردتْ كلماتُ الكتابةِ ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرّة ونيّف، وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرّة ونيّف، وبأساليب متنوّعة»[٩].

وآية ٢٨٢ من سورة البقرة التي «تحتوي أسماء ورسائل وأدوات القراءة والكتابة، وتحتفي بالقراءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة، دليل راهن على أنّ العرب في بيئة النبيّ وعصره قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات، واستعملوها، وعلى أنّ القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتَين في نطاقٍ غير ضيّق. فكثرة الترديد تدلّ على الإلفة، وهذه لا تكون إلاّ حيث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غيرَ يسير»[١٠].

---

(٧) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥-٧٦ مع عشرات الآيات في بابه.

(٨) المرجع السابق نفسه؛ رَ: الآيات: ٦/٧و٩١؛ ١٧/١٣و٩٣؛ ١٨/١٠٩؛ ٢١/١٠٤.

(٩) الآيات: ١٠/٩٤؛ ٢٥/٥؛ ٢٦/١٩٨. أنظر عالم المعجزات، ص ٨٨.

(١٠) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤، أنظر ص ٤٣٦-٤٤٥.

ونرى القـرآنَ يحضّ التجّـار على تدوين المعـاملات التـجاريّة، نقـدًا ودَينًا، وصغيرةً وكبيرة. ومن الأرجح «أنّ محمّداً لم يَجِدْها بنفسه، بل كانت موجودة قبلَه في اللغة العربيّة. ومن المعروف أنّ المجـتمع المكّي كان مجتمعًا تجاريًا هامًـا، يتّصل اتّصالاً حـميمـاً ومستـديماً بالبلاد المجاورة، كـالشام وفلسطـين والعـراق ودولتَي الفـرس والروم. وهذه كـانت تنعـم بحظٍّ من الثقافة كبير»[١١].

وفي القـرآن أيضًا كلمـات مستـورَدة يربو عددُها على المـئات، وهي مأخوذة عن اليونانيّة والسريانيّة والعبريّة والحبشيّة والفارسيّة والنبطيّة.. وقد أثبت المسلمون الأقدمون هذه الكلمات، وكـتبوا فيها المجلّدات الطوال[١٢]. وفي هذا دليل واضح على انتشار المثقّفـين والمتعلّمين في المجتمع المكّي حيث نشأ القرآن وكُتب. وهو أيضًا دليلٌ على التبادل الثقافي والعلمي بين مختلف شعوب الجزيرة.

وبالإضـافة إلى ذلك نـرى القرآن يحـتـوي على الكثـير من الألفـاظ والأسماء المعـرّبة، ممّا يدل على شيوعِها واسـتعمالها عـند أهل عصرِ النبيّ وبيئتـه. «هذه الأسماء جاءت في القرآن بصيـغةٍ عربيّةٍ فصحى، أي غـير ما هي عليه في لغاتـه الأصليّة، وبعبارة أخرى إنّهـا معرّبة»[١٣]. بل هي معرّبة ومصـاغة صياغـةً عربيّة بليغـة، ممّا يدلّ مرّة أخرى على قـدم استعمـالها، وبالتالي على قدم لغة القرآن.

ثمّ إنّ النبي كان «يتّـصل بمختلف الطبقـات والشخصيّـات المكّيّة، ثمّ بمخـتلف الطبقـات والشخـصيّـات والقبـائل التي كانت تَفِـد على مكّة، في

---

(١١) لامَنس، مكّة عشيّة الهجرة (بالفرنسية)، ص ١٢٠.

(١٢) أنظر مثـلاً: الأصفهـاني، المفردات في غريب الـقرآن، السيـوطي، الإتقان في علوم القرآن ١/١١٣...

(١٣) محمّد دروزة، عصر النبي، ص ٦٢ و٦٨ و٤٢٩ و٤٦٥..

المواسم والأسواق، ويتحدّث إليهم، ويتلو عليهم آيات القرآن، ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال»[١٤]. ذلك يعني أنّ كثيرين من غير مكّة وقريش كانوا يتكلّمون اللغة العربيّة. ويعني أنّ اللغة العربيّة قديمة العهد، بل تكون أقدم من قريش.

هذا علماً بأنّ الذين آمَنوا في بدء الدعوة، لم يُؤمنوا لأجل فصاحة القرآن اللغويّة ومعجزته البيانيّة وبلاغته الإعجازيّة، بقدر ما آمنوا لسببٍ آخر من الأسباب. ذلك لأنّ المؤمنين الأوّلين في مكّة آمَنوا بالنبيّ ودعوته من قَبل أن يَنزلَ من القرآن شيءٌ يذكر. معنى ذلك أنّ سحرَ بيان القرآن كان في سحر اللغة من قبل نزول القرآن. ومعناه أيضًا أنّ اللغة العربيّة سبقت ببلاغتها وإعجازها بلاغةَ القرآن وإعجازَه.

وأيضًا، إذا كانت لغة القرآن هي سبب إيمان المؤمنين به لأجل بلاغتها وفصاحتها، فلماذا بقي أكثر المكّيين والحجازيّين جاحدين؟! ألعلّهم لم يفهموا مضمونَها! أم لأنّهم فهموا وأنكروا!؟ والأرجح أنّهم أدركوا وفهموا، لأنّهم كانوا يُدركون ويفهمون كلَّ أمرٍ من أمور مصالحهم التجاريّة والماليّة التي كانت لهم مع بلاد الشام والهلال الخصيب. ذلك يعني أنّ العربيّة لم تكن وقفاً على مكّة.

ينتج من معطيات القرآن: إنّ اللغة العربيّة قديمة العهد ببلاغتها، وإنّ العلم والكتابة والقراءة كانت جميعها منتشرة في بيئة النبي، وإنّ نزلاء مكة من أحباش ودمشقيّين ويونان ورومان ومصريّين ويهود ونصارى كانوا بمستوى لغة القرآن وفصاحته.

***

---

(١٤) المرجع السابق نفسه، ص ٦١.

أما الأحاديث المنسوبة إلى النبيّ، على تناقضها، فلا تقلّ شأناً عمّا هو عليه القرآن، في تأكيدها على اتّساع نطاق العلم والقراءة والكتابة في بيئة الرسول وعصره. فأحمد بن حنبل يَنقل إلينا في سننه قوله: «خرج عليه ثمانية آلاف من قرّاء الناس»[١٥]، والنبيُّ «بعث أربعين أو سبعين.. من القرّاء إلى أناس من المشركين»[١٦]. وعند ابن حنبل أيضًا قوله: «امتلأتِ الدارُ من قرّاء الناس»[١٧].

وفي الأحاديث عامّة أدلّةٌ كثيرة وأقوال عديدة على أنّ النبيّ هو «في زمان كثير، قليل فقهاؤه، كثيرٌ قرّاؤه»[١٨]. وليس من خوف على ألاّ يتزايد عدد القرّاء اذ يشير الدارمي بقوله: «إذا كثرت قَرّاؤكم»[١٩]. وفيها أيضًا أمر اللّه لنبيِّه: «يأمرك ان تُقرئ أُمَّتَكَ القرآن»[٢٠]، ويبيّن أصحابُ الحديث أنّ القراءة كانت في جميع الناس. يقولون: «ونحن نقرأ، ونُقرئه أبناءَنا، ويُقرئه أبناؤُنا أبناءهم»[٢١]، والنساء أيضًا تقرأ: "لنَقرأنّه ولنُقرئْنَهُ نساءَنا»[٢٢]. وهو أمر نبوي واضح: «تعلّموا القرآن فاقْرأُوه وأَقْرِأُوه»[٢٣].

***

نستدلّ من هذه الحاديث على كثرة القراءة والكتابة في مكّة، وانتشارها بين الصحابة وعامّة الناس. وهو دليل على أنّ مكّة لم تكن «أُمِّيّةً»

---

(١٥) سنن أحمد بن حنبل، ١/ ٨٦.
(١٦) صحيح البخاري، باب الجزية، ٨.
(١٧) سنن أحمد بن حنبل، ١/ ٨٦.
(١٨) ابن مالك، الموطأ، باب السفر، ٨٨.
(١٩) سنن الدارمي، مقدمة، ٢٢.
(٢٠) سنن النسائي، باب الافتتاح، ٣٧؛ ابن حنبل، ٥/ ١٢٧ و١٢٨.
(٢١) ابن ماجة، باب الفتن، ٢٦، ابن حنبل، ٤/ ١٦٠ و٢١٩.
(٢٢) سنن الترمذي، باب العلم، ٥.
(٢٣) الترمذي، باب ثواب القرآن، ٢.

بمعنى الجهل، وأنّ عصر ما قبل الإسلام لم يكن عصر «جاهليّة» بمعنى عدم المعرفة والعلم. أضف إلى ذلك أنّه ليس في الأدب الجاهلي ذكر لكلمة ««أُمِّيَّة» بمعنى جهل القـراءة والكتابة. «ولو كانت الأُمِّيَّـة معروفةً عند أهل الجـاهليّة بهذا المعنى لاستشهدوا عليها بشعرٍ من أشعار الجاهليّين أو المخضرمين، ولِمَا لجأوا إلى هذه التفاسير المتكلّفة[٢٤]، لأنّ من عادتهم الاستشهاد بالشعر في تفسيـر الألفاظ، ولا سيّمـا الألفاظ الغريبة. فـعدم استشهـادهم بشاهدٍ من شعـرٍ أو نثرٍ في تفـسيـر الأمّيّة هو دلـيل على أنّ اللفظة بهذا التـفسـير من الألفاظ التي ولدت في الإسلام، وإنّها لم تكن عربيّة خـالصة، وإنّما سمعوها من أهل الكتاب»[٢٥].

ثمّ إنّ هذه «الأمّيّة»، بهـذا المعنى، لا توجد، في أيّة لغة سامـيّة أخرى، ذلك ممّا يؤيّد الحجّة على أنّها لفظة إسلاميّة، ابتغاها المفسّرون، بهذا المعنى، كـرمى لعين الرسول، وتعظـيمـاً للوحي، وابتغـاءً لتـدخّل الله المباشـر في معجزة القرآن. ولذلك قالوا بـ «أمّيّة» محمّد، وشدّدوا عليها، وأعلنوا بأنْ «لا دخل له (للنبيّ) في الوحي، فلا يَصوغه بلفظه، ولا يُلقيه بكلامه، وإنّما يُلقى إليه الخطاب إلقاءً. فهو مخاطَب لا متكلِّم، حـاكٍ ما يسمعُه، لا مُعبِّر عن شيءٍ يجول في نفسه»[٢٦]. «فالقرآن إذًا صريح في أنّه لا صنعـة فيه لمحمّد... ولا لأحد من الخلق، وإنّما هو منزَل من عند الله بلفظه ومعناه»[٢٧].

---

(٢٤) من جملة التـفاسير المتكلّفة، قـولهم إنّ الاميّة نسبـة إلى «الأم» التي هي عند العرب على الفطرة والجهل؛ أو أيضًا تنسب إلى مكّة المعروفة بـ «أمّ القرى».

(٢٥) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ٨/ ١٠٥-١٠٦. «الأمّيّة» عند أهل الكتـاب من «الأميّين» أي الذين ليس لـهم كتـاب منزل. وهو معناها في القـرآن. الأميّون فيه هم بمقابل الكتابيّين.

(٢٦) د. الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠ و٣٣ و٣٨.

(٢٧) محمد دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ٢١.

هذا كلام مذهولين أكثر مما هو كلام مؤرّخين. ولا ندري كيف يحسن لهؤلاء قولُهم بأنّ الله اختار جاهلاً، لا يقرأ ولا يكتب، لكي لا تراوغه نفسُه الشرِّيرة بالتحريف والتزوير والزيادة والنقصان في كلام الله!! عجبٌ من علماء يجدون «الجهل والأُمِّيَّة» عندهم رذيلة، ويجدونها في الرسول فضيلة!!

وأمّا الأحاديث النبويّة، مثل: «إنّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نكتب ولا نحسب»[٢٨] فتعارضه أحاديث نبويّة أخرى مثل «قريش أهلُ الله، وهُمُ الكتبة الحسبة»[٢٩]، ومثل: «حقّ الوالد على ولده أن يعلِّمَه الكتابةَ والسباحة والرماية»، وشبيه به: «حقّ الوالد على ولده أن يحسّن اسمَه، ويزوِّجه إذا أدرك، ويعلِّمَه الكتاب»[٣٠]...

ومع هذا، لا نقف عند هذه الأحاديث المتضاربة، مهما كان شأنُها؛ لأنّ التاريخ الموثوق والآثارَ الباقية والقرآنَ نفسَه هي خير دليل على شموليّة العلم والمعرفة في مكّة. وما كتبه أصحاب الروايات والمحدِّثون هو في خدمة الدفاع عن الدِّين أكثرَ ممّا هو في خدمة العلم والحقيقة والواقع والتاريخ.

---

(٢٨) صحيح البخاري، الصوم ١٣، صحيح مسلم، الصوم ١٥، أبو داود، الصوم ٤، النسائي، الصوم ١٧، ابن حنبل ٢/٤٣، لسان العرب ١٢/٣٤..

(٢٩) الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٨، حكمة الإشراق، ص ٦٧.

(٣٠) الجامع الصغير، رقم ٣٧٤٢، ٣٧٤٣؛ حكمة الإشراق، ص ٦٦..

ثالثًا - إنتشار القراءة والكتابة

أمّا انتشار العلم والقراءة والكتابة، من خلال كتب التاريخ ، وروايات أهل الأخبار، فهو دليل آخر على رسوخ اللغة العربيّة، وقِدمها، وانتشارها، واستحكام معاني مفرداتها، وبلاغة تعابيرها، ومتانة عباراتها، وحسن صوغ كلماتها، وجمال صورها، وانتظام قواعدها... والمصادر الإسلاميّة القديمة تتكلّم على جملة أسماء لمعوا في مجالات الأدب والشعر والقصص والخطابة والأمثال.

هذه الأسماء هم جماعة من الحنفاء والصابئة، والنصارى واليهود، وعامّة أهلِ الكتاب الموصوفون في القرآن بـ «أهل العلم» و« أُولِي العلم» و«المقسّطين في العلم» و«الراسخين في العلم» و«الذين أُوتوا العلم» و«الذين جاءهم العلم» و«مَن عنده العلم»... وغير ذلك[٣١].

ومن هذه الأسماء أيضًا جماعة كبيرة من التجّار وأصحاب الصنائع، وكثير من الأنصار وأتباع الرسول، وكثير من الغلمان، وعديد من الشعراء والأدباء والكتبة والمترجمين من الفارسيّة إلى العربيّة، ومن العربيّة إلى الفارسيّة، ومن الروميّة إلى العربيّة، ومن العربيّة إلى الروميّة..

* جاء في الأخبار أنّ المتلمّس أعطى كتابَه بعضَ غلمان الحيرة فقرأه. يقول: «فإذا أنا بغلامٍ مِن أهل الحِيرة يسقي غنمه من نهر الحِيرة، فقلتُ: يا غلام! أتقرأ؟ قال: نعم. قلت: إقرأ»[٣٢].

---

(٣١) أنظر القرآن حيث أكثر من ثمانين مرّة يتكلّم على أهل العلم..

(٣٢) مجمع الأمثال ١/ ٤١٢، بلوغ الأرب ٣/ ٣٧٤، النصرانيّة وآدابها ١/ ١٥٧..

وجاء عن زيد العبادي أبي الشاعر عدي أنّه «كان في الحيرة معلّمون يعلّمون الأطفال القراءة والكتابة، يذهبون إلى بيوت الأطفال يعلّمونهم»[٣٣].

وكان لقيط بن يعمر الإيادي قد كتب صحيفةً إلى قومه يحذّرهم من كسرى. وكان كاتبًا ومترجمًا في قصر كسرى، يكتب من الفارسيّة إلى العربيّة، ومن العربيّة إلى الفارسيّة[٣٤]. اشتهر بصحيفته، وقد افتتحها بقوله شعرًا:

سلامٌ في الصحيفةِ من لقيطٍ   إلى مَن بالجزيرة مِن إيادِ

وكان سعد بن مالك أرسل ابنه المرقش الشاعر المعروف وأخاه حرملة إلى رجل من الحيرة، فعلّمهما الكتابة، وكانا يكتبان أشعارهما[٣٥].

وجفينة العبادي، من نصارى الحيرة، كان كاتبًا، قدم المدينة في عهد عمر وصار يعلّم الكتابة فيها[٣٦].

ولمّا نزل خالد بن الوليد الأنبار رأى أهلَها يكتبون بالعربيّة ويتعلّمونها. فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلَنا. فقال: ممّن تعلّمتم الكتاب؟ فقالوا: تعلّمنا الخطَّ من إياد. وأنشدوه قولَ الشاعر:

قومي إياد لو أنّهم أمم   أو لو أقاموا فتهزل النعمُ[٣٧]

قومٌ لهم باحة العراق إذا   ساروا جميعاً والخَطُّ والقَلَمُ

ووجد خالد بن الوليد أهلَ النقيرة يعلّمون أولادهم في كنيستها، والنقيرة قرية من قرى عين التمر في العراق. ولمّا فتح خالد عين التمر وغنم ما فيها «وجد في بيعتهم أربعين غلامًا يتعلّمون الإنجيل، عليهم بابٌ مغلق، فكسره عنهم ثمّ أخرجهم»[٣٨].

---

(٣٣) كتاب الاغاني ١/١٨ و١٠١.

(٣٤) كتاب الاغاني ٢٠/ ٢٤، معجم البكري ١/ ٥٢، الشعر والشعراء ١/ ٩٧ و ١٥٢.

(٣٥) المفضّليات، ص ٤٥٩، الاغاني ٦/ ١٣٠.

(٣٦) تاريخ الطبري ٥/ ٤٢، طبقات ابن سعد ٣/ ٢٥٨. البلاذري ٤٦٠.

(٣٧) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٥.

(٣٨) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٧.

* وممّن كـان يقرأ ويكتب مـن الشعـراء الجاهلـيّين: سويد بن الصـامت الأوسي، صـاحب مجلّة لقـمان، والزبرقـان بن بدر[٣٩]، وكعب بن زهـير بن أبي سلمى[٤٠]، وكعب بن مالك الأنصاري[٤١]، والربيع بن زياد العبسي، وقد كتب إلى النعمان بن المنذر شعراً يعـتذر فيه إليه[٤٢]، ولبيد بن ربيعة العامري[٤٣]، والنابغة الذبياني[٤٤]، وأميّـة بن أبي الصلت، الذي لم يكن كـاتبًا وقـارئًا وحسب، بـل كان واقفًـا على كتب أهـل الكتاب، يقـرأها ويقتـبس منها. وقـد استـخدم ألفاظـها في شعره[٤٥].

* ومن الذين اشتـهروا بالكتـابة والقراءة قومٌ مـن أهل يثرب من الأوس والخزرج، كـانوا يكتـبون ويقـرأون عند ظهور الإســلام. منهم «سعـد بن زرارة، والمنذر بن عمـرو بن خنيس، وقد كان أحد الـسبعين الذين بايعوا الرســول، وكان يكتب في الجاهلية بالعربيّة»[٤٦]، وأُبَيّ بن كعب، وزَيد بن ثابت، كان يكتب العربية والعبـرانيّة، ورافع بن مـالك، وأسيـد بن حضيـر، ومعن بن عـدي البلوي، حليف الأنصار، وبشيـر بن سعد، وسعد بن الربيع، وأوس بن خـولي، وعبد الله بن أبي المنافق، وســعد بن عـبادة، والربيع بن زياد العـبسي، وعـبد الرحـمن بن جـبر... وغيرهم[٤٧].

* ومنهم أيضًا أبو جبير الضحّـاك الأنصاري، وقد توّلى الكتابة للخليفة عمـر[٤٨]، وقـيس بن نشبـة كان «ممّن قـرأ الكتب وتألّه في الجـاهليّة» ، وكـذلك

---

(٣٩) كتاب الاغاني ٢/ ١٨٠.

(٤٠) الشعر والشعراء ١/ ٩١، جمهرة أشعار العرب، ص ٢٤.

(٤١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٧.

(٤٢) الاغاني، ١٦/ ٢٢ وما بعدها، آمالي المرتضى ١/ ١٣٦.

(٤٣) الشعر والشعراء، ١/ ٣٣، الخزانة للبغدادي، ٢/ ٢١٥.

(٤٤) الخزانة للبغدادي، ٢/ ٣٩٢.

(٤٥) ابن هشام ١/ ٤٨، الاغاني ٣/ ١٢١، ٤/ ١٢٩، المعارف ٢٨، المزهر ٢/ ٣٠٩.

(٤٦) الاستيعاب ٣/ ٤٣٨، الإصابة ٣/ ٤٤٠، رقم ٨٢٢٦.

(٤٧) فـتوح البلدان، ٤٥٩، الإصـابة ١/ ٩٨، رقم ٣٣٤، الروض الانف ١/ ٦٥، تفسـير الطبري ٤/ ٢٣، طبقات ابن سعد ٣/ ٥٤٢، ابن هشام ١/ ٢٦٥، الاغاني ٢/ ١٦٤.

(٤٨) الاصابة ٤/ ٣١ رقم ١١٨.

العبـاس بن مرداس عمّ قـيس[٤٩]، وأبو قيس بن عـبد مناف بن زهرة كـان ناشر الكتابة بين أهل مكّة[٥٠]، ثمّ عمـرو بن عمـر بن عدس[٥١]، وأسـيـد بن أبي العيص الذي «كـان من كتّاب الـعرب» [٥٢].. هؤلاء وغـيرهم كـثـيـر من أهل يثرب كـانوا يحـسنون القراءة والـكتابة ويعلّمـونهـا أولادهم وغلمانـهم ونساءهم. وهو أمـر طبيعي في مـدينة تجاريّة صناعيّة، فـيها من كلّ أنواع الصناعة بالـذهب والفضّة والحِرَف اليدويّة.

* ومن كتبة مكّة وقـرّائها في الجاهلية نذكر: حنظلة بن أبي سـفيان، قتله عليّ بن أبي طالب يومَ بدر[٥٣]، وبغـيض بـن عـامـر بن هاشم وهـو الذي كـتب الصحيـفةَ على بني هاشم[٥٤]، وحرب بن أميّة الذي نُسِبَ إلـيه إدخال الكتابة بين قريش، وهو جدّ معـاوية بن أبي سفيان. قال فيه الـسيوطي: «إنّه أوّل العرب الذي كتب بالعربيّة. تعلّم من أهل الحِيرة. وتعلّم أهلُ الحِيرة من أهل الأنبار»[٥٥].

ومنهم أيضًا الوليد بن الوليد، وأخوه خالد بن الوليد[٥٦]، ونافع بن ظريف بن عمرو بن نوفل بن عبـد مناف، الذي أسلم يوم الفتح، وهو الذي كتب المصحف لعمـر بن الخطاب ولعثـمّان[٥٧]، وحاطب بـن أبي بلتعة، حـليف بني أسد بن عـبد العزّى، وقد كـتب إلى أهل مكّة يخبرهم بتجهيـز رسول الله إليهم[٥٨]، والـحكم بن أبي أحيـحة سعيـد بن العاص، سمّـاه رسول الله عبـد الله، وهو من الذين أمرهم النبيّ أن يعلّم الكتابة بالمدينة. قُتل يوم مؤتة[٥٩].

---

(٤٩) الاصابة، ٣/ ٢٤٩، رقم ٧٢٤٤.

(٥٠) الفهرست لابن النديم ١٣، المعارف٧٣.

(٥١) المزهر للسيوطي ٢/ ٣٥١: معرفة الكتاب نوع ٤٢.

(٥٢) الفهرست، ص ١٣.

(٥٣) نسب قريش، ص ١٢٣.

(٥٤) المرجع نفسه، ص ٢٥٤.

(٥٥) المزهر للسيوطي، ٢/ ٣٤٢. قول مبالغ فيه.

(٥٦) نسب قريش، ص ١٢٣.

(٥٧) الاستيعاب ٣/ ٥١٠، حاشية على الاصابة، الاصابة٣/ ٥١٥، رقم ٨٦٥٨.

(٥٨) طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٥.

(٥٩) نسب قريش، ص ١٧٦.

* وعند أهل الأخبار خبرٌ يفيد أنّ الوحي لمّا نزل كان في قريش سبعة عشر رجلاً كلُّهم يكتب. هم : عمر بن الخطّاب، علي بن أبي طالب، عثمان بن عفّان، أبو عُبيدة الجرّاح، طلحة، يزيد بن أبي سفيان، أبو حُذَيفة بن عتبة بن ربيعة، حاطب بن عمرو، أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، أبان بن سعيد بن العاص بن أميّة، خالد بن سعيد، وأخوه، عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري، حويطب بن عبد العزّى العامري، أبو سفيان بن حرب بن أميّة، معاوية بن أبي سفيان، جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف. ومِن حلفاء قريش العلاء الحضرمي[٦٠].

* ورُوي أنّ عددَ مَن كتب الوحيَ ثلاثةٌ وأربعون كاتباً[٦١]. لكنّ كثيرين آخَرين غيرهم كانوا يكتبون للرسول البريد والرسائل، وآخرين تولّوا تدوين المغانم وأمور الزّكاة والصدقة والفَيء. وكان بين هؤلاء وأولئك مَن يكتب له بعدّة لغات، ومَن يترجم من لغة إلى أخرى.. ومن المفيد ذكر بعضهم للدلالة على سعة العلم والمعرفة عندهم، ولمعرفة هويّة اللغة التي كانوا بها يكتبون. منهم:

أُبَيّ بن كعب الذي «كان يكتب في الجاهليّة»، وكان أوّل مَن كتب الوحي، كما كان «سيّد القرّاء»[٦٢]. وأنَس بن مالك الذي جاءت به أمُّه إلى الرسول يوم قدومه إلى يثرب تقول: «يا رسول الله! هذا ابني وهو غلام كاتب»[٦٣]. وعلي بن أبي طالب كان كاتباً لعهودِ الرسولِ اذا عهدَ، وصلحِه إذا صالح[٦٤]. تعلّم الكتابة وهو صغير ابن اربع عشرة سنة تعلّمها في الكتّاب[٦٥]. وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أوّل مرتّد في الإسلام. ارتدّ لأنّه خالف إملاءَ الرسول، فنهى الله الرسولَ من اتّخاذه كاتباً. إلاّ أنّه عاد إلى الرسول باستجارة عثمان بن عفّان[٦٦].

---

(٦٠) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٧، أمر الخطّ.

(٦١) تاريخ الطبري ٣/١٧٣، المعارف، ص ١١٢ وما بعدها.

(٦٢) الاستيعاب ١/ ٣٠، كتاب الوزراء والكتاب ١٢، المعارف ٢٦١..

(٦٣) طبقات ابن سعد ٧/ ١٠.

(٦٤) الاستيعاب ١/ ٣٠.

(٦٥) الفصول المختارة للمفيد، ٢/٦٦ ط. النجف.

(٦٦) رسائل الجاحظ ٢/ ١٨٨: في ذم أخلاق الكتاب.

ونذكر أيضًا : «جـهيم الصلت بن محرمة بن عـبد المطلب»، وهو ممّن تعلّم الخطّ في الجاهليّـة. فجاء الإسلام وهو يكتب، وقد كـتب لرسول الله[٦٧]. والأرقم بن أبي الأرقم المخـزومي، قيل عنه أنّه أسلم بعـد عشـرة. وهو من جملة مَن كـتب للرسول وأقطعه الرسولُ دارًا في المدينة[٦٨]، وعبدالله بن الأرقم كان أكثر الأمناء بالكتابة، حـتّى إنّ الرسول كان يأمره بالكـتابة فيكتب ويختم، ولا يقـرأه الرسولُ لأمانته عنده. وكان مِن المواظبين على كتابة الرسائل عن النبي[٦٩].

ومنهم أيضًا : حنظـلة بن الربيع بن صيفي الأسـيدي الذي كان مِن كـتّاب الرسول، نعتـه الطبري بـ «كاتب النبي»[٧٠]، وهو ابن أخي أكثم بن صـيفي حكيم العـرب، وقـد عرف بـ «حـنظلة الكاتب»[٧١]. وشـرحـبـيل بن حـسنة الكندي أو التميمي، وهو ممّن سيّره أبو بكر في فتوح الشـام[٧٢]. وخالد بن سـعيد بن العاص، كان له أخوةٌ كَتَبة، استعمله الرسول لمكاتبة العديد من القبائل ورؤسـاء القبائل[٧٣]. وأبان بن سعـيد بن العاص، أخو خـالد، أسلم بعد الهجـرة، وهو الذي تولّى إملاء مصحف عثمان على زَيد بن ثابت يوم جمْعِهِ في خلافة عثمان[٧٤].

ومنهم أيضًا : طلحة أحـد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسـلام، وأحد الستة أصحـاب الشورى، وكـان تاجراً، وكان عند وقـعة بدْر في تجـارة إلى الشام، ولمّا قـدم المدينة آخَى النبيُّ بينَه وبين الزبيـر. وكـان من الأغنياء وهـو من الكتبـة[٧٥]. والزبير بن العوام وهو من جـملة مَن كتب للرسول[٧٦]. وأبو عُبيـدة الجرّاح وهو

(٦٧) الاصابة ١/ ٢٥٧ رقم ١٥٢٦، فتوح البلدان ٤٥٩، الاستيعاب ١/ ٤٩.

(٦٨) طبقات ابن سعد ١/٢٦٨-٢٧٣ ، الاصابة ١/ ٤٢ رقم ٧٣.

(٦٩) الاصابة ٢/ ٢٦٥ رقم ٤٥٢٥، نزهة الجليس ٢/ ٦٥، التنبيه والاشراف ٢٤٥.

(٧٠) تاريخ الطبري ٣/ ٥٧٠، إنظر المعارف، ص ٢٩٩.

(٧١) الاستيعاب ١/ ٢٧٨ حاشية على الاصابة، فتوح البلدان ٤٥٩، الاصابة ١/ ٣٥٩.

(٧٢) فتوح البلدان ٤٥٩، الاصابة ٢/ ١٤١ رقم ٣٨٦٩، الاستيعاب ٢/ ١٣٨.

(٧٣) طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٥، الاصابة ١/ ٤٠٦ رقم ٢١٦٧، الاستيعاب ٣٩٨.

(٧٤) الاصابة ١/ ٢٤ رقم ٢.

(٧٥) المزهر ٢/ ٣٥١، الاصابة ٢/ ٢٢٠ رقم ٤٢٦٦، الاستيعاب ٢/ ٢١٠.

(٧٦) طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٩.

من الأوائل الذين دخلوا في الإسلام وكان يكتب ويقرأ كثيرًا في كتب التاريخ والمعارك[٧٧]. ويزيد بن أبي سفيان، أخو معاوية، وهو من الكتّاب، أسلم يوم الفتح، ثمّ استخلف أخاه معاوية على رأس الدولة الأمويّة[٧٨]. ومعاوية بن أبي سفيان من كتبة الرسول، بل كان «من الكتبة الحسبة الفصحاء»[٧٩]، أسلم بعد الفتح وكتب لجملة أشخاص[٨٠].

ومنهم أيضاً : ألمغيرة بن شعبة من دهاة العرب وشياطينهم، وهو الذي كتب كتابَ الرسول إلى أهل نجران. ذُكر أنّه، والحصين بن نمير، كانا يكتبان ما بين الناس[٨١]. ومعيقب بن أبي فاطمة أسلم بمكّة وولاّه عمر بيتَ المال، ثمّ كان على خاتم عثمان، وكان يكتب مغانم رسول اللّه[٨٢]. وعقبة بن عبس الصحافي المشهور بين الكتّاب، وُصف بأنّه «كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه، فصيحَ اللسان، شاعراً كاتباً، وهو أحد من جمع القرآن»[٨٣].

ومن كتبة الوحي أيضًا : عبداللّه بن رواحة، وعبداللّه بن سعد، وعمرو بن العاص[٨٤] ومنهم أيضًا : حُذيفة بن اليمان، وعبداللّه بن زيد الضمري، وكان هذا يكتب للملوك[٨٥]، والعلاء بن عقبة[٨٦].

وزيد بن ثابت، وهو أشهر الجميع، كان زيدٌ من الأنصار من بني النجّار. لمّا قدم الرسولُ المدينةَ استكتبه، فكتب له الوحي[٨٧]، نُسب إليه معرفته بالفارسيّة

---

(٧٧) الاصابة ٢/ ٢٤٣، رقم ٤٤٠٠، الاستيعاب ٣/ ٢.
(٧٨) الاصابة ٣/ ٦١٩ رقم ٩٢٦٧، الاستيغاب ٣/ ٦١٢.
(٧٩) الاصابة ٣/ ٤١٢ رقم ٨٠٧٠، الاستعياب ٣/ ٣٧٥.
(٨٠) طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٦-٢٨٧.
(٨١) الاصابة ٣/ ٤٣٢ رقم ٨١٨١، طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٦؛ ١/ ٢٧١.
(٨٢) الاصابة ٣/ ٤٣٠ رقم ٨١٦٦.
(٨٣) الاصابة ٢/ ٤٨٢ رقم ٥٦٠٣، طبقات ابن سعد ١/ ٢٧١.
(٨٤) إنظر: طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٥-٢٨٦ ، الاصابة ١/ ٢٥٧ رقم ١٢٥٦.
(٨٥) الاصابة ٢/ ٣٠٥ رقم ٤٦٩٠.
(٨٦) الاصابة ٢/ ٤٩١ رقم ٥٦٤٩، طبقات ابن سعد ١/ ٢٧٣.
(٨٧) امتاح الأسماع ١/ ١٠١ و١٨٧ و١٩٤، السجستاني المصاحف ٣..

والروميّة والقبطيّة والحبشيّة، وكان يترجم للنبي[٨٨]، وكان من أعلم الصحابة بالفرائض[٨٩]. تولّى تقسيم غنائم اليرموك، كما تولّى جمْع القرآن. وكان «رأسًا بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، وقد عرَض آخر مَن عرض القرآن على رسول اللّه[٩٠]. وكان «حين قدم رسول اللّه المدينة ابن إحدى عشرة سنة». اختُلف في سنة وفاته، فقيل سنة ٤٢ و٤٣ و٤٥ أو ٥١ و٥٢ و٥٥. الأرجح ٤٥. رثاه حسّان بن ثابت شاعر النبي[٩١].

ومنهم أيضًا: ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاري، وهو ممّن كتب للرسول، كان خطيبَ الأنصار، قُتل يومَ اليمامة. ثمّ كان خطيب المسلمين[٩٢]. ومحمّد بن سلمة من الأوس، وهو أوّل مَن سمّي في الجاهليّة محمّداً، استخلفه الرسول على المدينة في بعض غزواته. وكتب له[٩٣]. وأوس بن خولي مِن كتّاب يثرب؛ دوّن الرسولُ صلحَ الحديبية على يده، لكّن سهيلاً تدخّل وأشار بعليّ أن يكتب ويدوّن، وهو من الخزرج حضر غَسْلَ الرسول عند وفاته بالإجماع عليه[٩٤].

* ومن النساء اشتهرت الشفّاء بنت عبداللّه بن عبد شمس القرشيّة العدويّة؛ وكان رسول اللّه يزورها؛ ويقيّل عندها في بيتها؛ وكانت قد اتخّذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه؛ وقد أمرها الرسول أن تُعلّم حفصةَ الكتابة فعلّمَتْها، كما علّمَتها أيضًا رقيّة[٩٥]؛ وكانت حفصة، زوجةُ النبي وابنةُ عمر تكتب[٩٦]. وأمُّ كلثوم

---

(٨٨) التنبيه والاشراف ٢٤٦، فتوح البلدان ٤٧٩، المصاحف ٥١..

(٨٩) الاستيعاب ١/ ٢٩.

(٩٠) الاصابة ١/٥٤٣ رقم ٢٨٨٠، نزهة الجليس٢/ ٦٥، أسد الغابة ٢/ ٢٢١.

(٩١) ابن هشام ٣/١١، اليعقوبي ٢/ ١٥٧، تهذيب التهذيب للعسقلاني ٣/ ٣٩٩.

(٩٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٦ و٣٥٤، الاصابة ١/١٩٧ رقم ٩٠٤، الطبري ٣/١١٦.

(٩٣) الاصابة ٣/٣٦٣، رقم ٧٨٠٨، طبقات بن سعد ١/ ٢٨٦ ٣٥٥.

(٩٤) امتاع الاسماع ١/٢٩٦، الاستيعاب ١/ ٤٩، الاصابة ١/ ٤٥ رقم ٣٣٤.

(٩٥) فتوح البلدان، ص ٤٧٧، ٤٥٨، الاصابة ٤/ ٣٣٣ رقم ٦٢٢.

(٩٦) فتوح البلدان، ص ٤٥٨.

بنتُ عقبة تكتب هي أيضًا[٩٧]، وكذلك عائشة بنت سعد، وكريمة بنت المقداد، وشميلة[٩٨]. أمّا عائشة زوجة الرسول فكانت تقرأ ولا تكتب[٩٩].

* ويبدو أيضًا أنّ أهل الطائف كانوا يُلمّون بالقراءة والكتابة: «فقبيلة ثقِيف كانت حاذقة بالكتابة». وورد أنّ عمر بن الخطّاب قال: «لا يُمْلِينَ في مصاحفنا إلاّ غلمانُ قريش وثقيف». وإنّ عثمان بن عفان قال: «إجعلوا المُمْلي من هُذَيل والكاتبَ من ثقيف»[١٠٠]. وذُكر أنّ غيلان بن سلمة بن معتب الطائفي «كان كاتباً ومعلّماً»[١٠١].

«وإذا ذهبنا أبعد من مكّة والمدينة والطائف نرى أنّ أهل اليمن كانوا يكتبون. وكان غلمانُهم يتعلّمون القراءة والكتابة ويردّدون القراءة. وقد أشار إلى ذلك لبِيد الشاعر بقوله:

فنعاف صارةَ فالقِنانَ كأنّها	زبر يرجعها وليد يمانِ
متعود لحن يعيد بكفّه	قلماً على عسب ذبلن وبان[١٠٢]

وفي ذلك أيضاً دليل على معرفة الشاعر لبيد بالكتابة والقراءة، وعلى وقوفه على قلم أهل اليمن، وعلى دراسة غلمان اليمن للكتب. وورد أيضا أنّ لبيداً كان يدوّن شعره ويهذّبه بعد كتابته، وأنّه كان يجيد الكتابة[١٠٣].

***

---

(٩٧) المرجع السابق نفسه.
(٩٨) المرجع السابق نفسه، البلاذري، أنساب ١/١٣٧، الاصابة ٤/ ٣٣٥، رقم٦٣٢.
(٩٩) فتوح البلدان، ص ٤٥٨.
(١٠٠) ابن فارس الصاحبي، ص ٢٨.
(١٠١) ابن حبيب، المحبّر، ص ٤٧٥.
(١٠٢) معناه: إنّ تلك المنازل كأنّها كتبٌ يردّدها وليدٌ يمانيّ، لأنّ الكاتب فيهم، يكتب بكفّه وهو يمسك قلماً على العسب والبان. رَ: شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق د. إحسان عبّاس، ط. الكويت، ص ١٣٨.
(١٠٣) شرح ديوان لبيد، ص ٢٨و ٣٦، الاغاني ١٥/ ١٣١.

بعد هذا السـرد من أسماء الكتـبة والقرّاء، من رجـال ونساء، وكتـبة الوحي والشـعـراء، والأدباء والخطبـاء، والمعلّمين والمتـرجمـين، وأصحـاب الدواوين والمراسلات، والقيّمين على المغانم والقائمين على الحسبة... بعد كلّ هؤلاء الذين اتّصـفوا بـ «الكلمـة»، أي بكمـال اللفظة والعاطفـة والفكر(١٠٤)، أيعقل أن يكون المجتمع في مكّة ويثرب والطائف وبعض أنحاء الجزيرة على الجهل والغباوة و«الأمّيّة»، كما يحلو لمعظم المسلمين وصفه؟!

إنّ بيـئة النـبي كانت في الواقـع بيئـةَ تجـارة وعلاقـاتٍ خـارجيّـة ومعامـلاتٍ اقتصاديّة وتـبادل ثقافي، فلا بدّ من أن تكون اللغـة، حاملةُ هذه الوقائع، على قـدرٍ من الجزالة والصـياغة والإحكام. ولم يكن القـرآنُ سوى صورة عنها. ولكن أيّة لغة هي؟وما هو قلمها؟

---

(١٠٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٧.

رابعًا – القلم العربي

أن يكون أصل القلم العربي من اليمن « فدعوى لا يمكن الأخذ بها، لأنّ أهل اليمن كانوا يكتبون بالمسند، والمسند بعيدٌ عن هذا القلم، الذي يسمّيه أهل الأخبار القلمَ العربي.. بعداً كبيراً»[١٠٥].

وأن يكون أصله من مِديَن في أعالي الحجاز، ومن البتراء في بلاد الأنباط، فهذا أمرٌ غير مستبعد كثيرًا، لأنّ الأنباط، سكّان العربيّة الصخريّة الشماليّة، كانوا يكتبون بقلم «نبطيّ» قريبٍ من القلم العربي الحالي في بعض صور حروفه. والخطّ النبطي، بدوره، أخذ من الخطّ الأرامي. وكلا النبطي والأرامي كان من مصادر القلم العربي. والثلاثة تتصف بمميزات مشتركة، مثل ترتيب الحروف، وانفصالها أو اتّصالها، ومعاني كثيرٍ من المفردات، وغير ذلك[١٠٦].

وأن يكون أصل القلم العربي من الحِيرة والأنبار في العراق فأمر أيضًا غير مستبعد لأنّ الحركة التجاريّة التي كانت قائمة بين مكّة والحجاز من جهة، وبلاد الشام من جهة ثانية، كانت آنذاك ناشطة. وأهلُ العراق وبلاد الشام كان لهم مدارس ملحقة بالكنائس والأديرة، وأنّ المبشّرين والمرسلين النصارى كانوا يجوبون المناطق للتبشير، «فلا يُستبعد أن يكون قد نَقلوا الكتابة إلى دومة الجندل والحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب»[١٠٧].

---

(١٠٥) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨/ ١٦٨.

(١٠٦) خليل يحيى نامي، مجلّة كليّة الآداب، الجامعة المصريّة، ١٩٣٥، مجلّد ٣ ، جزء١، صفحة ١٠٢، وما بعدها...

(١٠٧) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب..، ٨/ ١٦٩–١٧٠.

وممّا يرجّح ذلك أنّ أناساً من الحِيرة بقَوا يعملون ويكتبون عند زعماء مكّة، حتّى بعد ظهور الإسلام. فكان لأبي موسى الأشعري، مثلاً، كاتبٌ نصرانيّ من الحِيرة، ولمّا سأله عمر بن الخطاب عن سبب اتّخاذه كاتباً نصرانيّاً، أجابه: «له دينُه ولي كتابتُه». ولمّا أراد عمر اختيار كاتبٍ حاذقٍ حافظٍ ذُكِر له غلامٌ نصرانيّ من أهل الحيرة»(١٠٨).

وذكرتِ الأخبار أنّ أهل مكّة تعلّموا الكتابة والقراءة من أحد أهل دَومة الجندل(١٠٩)، وهو «بُشر بن عبد الملك السكوني»، أخو «أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي»، صاحب دومة الجندل، وكان نصرانيّاً، يأتي الحيرة، فيُقيم بها الحين، تعلّم الخطّ العربي من أهل الحِيرة، ثمّ أتى مكّة في بعض شأنه، فرآه سفيان بن أميّة بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، يكتب، فسألاه أن يعلِّمَهما الخطّ. فعلّمهما الهجاء، ثمّ أراهما الخطّ، فكتبا.

«ثمّ إنّ بُشراً وسفيان وأبا قيس أتَوا الطائفَ في تجارة، فصحبهم غَيلان بن سلَمة الثقفي فتعلّم الخطّ منهم، وفارقهم بُشر إلى ديار مضر، فتعلّم الخطّ منه عَمرو بن زرارة بن عدس، فسُمِّي عَمرو الكاتب. ثمّ أتى بُشرٌ الشامَ فتعلّم الخطّ منه ناسٌ هناك»(١١٠).

وفي رأي البلاذري، الذي عنه ننقل، أنّ «ثلاثةً من طيء، هم مرامر بن مرّة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدره، اجتمعوا ببقّة -وهو " موضع قريب من الحيرة "(١١١)- ووضعوا الخطّ، وقاسوا هجاء العربيّة على هجاء السريانيّة. فتعلّمه منهم قومٌ من أهل الأنبار؛ ثمّ تعلّمه أهلُ الحِيرة من أهل

---

(١٠٨) عيون الأخبار ١/ ٤٣؛ أنظر: جواد علي، ٨/ ١٧٠.

(١٠٩) منطقة شهيرة على الحدود الشمالية للجزيرة العربيّة.

(١١٠) ألبلاذري، فتوح البلدان، فصل: أمر الخط، ص ٤٥٦-٤٥٧.

(١١١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/ ٤٧٣، مادة: بقّة.

الأنبار.. ثمّ تعلّم من الثلاثة الطائيّين أيضًا رجلٌ من طابخة كلب، فعلّمه رجلاً من أهل وادي القرى؛ وهذا علّم قوماً من أهلها»[١١٢].

وكان يهود يثرب يعرفون طبعاً لغتهم العبرية. ولكنّهم تعلّموا معها اللغة العربية. وإلى ذلك يشير البلاذري بقوله: «وكان بعضُ اليهود قد علِمَ كتابَ العربيّة، وكان تعلّمَه الصبيانُ بالمدينة»[١١٣]. ومقصوده «الخطّ العربي الشمالي»، لا «خطّ المسند الجنوبي». ويظهر أنّ اليهود قد تعلّموا، هم أيضًا، الخط العربي من العراق، من الأنبار والحيرة، وبلاد الشام، أي من أجداد المناذرة والغساسنة، القبيلتَين المسيحيّتَين المتعاديتَين دينيًا وسياسيًا، أو من التجّار والمبشّرين النصارى الذين كانوا يجوبون الحجاز.

ويبدو أيضًا أنّ القلم المسند، قلمَ اليمن، لم يكن منتشراً في مكّة والمدينة، ولم نجد له بين آثارها أثراً، لا في الإسلام ولا قبل الإسلام. «وهذا يدلّ على أنّ المسند كان قد طُورِدَ في جزيرةِ العرب قبلَ الإسلام، وأنّ سلطانَه كان قد تقلّص كثيرًا خارجَ العربيّة الجنوبيّة قبل نزول الوحي على الرسول؛ وربما كان القلم الشمالي قد دخل العربيّةَ الجنوبيّة أيضًا قبل الإسلام، فأخذ يُنافس المسندَ فيها، وَلا سِيَّمَا فِي المَنَاطِقِ التِي تَرَكَّزَتِ النَّصْرَانِيَّةُ فِيهَا، وتحكّمتْ في أهلها، فأخذ النصارى يُقاومون ذلك القلم، لأنّه قلمُ الوثنية، ويُعلِّمُونَ أولادَ النصَارَى القَلَمَ العَرَبي الشَّمَالِي، لأنَّه قَلَمَهُم الذي كانوا يعلّمون به في كنائس العرب في العراق وفي دومة الجندل وبلاد الشام»[١١٤].

---

(١١٢) البلاذري، فتوح البلدان، ٤٥٦–٤٥٧.
(١١٣) المرجع السابق نفسه، ص ٤٥٩.
(١١٤) د. جواد علي، المفصّل...، ٨/ ١١٤–١١٥.

هذه الشهادات الجريئة، والحاسمة في بحثنا، ما كنّا نعتمد عليها لو لم تؤيّدها شهاداتٌ من نقوش أثريّة، ومن أقدم نصٍّ عربي إسلامي، ومن أقدم المصاحف الباقية حتّى اليوم. ثمّ من علْم مقارنة الحروف بعضها ببعض.

هذه الدلائل هي لنا أقوى حجّة، وأصدق برهان، وأصوب رأي، في معرفة أصول «العروبة» ونشأة «العربيّة». إنّها تؤكّد لنا، إذا كنّا بعدُ في حَيرةٍ، صحّةَ انتقالِ «العروبة» من الشمال إلى الجنوب، لا من الجنوب إلى الشمال. والبحث في أصل «القلم العربي» خيرُ دليلٍ على ما نقول.

***

أوّلاً – ثلاثة نقوش أثريّة

هذه النقوش بالغةُ الأهمّيّة، إذ تدلّنا على ما كان عليه القلم العربي قبل القرآن والإسلام. أي قبل القلمَين الإسلاميَّين: القلم الحجازي المتمثّل بقلمَي مكّة والمدينة، والقلم الكوفي الذي نشأ في الكوفة، في جوار الحِيرة من أعمال العراق. هذه النقوش الثلاثة هي الوحيدة الباقية لنا من التاريخ حتّى الآن.

١ . **نقش النمّارة** في أمّ الجمّال في الحرّة الشرقيّة من جبل الدروز، وُجد على قبر امرىء القَيس الأوّل بن عَمرو، ملك العرب، سنة ٣٢٨م. وهو أحد ملوك اللّخميّين المناذرة في مملكة الحيرة. وقد عثر عليه المستشرق «رينِه دوسّو» في خرائب النمّارة على حَجرٍ من (٤,٤٠×٣,٣٩ م)، وعليه خمسة أسطر منقوشة بالحرف النبطي واللّسان العربي الشمالي. (طول النقش ١,١٦م عرض ٣٣ سم). هذه صورته:

١ – تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

٢ – وملك الاسدين ونزوا وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا

٣ – يزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنية

٤ – الشعوب وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ مبلغه

٥ – عكدي. هلك سنة٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

وهذه ترجمته باللغة العربيّة الفصحى:

١ – هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلّهم الذي حاز التاج

٢ – وملك الأسدين ونزارًا وملوكَهم. وهزم مذحج بقوته. وجاء

٣ – إلى يزجي في حبج نجران مدينة شمر وأخضع معداً وأنزل بنيه

٤ – على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم. فلم يبلغ ملكٌ مبلغَه.

٥ – إلى اليوم. توفي سنة ٢٢٣ في اليوم ٧ من أيلول وفق بنوه للسعادة(١١٥).

---

(١١٥) أنظر في هذا النصّ المراجع التالية:

RENE DUSSAUD, Mission dans les régions désertiques de la Syrie moyenne, 314. CERSWELL, Early Muslim architecture, p. 400, n.1. - F.E. PEISER, Die arabische Inschrift von en-Nemâra, dans Orientalistische Litteratur - Zeitung, 1903, p. 279... - DEVREESSE, Arabes - Perses et Arabes - Romains, dans Vivre et Penser, 2° série, 1942 p. 285. - CLERMONT-GANNEAU, Rec. D'arch. orient.

٢. والنصّ الثـــاني من سنة ٥١٢ م المعـــروف بـ «**نصّ زَبَد**»، بين قنّسرين ونـــهر الفرات جنوبي شــرقي حلب. كُتب بثــلاث لغات: اليــونانيّة والسريانيّة والعربيّة. معظم ما فيه أسماء رجال سعَوا في بناء الكنيسة التي وضعت هذه الكتابة فوق عتبتها. لكنّ النصّ العربي –وهو الذي يهمّنا– يبدو متأخّرًا عن اليوناني والسرياني. وهو سطران، وعلى هذه الصورة:

١ – (بس) م الاله شرحو بر مع قيمو برمر القس

٢ – وشرحو بر سعدو وسترو وشريحو بتميمى

ومعناه:

«بسم الإله شرحو بن أمت منفو، وظبي بن امرئ القيس، وسرحو بن سعدو، وستر وشريح. أتمّوا».

يعني: أنّ هؤلاء الرجال أتمّوا بناءَ الكنيسة التي تحمل هذا النصّ.

٣. والنصّ الثـالث مـن سنة ٥٦٨م، ويســمّى «**نقش حـرّان**»، في المنطقـة الشمـاليّـة من جبل الـدروز، على حجَـرٍ فوق بـاب الكنيســة. وهو باللغتَين اليونانيّة والعربيّة. والنص العربي هو هذا:

VI, p. 308. -R. DUSSAUD, La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, p. 63-65. MONTGOMERY, Arabia and the Bible, p. 28.

جـرجي زيدان، العـرب قـبل الإســلام، ص ٢٦٩؛ د.جـواد علي، المفـصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/٢٣؛ أ. ولفنسون، تاريخ اللغات الساميّة، ص ١٨٩–١٩٠.

أنا شرحـيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بـعد مفـسد خيـبر بعم.

ومعناه: «أنا شرحيـل بن ظالم بنيت كنيسة سنة ٤٦٣ (الموافق ٥٦٨ م) بعد خراب خيبر بعام».

ومع تأثّر هذا النصّ بالنبطيـة فإنّه، كما يبـدو من معناه، كُتب بلهـجة عربيّة شماليّة قريبة من لهجة القرآن[١١٦].

ثانياً – نقش سنة ٣١ هجريّة

وثمّة نصٌّ هو أقدم الآثار الإسلاميّة التي كُشفت حتّى آلان. فيه كتابة نقـشت على قبـر رجل يسمّـى عبـد الله بن خيـر (أو جبـر) الحجـري (او الحجـاري)، وتشتـمل على ٨ أسطر. اكـتشف في مـصر، ووجد بين جـملة أحجار في دار الآثار العـربيّة، ونشر في جريدة الأهرام في ٩ نـيسان سنة ١٩٢٩. بينه وبين قلمِ نقشِ حـرّان، الذي رأيناه، شبَهٌ كبـير جدًا. بالإضـافة إلى تأثيـره الإسلامي القـرآني. وهو من سنة ٣١ هجـرية، أي سنة ٦٥٤ م تقريبًا. وقد يكون لجنديٍّ من جنود عَـمرو بن العاص. وهذه صورته ونصّه

(١١٦) أنظر هذه النقوش: ولفنسون، تاريخ اللغات الساميّة، ص ١٩٠–١٩٤؛ جواد علي، المفصّل... ٨/١٧٦–١٧٨.

ونقله بقلمنا اليوم:

① بسم الله الرحمر الرحىم هدا العىر
② لعىد الله ىر حىر الحجرى اللهم اعفر له
③ وادحله فى رحمه مىك واىىا معه
④ اسىعفر له ادا فرا هدا الكىب
⑤ وقل امىر وكىب هدا ا
⑥ لكىب فى جمدى الا
⑦ حر مر سىه احدى و
⑧ ثلثىر

(١) بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا القبر
(٢) لعبد اللّه بن خير (جبر) الحجري (الحجازي) اغفر له
(٣) وادخله في رحمة منك وآتنا معه
(٤) استغفر له إذا قرأ هذا الكتاب
(٥) وقل آمين وكتب هذا ا
(٦) لكتب (لكتاب) في جمدى (جمادي) الا
(٧) خر (آخرة) من سنت (سنة) احدى و
(٨) ثلثين.

ينتـهي النصُّ هكذا عند ثلاثين، في أوّل السطـر الثامن. ويبـدو أن لا شيء بعده، لأنّ الحجر سالم لـم يكسر، والمعنى كامل، والسطر بعد «ثلثين» فارغ لم يمح منه شيء. وبهذا يـبدو بالغ الأهمّيّة لقدمـه، ولمعرفة القلم الذي كتب به[١١٧].

---

(١١٧) أنظر هذا النص في أ. ولفنسون، تاريخ اللغات الساميّة، ص ٢٠٢–٢٠٣.

ثالثاً – أقدم المصاحف القرآنية:

إنّ أقدم المخطوطات القرآنيّة الموجودة لدينا حتى الآن لا تقدّم لنا تحديدًا زمنياً أو مكانياً واضحاً. لكنّ المقابلة بين بعضها والدراسات الأثريّة الكيماويّة قد تفيدنا بعض الشيء في أصل القلم العربي ونشأته.

١. فمخطوطة رقم ٥٠٣٨٥ من مكتبة اسطنبول سراي هي «حجازيّة»، وبالتحديد «مدنيّة» في معظمها رغم أنّ القليل منها غير مدني. ولا نستطيع مقابلتها مع مصحف عثمان بن عفّان، لأنّ نسخة واحدة من أيّام عثمان لا نملك. ثمّ إنّ عدم تقسيمها إلى آيات مرقّمة لا يعني أيضًا قدمها. ومع هذا، فهي، بحسب وصف ابن النديم للخطوط، تبدو «مدنية»، وشبيهة بمخطوطات المكتبة الوطنيّة بباريس.

٢. ومخطوطات المكتبة الوطنية بباريس، من الرقم ٣٢٦ حتى ٣٣٦ هي أيضًا حجازيّة، حيث «الألف» ملتوية نحو اليمين، بحسب وصف ابن النديم[١١٨] الذي يقول: « في المكّي والمدني، الألف ملتوية نحو اليمين». ثمّ إنّ المقارنة بينها وبين نقشَي النمّارة وحوران تفيدنا قدمها، ولكن ليس من أيّام النبي أو عثمان أو حتّى عبد الملك الخليفة الأموي الخامس.

٣. لكنّ مخطوط رقم ٣٣٧ يبدو، لإتقان خطّه وجماله، غير قديم. فهو، كما يظهر، «خطّ كوفي».

٤. مخطوط المتحف البريطاني بلندن، رقم ٢١٦٥، هو أيضًا «حجازي» قديم، أقدم من خطوط الكوفة والبصرة العراقيّتين.

٥. وأخيرًا مخطوط المكتبة الملكيّة بالقاهرة، رقم ٣٨٧، لا يبدو بقدم المخطوطات السابقة. فهو يشير إلى أنّه «وقفيّة»، كما في ورقة ١٨، لجامع

---

(١١٨) ابن النديم، الفهرست، ص ٦.

عـمـر في أورشليم. وقـد دُوِّن على ورقـة منه وبوضــوح كلمـات «مـئـة» و«ستين» (و...) وربمًا من سنة (١٦٨هـ/ ٧٨٤ م). فهـو إذاً ليس من عـهد الخليفة الأمـوي عبد الملك (٦٥ هـ/ ٦٨٥ م) كما يقـول كازانوفا[١١٩]. ثمّ إنّ خطّه كوفي واضح مـتقن جميل. وقـد يكون، لوضوح تاريخه، أسـاساً لكلّ معرفة عن أيّة مـخطوط آخر. فبالنسبة إليـه نعرف قدم سائر المخطوطات أم حداثتـها، ونعرف خطّها أحـجازيٌّ هو أم عراقيّ. ومع هذا ليس هو الوحـيد الباقي من ذلك الوقت كما ليس هو أقدمها.

ومع هذا، وممّا يؤسف له حـقًا، ليـس لدينا «اليوم كـتابة واحـدة من الكتابات المدوّنة في أيّام الرسول. ولا نملك أيَّ نسـخة من نسخ القرآن أو من صحفـه المدوّنة في أيّامه. فلا نملك اليـوم نسـخة حفصـة للقرآن الكريم، ولا نسخة عـثمان بن عفّان، ولا النسـخ التي دُوِّنت بأمره لتـوزَّع على الأمصـار، ولا أيّة نسخ أخـرى من النسخ التي دَوَّنهـا الصـحابة لأنفسـهم، ولا نملك النسخ الأصليّـة للمراسلات التي كـان يأمر الرسـول بتدوينهـا لتُرسل إلى الملوك أو سادات القبائل والأمراء»[١٢٠].

حطر

نموذج من مخطوط باريس رقم ٣٢٦ سطر ١ من صفحة ١ .

خَطِيبِنَ

نموذج من مخطوط القاهرة رقم ٣٨٧ مضاف اليه الحركات والنقط .

من رقم ٣٢٦/س ٦

من رقم ٣٢٧/ص ٦ س ٧

نموذج آخر من مخطوط القاهرة

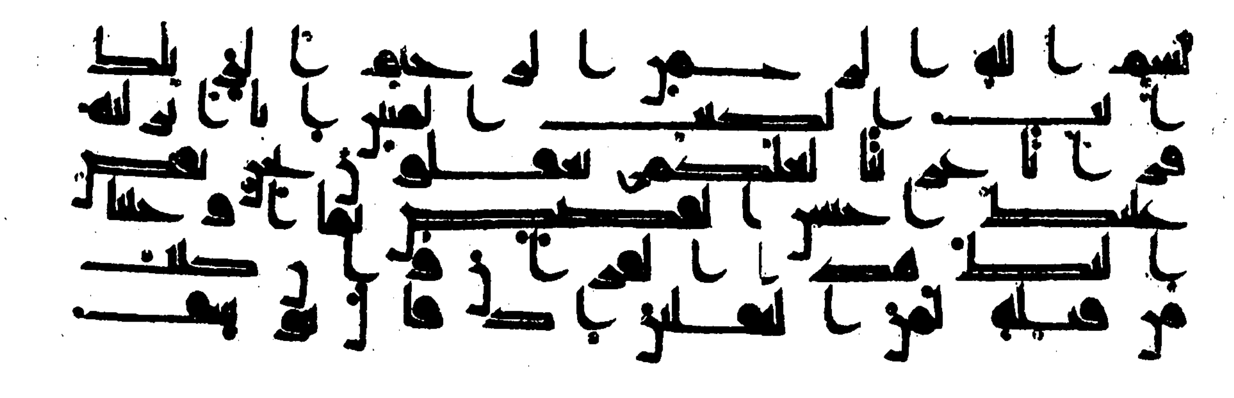
---

(١١٩) P. CASANOVA, Mohammed et la Fin du monde, Paris, 1911-1913, 2 F., p. 126

(١٢٠) د. جواد علي، المفصّل...، ٨/ ١٨٣.

مخطوط باريس ٣٢٦ ورقة ١ أ من أوائل القرن الثاني الهجري . كتابة حجازية معجمة

مخطوط باريس ٣٣٧ ورقة ١ — كتابة حجازية متطورة من القرن الهجري الثاني — مشكّل

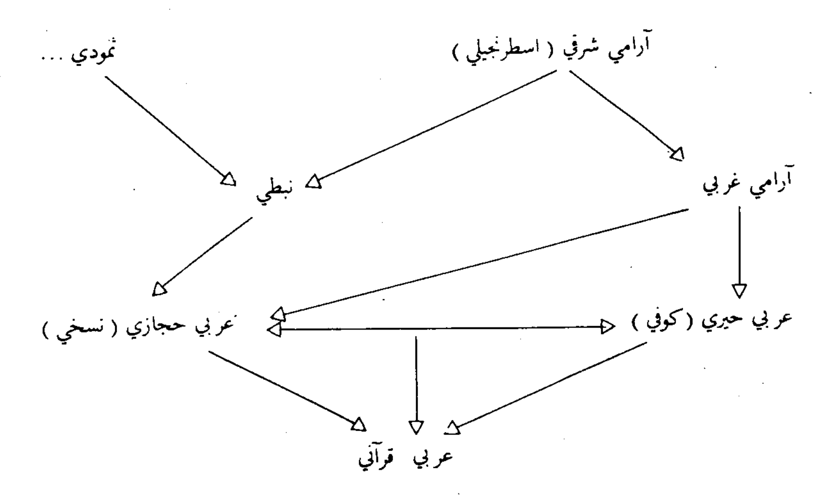


مخطوط باريس ٣٣٧ ورقة ٦٧ أ — كتابة كوفية — معجم

نماذج من خطوط المخطوطات القرآنية

رابعًا – الخطوط المقارنة

مَن ينظر إلى لائحة خطوط بعض اللغات الساميّة القديمة، ويقارن بينها، يستنتج ان الخطّ العربي، بالاضافة إلى الشهادات السابقة التي جاءتنا من نقوش أثرية ومخطوطات قديمة، يتحدّر من عدة مصادر. ونتصوّر تحدّره على الشكل التالي:



يبدو من ذلك أنّ القلم القرآني يتحدّر من النسْخي المتميّز بتدوير حروفه. ونجده في المخطوطات الحجازيّة للقرآن. وهذا بدوره يتحدّر من النبطي الذي له مصدران: الأوّل ثمودي مع ما يقاربه من الدِّيدَاني واللِّحياني والصَّفَوي، وقد وُجدتْ له نقوشٌ في مملكة الأنباط، في حوران وبصرى؛ والثاني المسند قلم اللغات الجنوبية كالمَعينيّة والسبأيّة وغيرهما.

ويتحدّر أيضًا من القلم المسمّى «حِيري»، نسبة إلى الحيرة؛ وقد دُعي فيما بعد بالكوفي، نسبةً إلى الكوفة التي بُنيت على أنقاض الحيرة. ويتميّز هذا الخط بزواياه المربّعة، وبحروفه المستقيمة. وسمّي لأجل ذلك، بـ «الجزم». وهذا تحدّر، بدوره، من الآرامي الغربي والشّرقي اللّذين تحدّرا، بدورهما، من الكنعاني.

العربية	اللاتينية	اليونانية	الفينيقية	المسند	النبطي	النمارة	زبد وحران	سنة ٣١ هـ
ا	A	A						
ب	B	B						
ج	CG	Γ						
د	D	Δ						
هـ	E	E						
و	FV	Y						
ز	...	I						
ح	H	B						
ط	...	⊗						
ي	I	ς						
ك	...	K						
ل	L	L Λ						
م	M	M						
ن	N	N						
...	X	Ξ						
ع	O	o						
ف	P	Γ						
ص	...	...						
ق	Q	ϙ						
ر	R	P						
س ش	S	Σ						
ت	T	T						

إلاّ أنّ الأرامي كان مصدرًا أهمّ من سواه. وهو الذي، في المخطوطات العربيّة القديمة، كان في نشأة القلم العربي مباشرةً. وقد لا يكون، في وقتٍ متأخر، أي أثر يذكر للقلم النبطي على القلم العربي. لذلك ينكر بعض علماء اللغات أن تكون أيّة علاقة بين النبطي والقلم العربي. إنّما يعتبرون الأراميّة في أساس كلّ شيءٍ في القلم العربي، ويستدلّون على ذلك بالأمور التالية:

١. إنّ ترتيب الأبجديّة هو نفسه في الأراميّة والعربيّة، أي «أبجد، هوّز، حطّي، كلمن...» إلخ. عددها ٢٢ حرفاً. أمّا ما يسمّى بـ «الروادف» في العربية، أي الحروف الزائدة، فهي التي حُشرتْ بعد الحروف المشابهة لها. مثلاً: «ت» و«ث» بعد «ب» ؛ و«ح» و«خ» بعد «ج»؛ و«ذ» بعد «د»؛ و«ز» بعد «ر»؛ و«ش» بعد «س»؛ و«ض» بعد «ص»؛ و«ظ» بعد «ط»؛ و«غ» بعد «ع»؛ و«ق» بعد «ف»؛ و«ل» بعد «ك»... وقام بهذه الفذلكة «نصر بن عاصم» و«يحيى بن يعمر العدواني»، وذلك تسهيلاً لتصويرها وحفظها على الدارسين. وقصدهما تعليمي بحت؛ علماً بأنّ اسم «أبجديّة» لا يزال أراميًا لا عربيًا.

٢. ثمّ إنّ حساب الحروف هو كما في ترتيبها الأرامي لا العربي؛ وهو نفسه في مختلف اللغات الساميّة.

٣. إنّ فصل الحروف واتّصالها في كتابة الكلمة، هي نفسها في الأراميّة والعربيّة. فـ «أ» و«د» و«ذ» و«ر» و«ز» و«و»، تتّصل بما قبلَها لا بما بعدها؛ وسائر الحروف تتّصل بما قبلها وبما بعدها على السواء.

٤. إنّ قاعدة حذف «أ» في وسط الكلمة هي نفسها في اللّغتين الأراميّة والعربيّة. واستمرّت هذه القاعدة معمولاً بها حتّى في القرآن، مثل: «الرحمن»، «مسكين»، «يتمى»، «مسجد»، «كتب».. بدل: «الرحمان»، «مساكين»، «يتامى»، «مساجد»، «كتاب».. إلخ.

٥. وكذلك حذف «أ» في صيغتَي: فاعل وتفاعل، كما في : «برك»، و«تبرك»، بدل: «بارك»، و«تبارك»... وغيرهما.

٦. ثمّ حذف «أ» من ضمير المتكلّم «نا»، كما في «أرسلنك»، و«اصطفينه»، و«بشّرنه»، بدل: «أرسلناك»، و«اصطفيناه»، و«بشّرناه»..

٧. ثمّ حذف «أ» في جمع المؤنّث السالم، كما في: «صدقت»، و«طيّبت»، بدل: «صدقات» و «طيّبات»..

٨. وحذف «أ» في الجمع المذكّر السالم، كما في: «الظلمين»، و«الكفرين»، بدل: «الظالمين»، و«الكافرين»..

٩. وحذف «ي» في مثل: «ربِ»، و«أبتِ»، و«تمكرونِ»، و«تعلّمونِ»، بدل: «ربي»، و«أبتي»، و«تنكروني»، و«تعلّموني»...

١٠. ثمّ في صيغ كلمات بقيت هي هي في المصاحف، وهي تدل على أصلها الأرامي، مثل: «الحيوة»، و«الصلوة»، و«الزكوة»، بدل: «الحياة»، و«الصلاة»، و«الزكاة»..

١١. ثمّ ورود كلمات كثيرة في القرآن تدلّ على أصلها الأرامي، مثل: «سِفْر»، و«يَم»، و«بعير»، و«بِيَع»، و«جهنم»، و«حطّة»، و«حواريّون»، و«ملكوت»، و«رقيم»، و«مرقوم»، و«ربانيّون»، و«سِينِين»، و«صراط»، و«شهر»، و«عدن»، و«فردوس»، و«قسطاس»، و«قراطيس»، و«قناطر»، و«كنز»، و«قيّوم»، و«حوب»...

١٢. ثمّ كتابة الحروف في آخر الكلمة هي غيرها في أوّل الكلمة أو في وسطها. وهي نفسها في الأراميّة والعربيّة.

كلّ هذه المميّزات والخصائص تدلّ على علاقةٍ مباشرةٍ، وقرابةٍ قريبة جدًا بين القلم العربيّ والقلم الأراميّ. كما تدّل، أيضاً، على أسبقيّة القلم الأراميّ على القلم العربي. ويتحصّل من ذلك أيضًا أنّ كثيرًا من المعاني

والكلمات المعربّة والاسماء الأراميّة والخصائص اللغوية وكيفيّة النطق، وعدة مفردات... دخلت اللغة العربيّة من مصدرٍ أرامي، أو من لغات أخرى ساميّة مرّت عبر الأراميّة إلى اللغة العربيّة. وليس مَن ينكر وجود ذلك في القرآن نفسه الذي جمع، بحسب العلماء المسلمين أنفسِهم، مئات الألفاظ الأعجميّة..

***

وهكذا نلاحظ، من خلال ما تقدّم:

١. أنّ القلم العربي مرتبطٌ ارتباطًا مباشرًا بالقلم الأرامي؛

٢. وأنّ اللغة العربيّة هي من منطقة غربي الفرات، جاءت مكّة والحجاز من الشمال لا من الجنوب؛

٣. وأنّ اسمها، في أساسه وأصله، يعني «الغربية»؛

٤. وأنّ أوّل المتكلّمين بها كانوا نصارى؛

٥. وأنّ النقوش الثلاثة الباقية لنا حتى اليوم كتبتْ في موضوع بناء كنائس، وعلى خرائب كنائس، وفي المنطقة الشماليّة للجزيرة العربيّة حيث نمتِ المسيحيّة وازدهرتْ...

لكأنّ ما بقي لنا من أثرٍ على اللغة المسمّاة «عربيّة» يحتمّ علينا الإقرار بـ «شماليّتها» وبـ «بمسيحيّتها»(١٢١). وهو ما ينسف النظريّات المألوفة نسفاً.

---

(١٢١) يقال إنّه اكتشف في «أمّ الجمّال» خمس عشرة كنيسة، وفي «جرَش»ثماني عشرة، وعديد في بصرى، وجبل حوران، وفي مملكة الأنباط، وعند المناذرة والغساسنة، مما يشير إلى قدمهم في المسيحيّة. أنظر: R. DUSSAUD, La pénétration des Arabes en Syrie, p. 18..

وقد لاحظ ذلك بعضُ المسلمين والمستشرقين، وأقرّوا إقرارًا صريحًا بانتساب العربيّة إلى مسيحيّي الحيرة والأنبار. إلى مثل هذه النتيجة أشار محمد عزّة دروزة، في كلامه على لغة القرآن. قال: «إنّ البيئة الحجازيّة.. وخاصّة مكّة والمدينة، كانت بيئةً تجاريّة، متّصلة بالبلاد المجاورة التي كانت تتمتّع بحظٍّ غيرِ يسير من الحضارة والثقافة. وكان فيها جاليات كتابيّة نصرانيّة ويهوديّة نازحة من تلك البلاد، وكانت تتداول الكتبَ الدينيّة قراءةً وكتابة. فلا يُعقل أن يظلّ العربُ، أهلُ هذه البيئة، غافلين عن اقتباسِ وسيلةٍ من أشدّ الوسائل ضرورةً إلى الأشغال التجاريّة. ومن أعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منها من البلاد المجاورة الشيء الكثير»(١٢٢).

وإلى مثل ذلك أيضًا أشار الدكتور جواد علي، بوضوحٍ أكبر. قال: «إنّ الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي، الذي أُخذ منه قلمُ مكّة، هم من العرب النصارى في الغالب. فأهل الأنبار، والحيرة، وعين الشمس، ودومة الجندل، وبلاد الشام، كانوا من النصارى.. وربّما نشروها في البحرين، أي في سواحل الخليج، حيث كانت هنالك جالياتٌ نصرانيّة، وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب التي كانت النصرانيّة قد وجدتْ سبيلاً لها بينها»(١٢٣).

وفي رأي المستشرق «ويل» Weil إنّ نظريّة اشتقاقِ الخطوط تشير «بكل جلاء إلى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرّع بدوره عن الخط الأرامي»(١٢٤).

كما «يعتقد العلماءالمستشرقون –برأي ولفنسون– أنّه في ذلك الزمن –أي زمن نصّ النمّارة سنة ٣٢٨م– لم تكن الكتابة العربيّة قد وُجدت بعد،

---

(١٢٢) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ – ٧٦.

(١٢٣) جواد علي، المفصّل...، ٨/١٧٨ – ١٧٩.

(١٢٤) WEIl, E. I., 1 /68.

إذ لم يُعثر إلى الآن على كتاباتٍ عـربيّة ترجع إلى ذلك العهد»[١٢٥]. لذلك نرى نصَّ النمّـارة يعرج بين الخط النبطـي المتأخـر ونقشِ زبد سنة ٥١٢. بل هو يأخـذ من الإثنين معـاً. ومن ثمّ راح الخطُّ العـربي يستـقلُّ رويدًا رويدًا عن النبطي، ويكوّن لنفـسه شخـصيّةً برزتْ بوضـوحٍ وسرعـةٍ في نقش حرّان ٥٦٨[١٢٦].

لهذا نستطيع التأكيد بأنّ الخـطَّ العربي (القرآني) نشأ ونمى بين عهد النمّارة وعهد نقشِ حرّان، أي بين القرن الرابع والخامس بعد الميلاد. أي عند تكوين قبيلة «قريش» على يد «قُصَيّ»، الجدّ الرابع للرسول. وبهذا يكون لنا تأكيدٌ آخر بأنّ التجارة مع بلاد الشـام كانتِ السببَ الفاعلَ في نقل حضارة «غربي الفرات» إلى مكّة والحجاز.

ومن ذلك أيضـاً إنّ ما ذكـره المؤرِّخـون المسلمون من «أنّ الحـروف العربيّـة لم تُختـرع إلاّ قُبَـيل البعـثة النبويـة.. هو قول جزاف لا يثـبت على التمحيص والتدبّر»[١٢٧]. وهكذا أيضًا «فلا يشكُّ بـاحثٌ في الأصل المسيحي للخطِّ العربي»[١٢٨].

---

(١٢٥) أ. ولفنسون، تاريخ اللغات الساميّة، ص ١٠٢.

(١٢٦) من هنا جاء رفض "أوري" لاشتقاق الخط العربي من القلم النبطي في قوله هذا:
"C'est au Proche-Orient, berceau de l'écriture arabe, et plus précisément en Syrie (Namara, Zebed, Harrân. Umm-Djumal), q'uon été découverte les plus anciennes inscriptions dites proto-arabes, qui, en dernière analyse, dériveraient des caractères syriaques et non des cractères nabatéens, comme on l'avait cru auparavant..." S. Ory, article Kitaba, E.I., t. V, p. 213 et s.
Localités situées en pays syriaque et donc chrétien jacobite, avant l'Islam (Ed. RABBATH, L'Orient Chértien à la veille de L'Islam, v.I., p. 229).

(١٢٧) محمّد عزة دروزة، عصر النبي ،ص ٤٤٨ – ٤٤٩، حيث يذكر جملة مؤرّخين عرب جهلوا الحقيقة، لأجل رفعة شأن الإسلام.

(١٢٨) سمير خليل، مجلّة Islamochristiana، عدد ٨ سنة ١٩٨٢؛ ص ٥.

أنظر أيضـاً: جرجي زيدان، تاريخ التـمدّن الإسـلامي، ٣/٦٥٣: في الخط العربي؛ حفني بك ناصف، تاريخ الادب، أو حـياة اللغة العربيّة، الكـتاب الأول، القاهرة، سنة

أمّا أصـحاب هذا القلم وهذه اللغة المسـماة «عربيّـة» فهم المناذرة في الحيـرة. واسمهم من أحد زعـمائهم المؤسّسين «المنذر». سكَنوا في الحـيرة، وهي «على ثلاثـة أمـيـال من الكوفـة... كـانت مـسكن ملـوك العـرب في الجاهليّة»[١٢٩]. وتعني «المخيّم» والمعسكر، من «حِيْرْتَا» الأراميّة. وتقابل كلمة «حاصير» العبرانيّة، وكلمة «حضر» الإسلاميّة، أي الحاضرة والحامية. وقد ورد اسـمهـا في المجمع الـكنسي المنعقـد سنة ٤١٠م، وكـان عليهـا إذ ذاك أسقفٌ اسمه هوشع[١٣٠].

من قبـائل المناذرة: آل تنّوخ[١٣١]، وآل عبـاد، وهـم من الحضـر الذين سكنوا بيوتاً من حجـر. وكانوا نصارى من بطونٍ شتّى اجتـمعوا تحتَ اسم «المناذرة». وكانوا على المذهب النسطوري الذي شجّعه الفرس نكايةً بالروم، وكـان الروم يشجّـعـون الغسـاسنة على اعـتناق المذهب اليـعقـوبي نكايةً بالفرس. وهكذا اختلف المسيحيّون كرمى لعيون الآخرين.

وحكمتِ الحيرةُ الأنبارَ، الواقعةَ على الفـرات غربي بغداد، التي «فيها

١٩٥٨؛ ط ٢، ص ٦١ وما بعدها؛ الـسجستاني، المصـاحف، ص ٤. أنظر جواد علي، ألمفصّل، ٨/١٣٧ و١٧١ و١٧٢؛ وصـلاح الدين المنجّـد، دراسـات في تاريخ الخط العربي، منذ بدايته الى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٣، ص ١٢- ٢٢؛ ولويس شيـخو، النصـرانية وآدابهـا بين عرب الجـاهلية، القسـم الثاني، الفصل الأول، مجلة المشرق ١٩١٣ عدد ١٦، ص ٦٧-٧٢؛ ثم في طبعتـه في كتاب، بيروت ١٩٢٣، ص ١٥٢-١٥٧ و٤٦١-٤٦٢.

C. RABIN, Art., Arabiyya, in Encyclopédie de l'Islam, 2ème éd., I (Leyde et Paris 1960), pp. 579 a 622b, ici p. 582b "Le caractère chrétien des inscriptions datées laisse à penser que l'alphabet arabe fut inventé par les missionnaires chrétiens, comme tant d'alphabets orientaux. Abbout localise cette invention avec beaucoup de vraisemblance, à Hira ou à Anbâr". Et plus loin: "Welhausen suggère, avec toute apparence de raison, que l'arabe classique fut répandu par les Chrétiens de Hira, La tradition musulmane nomme, parmi les premières personnes qui écrivirent en arabe, Zayd b. Hamad (vers 500 de J.C.) et son fils le poète, Adi, tous deux poètes de Hira".

(١٢٩) معجم البلدان، ٢/٣٢٨، مادة: «حيرة».

جمع بختنصر الأسرى من اليهود»؛ وفيها كُتب التلمود البابلي؛ و«يُنسَب إليها خلق كثير من أهل العلم والكتابة وغيرهم»[١٣٢]. وكانت الأنبار حدًّا فاصلاً بين الغساسنة والمناذرة، وكان الاختلافُ عليها مستمرًا إلى أن جاء هرمز الرابع الفارسي (ت ٥٩١م)، وحدّد هويّتها التنوخيّة.

اشتهر من ملوك المناذرة «أمرؤ القيس بن عَمرو» الذي لم يبلغ ملِكٌ مبلغَه، لاتساع ملكه، وشدّة نفوذه، حتّى وصل إلى نجران وشمّر، وأخضع القبائل العربيّة الساكنة في الصحارى. وقد ورد ذلك في نصّ النمّارة الذي أثبتناه، لأهميته، في رسمه وترجمته. ويبدو من هذا النصّ أنّ امرأ القيس حكم مذحج وربيعة ومضر وسائر قبائل بادية العراق والجزيرة والحجاز[١٣٣]. ويشير أيضًا إلى أنّ حرباً وقعتْ بين الحيرة واليمن، ممّا يدلّ على اتّساع نفوذ المناذرة آنذاك أي في حدود سنة ٣٢٨م.

واشتهر من ملوك الحيرة أيضًا «النعمان» الذي تنصّر على يد سمعان العامودي الذي كان يبشّر في الحيرة[١٣٤]. انتهى ملكُه سنة ٤٣٤م. واستلم عنه إبنُه «المنذر». وساعد المنذرُ الفرسَ على الروم فانهزم. وكانتْ نهايته سنة ٤٧٤. وخلفه ابنه «الأسود»، واشتهر بمحاربته الغساسنة. وانتهى سنة ٤٩٤. وأخذ عنه أخوه «المنذر»، ثمّ ابن أخيه «النعمان» بن الأسود، ثمّ «أبو يعفر»، ثمّ «امرؤ القيس» بن النعمان.

ثمّ «المنذر بن ماء السماء» الذي تزوّج هنداً بنتَ آكل المرار من ملوك آل كنده، وظلّ ملكُه حتّى سنة ٥٠٨. وفي أيّامه حدثت حادثة شهداء نجران على يد ذي نوّاس اليهودي ملكِ اليمن. وانتهى حكمه سنة ٥٥٤.

---

(١٣٠) إبن العبري، مختصر الدول، ص ٩٤ و١٠١.

(١٣١) من «تنّخ»، أي: سكن الخيام.

(١٣٢) أنظر: معجم البلدان، ١/ ٢٥٧ و ٢٥٨، مادة: «أنبار»

(١٣٣) تاريخ الطبري ٢/ ٦٤، ابن خلدون ١/ ١٧١ عن السهيلي وابن الكلبي.

وتولّى بعده ابنُه عَمرو بن هند المعروف بـ "مضرط الحجارة"، والذي هجاه طَرَفَة بن العبد والمتلمّس والسويد بن خذاق والمنخل اليشكري. وكان من معاصريه الشاعر "امرؤ القيس". وعنه أخذ أخوه سنة ٥٧٠. وتولّى النعمان بن المنذر الملقب بـ «أبي قابوس" سنة ٥٨٠ حتّى ٦٠٢، وهو صاحب الشاعر النابغة الذبياني. و بعده تولّى «المنذر الغرور" ابنُ أبي قابوس، وفي أيّامه تمكّن خالد بن الوليد من احتلال الحِيرة سنة ٦٣٤. وكانت بذلك نهايةُ المناذرة واندثار الحيرة، المدينة العامرة التي نُقلت حجارتها لبناء الكوفة.

وكان للمناذرة في اللغة العربيّة، لغةِ القرآن، أثرٌ بارزٌ جدّا. فهم الذين، لعلاقتهم التجاريّة الواسعة مع قريش، أعطَوا قلمهم لمكّة. كما كان للغساسنة، بعد دخول الإسلام إلى بلاد الشام، أثرٌ عظيمٌ في ترجمة كتب العلم والفلسفة من اليونانيّة إلى السريانيّة، ومن السريانيّة إلى العربيّة.

فبواسطة هؤلاء المسيحيّين، ألمناذرة والغساسنة، تسنّى "لعرب" الجزيرة ولمسلمي مكّة والمدينة أن يكونوا على صلة، لا ببلاد الشام وحسب، بل بالفرس والروم واليونان وبالعالم المتحضّر آنذاك؛ بل وبالحضارة والثقافة العالميّتَين.

خامسًا – قريشيّة أم عربيّة؟

بقي علينا أن نسأل: هل نزل القرآن بلغة قريش، أم بلغة العرب؟ وهل من خلافٍ بين لغة قريش ولغة العرب؟ أم أنّهما لغة واحدة في لهجاتٍ عدّة؟

بعضُ الباحثين يرجِّح لغةَ قريش ولهجتَها على سائر اللغات واللّهجات. وذلك لفضل قريشٍ على جميع العرب. ويعتمدون على أحاديث نبويّة وروايات شعبيّة للدلالة على قولهم هذا. فقد نُقل عن عمر بن الخطّاب قوله: «لا يُمْلِين في مصاحفنا هذه إلاّ غلمان قريش»[١٣٥]، وروي عن عثمان قوله للَجْنةِ جمْعِ القرآن: «إذا اختلفتم أنتم وزَيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسانِ قريش. فإنّما أُنزل بلسانهم. ففعلوا»[١٣٦]. ورُوي عن زيد بن ثابت قوله: «أكتبوه بلغة قريش، فإنّ القرآن نزل بلغتهم»[١٣٧]. وأنكر ابن قتَيبة أن يكون القرآن نزل بلغةٍ غيرِ لغة قريش. قال: «لم ينزل القرآن إلاّ بلغة قريش»[١٣٨]. واعتدلَ البخاري بقوله: «إنّ القرآن نزل بلسانِ قريشٍ والعرب». ولكنّه اعتبر «أنّ قريشًا هم خلاصةُ العرب»[١٣٩].

وحجّة الذين يصرّون على أنّ لغة القرآن هي لغة قريش، أنّ اللّه اختار قريشًا «من جميع العرب، واختارَ منهم محمّداً (ص)، فجعل قريشًا قطّانَ حرمه، وولاةَ بيتِه، فكانتْ وفودُ العرب من حجّاجها يَفدون إلى مكّة للحجّ،

---

(١٣٥) إبن كثير، فضائل القرآن، ٢٠؛ ألصاحبي، ٥٧؛ ألسجستاني، ألمصاحف، ص ١١

(١٣٦) ابن كثير، فضائل القرآن، ص ٣١؛ السجستاني، المصاحف، ص ٢٠.

(١٣٧) ابن كثير، فضائل القرآن، ص ٣٥؛ النيسابوري، غرائب القرآن..، ١/ ٢٤.

(١٣٨) ألسيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١/ ١٣٥.

(١٣٩) إبن كثير، فضائل القرآن، ١٩.

ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش، مع فصاحتها وحسن لغاتها، ورقّة ألسنتها، إذا أتتْهُمُ الوفودُ من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصحَ العرب»[١٤٠].

وفي فصاحة قريش يقول الفارابي أيضًا: «كانتْ قريشٌ أجودَ العرب انتقاءاً للأفصحِ من الألفاظ، وأسهلِها على اللسان عند النطق، وأحسنِها مسموعاً، وأبينها إبانة، عمّا في النفس»[١٤١].

ويقول ابن خلدون: «كانت لغة قريش أفصح اللغات العربيّة وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم، حتّى إنّ سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربيّة»[١٤٢].

وروي عن معاوية جوابُه على سؤال: «من أفصح الناس؟ -قال: قريش»[١٤٣].

وروي عن ثعلب قوله: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجّع قيس، وعجرفية ضبّة، وتلتلة بهراء»[١٤٤].

وروي عن أبي بكر الصدِّيق قوله: «قريش هم أوسط العرب في العرب داراً، وأحسنه جواراً، وأعربه ألسنة»[١٤٥].

---

(١٤٠) السيوطي، المزهر ١/ ٢٠٩، الفصل الثاني: في معرفة الفصيح من العرب.
(١٤١) الفارابي، في اول كتابه المسمّي بالالفاظ والحروف، أنظر المزهر ١/ ٢١١.
(١٤٢) المقدمة لابن خلدون، ص ٤٠٩، فصل ٣٢ من الباب السادس.
(١٤٣) أنظر الجاحظ في البيان والتبيين، ٣/ ٢١٣.
(١٤٤) مجالس ثعلب ٨١، المزهر ١/ ٢١١ وغيرهما.
(١٤٥) لسان العرب ١/ ٥٨٨، لفظة: عرب. تاج العروس ١/ ٣٧٤، لفظة: عرب.

وروي عن قتادة أنّه قال: «كانت قريش تجتبي، أي تختار أفضل لغات العرب، حتى صار أفضل لغاتها لغتها، نزل القرآن بها»[١٤٦].

وزعم أناس أنّ العرب «كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردّوه منها كان مردوداً»[١٤٧].

وقال عمرو بن العلاء: «كانت العرب تجتمع في كلّ عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحيّ من قريش. وكان العرب يعلّقون أشعارهم بأركان الكعبة»[١٤٨].

وحديثًا يرى العرب ما رآه أسلافهم الأقدمون في أنّ أصل لغة القرآن هي لغة قريش، لأنّها أفصح لغات العرب، وأصلُها ومصدرُها، والحكَم عليها:

فطه حسين نفسه، الذي شكّ في كلّ شيء جاهلي، يؤكد بقوله: «أمّا أنّ هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبيّ وأصحابه لغة قريش، فما نرى أنّه يحتمل شكًا أو جدَلاً، فقد أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام، واتّفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدّثيهم ومفسّريهم على أنّ القرآن نزل بلغة قريش».

ثمّ يعطي البراهين فيقول: «نحن مضطرّون أمام هذا الإجماع من جهة، وأمام قرشيّة النبيّ من جهة أخرى، وأمام نزول القرآن في قريش من جهة ثالثة، وأمام فهم قريش للفظ القرآن من غير مشقّة ولا عنف من جهة رابعة، وأمام اتّفاق القرآن في اللغة واللهجة، مع ما صحّ من حديث النبي القرشي ومن الرواية من أصحابه القرشيّين من جهة خامسة، إلى أنْ نسلّم بأنّ لغة القرآن إنّما هي لغة قريش»[١٤٩].

---

(١٤٦) المراجع السابقة.

(١٤٧) كتاب الاغاني، ١٢/ ١١٢.

(١٤٨) خزانة الأدب، ١/ ٨٧، مقدمة ابن خلدون ١/ ٥٠٩، أنظر : ١١٥.

(١٤٩) طه حسين، في الادب الجاهلي، ص ١٠٥-١٠٦.

وقرّر د.مصطفى صادق الرافعي بأنّ العـربيّة «بدأتْ بإسماعيل. فلمّا خـرج أولادُه من ديارهم، وانشعـبتْ قـبائلـهم، تنوّعتْ لهجـاتهم، وتبـاينتْ ألسنتهـم، حتّى ظهرتْ قـريش من بينهم، فأخـذتْ وأعطتْ وهذّبتِ الألسنة، واستخلصتْ منها أعذَبَها وأسـماها، ثمّ لا تزال تهذّب في اللغة وتشذّب حتّى بلغت بها الكمال عند ظهور الإسلام بنزول الوحي بها»(١٥٠).

وفي رأي شوقي ضـيف إنّ جمـيع القبائـل العربيّة وغـير العـربيّة، الوثنيّة منهـا واليهوديّة والنصرانيّـة، جميعـها «تجمّعت قلوبُهـا حولَ مكّة، وهوتْ أفئدتهـا إليها. وبذلك كلّه تهيّـأ للّهجة القرشيّـة أن يعلو سلطانُها في الجاهليّـة اللّهجـاتِ القبليـة المختلفة، وأن تـصبح هي اللغة الأدبيّـة. فنحن لا نعدو الـواقع إذا قلنا إنّ لهجـة قريش هي الفـصحى التي عمّـت وسادت في الجاهليّـة، لا في الحجاز ونجـد فحسب، بل في كلّ القبـائل العربيّة، شـمالاً وغرباً وشرقاً، وفي اليمامة والبحرَين، وسقطت إلى الجنوب، وأخذتْ تقتحم الأبواب على لغة حِميـر واليمن، وخاصّةً في أطرافها الشـمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران..

«أمّا في الشمال فقد كـانت الفصحى معروفةً في كلّ مكان.. ممّا يدلّ على ذلك دلالة قاطعة سرعةُ استجـابتهم للقرآن الكريم ودعوته، فإنّهم كانوا يَفهمونه بمجـرّد سَماعه. فإذا عرفنا أنّه نزل بلغـة قريش تحتّم أن تكون هي اللغة الأدبيّة التي كانت سائدة»(١٥١).

***

لكنّ هذا الحشـد من الحجج والروايات لا يعني في الـواقع والحقيـقة شيئـاً كبيراً. فهناك روايـات معاكسة لتلك التي رأينا، ووقـائع تناقض تماماً

---

(١٥٠) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب الأدب. سنة ١٩١١.

(١٥١) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٣٣ وما بعدها.

القول بلغةٍ اسـمها في التاريخ «لغة قريش». وقـد تكون وقائع التاريخ أثبتَ مِن كلِّ روايةٍ موضوعةٍ على أيِّ لسان مهما كانت قرابتُه، أو قربُه، من النبيّ. فإذا كانت هناك رواية على لسـان عثمان تثبتُ قرشيّـةَ القرآن، فهناك أيضاً، وعلى لسانه بالذات، روايةٌ ثانيةٌ تقول: «إجعلوا المُملي مِن هُذيل، والكاتبَ من ثَقيف»(١٥٢). «وليست هُذيلٌ ولا ثقيفٌ من قريشٍ»(١٥٣).

ثمّ هناك خبر عن أبي بكر يقول لعمر، بعـد إلحاحه عليه بجمع القرآن، يقـول: «أجلَسَ خمسـة وعشـرين رجلاً من قـريش، وخـمسين رجـلاً من الأنصار. وقال : اكتبوا القرآن»(١٥٤). «ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش لما اختار هذا العدد الكثيرَ من الأنصـار، وهم من غير قريش، ومن منافسي مكّة في الجاهليّة والإسلام»(١٥٥).

والحقّ يقـال إنّه، قبل مكّة وقـريش والقرآن، وقَـبل قُصَيّ جـدِّ النبيّ الرابع بزمن طويل، كانت اللـغة العربيّة تُقـرأ وتدرّس وتُكتب وتُنقش وتُعلّم وتُدوّن في الحِيرة والأنبار وضفاف الفرات والنمّارة وحرّان وبُصرى وبلاد الشام، وفـي كلِّ مكانٍ من غربي الفـرات.. وكان النصـارى، بشهادة مـعظم المؤرّخين المسلمـين أنفسـهم يعـلّمونـها في كـنائسـهم وأديرتهم، لأولادهم وغلمانهم. وكان اليهود يتعـاملون بها في تجارتهم ومهنهم، ويربحون من البدو أموالاً طائلة. فلغة القرآن ليست هي بحالٍ من الأحوال «لغة قريش»، أو تتّصف بشيءٍ من قريش.

و "أقرب الأقوال المذكورة إلى المنطق، هو قول مَن قال إنّه نزل بلسان عربيّ وكـفى... فمـا بالنا نفسّـر ونؤوِّل، ونلفّ وندور.. ثمّ نترك كـتابَ اللّه

---

(١٥٢) الصاحبي، ص ٥٨.

(١٥٣) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب..، ٨/ ٦٠٥.

(١٥٤) تاريخ اليعقوي، ١/ ١٢٥، في خلافة أبي بكر الصديق.

(١٥٥) د.جواد علي، المفصّل...، ٨/ ٦٠٦.

القـائل: «نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمين عَلى قلـبِكَ لتَكونَ مِنَ المنذِرين بِلِسَـانٍ عَـرَبِيٍّ مُـبِين» (٢٦/١٩٥)، و«هَذا لِسَانٌ عَـرَبِيٌّ مُـبِين» (١٦/١٠٣)، و«إِنّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَـرَبِيًا لَعَلَّكُم تَعْقِلُـون» (١٢/٢)، و«كَذلكَ أَنْزلنَاه حكمًا عَـربيًا» (١٣/٣٧)، و«كذلكَ أنزلنَاهُ قُرآناً عربيًا» (٢٠/١١٣)، و«قُرآناً عربيًا غيرَ ذِي عوَج لعلّهم يَتّقون» (٣٩/٢٨)، و«كـتابٌ فُصّلَتْ آياتُه قرآناً عربيًـا لقَوم يعلمون» (٤١/٣)، و«كذلكَ أوحـينا إليكَ قرآناً عـربيًا» (٤٢/٧)، و«إنّا جَعـلنَاه قرآناً عربيًا لعلّكم تَعقلون» (٤٣/٣)، و«هذا كتابٌ مصدِّقٌ لساناً عربيًا لينذرَ الذينَ ظلموا» (٤٦/١٢). ولم يقل قرشيًا "[١٥٦].

«ولو نزل بلغـة قـريش لمـا سكت اللّه تعـالى عن ذلك، لما فـي التنويه بلسانهم، إنْ كـان أفصحَ ألسنةِ العرب، من حجّـةٍ على العرب في فصـاحته وبيانه وكونه معجزةً بالـنسبة لقريش، أفصح الناس وألسنهم، وليس بكلام العـرب عـامّـة الـذين هم على حـدّ قـول الأخـبـار دون قـريـش في اللغـة والكلام»[١٥٧]. فإنْ كـانت قريش أفصح الفـصحاء وأبلغ والبلغـاء، فلماذا لم يذكر ذلك عن قريش ولو مرّة واحدة؟! هذا علماً بأنْ ليس لقريشٍ ذكرٌ فيه إلاّ مرّةً واحـدة، في مـعرض كـلامِه عن مـعاهدتهم التـجاريّة مع اليـمن وبلاد الشـام[١٥٨].

و «الحق أقول -كمـا ختم الدكتور جواد علي بحـثه الطويل القيّم عن اللغة العـربيّة- : إنّني إذا فكّرت تفكير علمـاء العربيّة المحدثين، الذين نسـبوا تفوّق اللغـات على اللّهجات إلى السيـادة السياسيّـة والسيادة الاقتـصاديّة وأمثال ذلك من سيادات، فإنّني لن أفكّر في موطنٍ أينعتْ فيه العربيّةُ في تلك الأيّام سوى بلاد الشام والعراق»[١٥٩].

---

(١٥٦) ابن كثير، فضائل القرآن، ص ٧٧.

(١٥٧) د. جواد علي، المفصّل ٨/٦٠٦.

(١٥٨) سورة قريش ١٠٦/١..

(١٥٩) د. جواد علي، المفصّل...، ٨/٦٤٦.

خاتمة الفصل الخامس

إنَّ اللغة المسمّاة «عربيّة» هي لغة الشمال، لغة غربي الفرات، حملها المرسَلون والمبشِّرون معهم من الحيرة والأنبار وبلاد الشام إلى مكّة والحجاز ومختلف أنحاء الصحراء. وحملها تجّارُ قريش من بلاد الشام والعراق إلى بلادهم. تكلّموا بها منذ أيّام قُصَيّ الذي جمع القبائل والعشائر في «قريش»؛ وتملّك عليهم بمساعدة أخوالِه من قبيلة بني عذرة الغسّانيّة..

ثمّ توسعت تجارة أبناء قُصَيّ وأحفاده. فكان هاشِم جَدُّ النبيِّ أعظمَ مَن تاجر مع بلاد الشام، وعقَدَ الأحلاف مع رؤساء القبائل، وحصل على عهدٍ مِن قيصر الروم ليتوسّع بتجارته. وقد نوّه القرآن بذلك في كلامه على «إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف»(١٧٠).

ومِن هذه الفترة تمكّنتِ «اللغةُ الغربيّةُ» بقريشٍ ومكّة؛ وتقدّستْ مع إنزال القرآن ومع النبيّ؛ واتّسعتْ مع «الفتح». إنّها لغةُ الغساسنة والمناذرة، بل هم أربابها ومصدِّروها.. وعادت إليهم مع الفتح إسلاميّةً بعدما كانت معهم مسيحيّة. وأصبح قلمها قلمَ الكوفة بعدما كان قلم الحيرة..

وأعطت اللغة العربيّة اسمَها للشعوب والقبائل التي تكلّمتْ بها في حين أنّ القاعدة هي أنْ تعطي الشعوبُ هويَّتَها للغة التي يتكلّمون بها.. وقد أكّد النبيُّ قولَنا هذا في حديثٍ له قال: «يا أيُّها الناس! إنَّ الربَّ واحدٌ، وإنَّ الدِّينَ واحدٌ. ليستِ العربيَّةُ بأحدِكُم من أبٍ ولا أمٍّ. وإنما هي اللسان. فمَن

---

(١٧٠) سورة قريش ١٠٦/ ١.

تكَلَّم العربيّةَ فهو عربي». ورُوي أيضًا عن معاذ بن جبل عن الرسول قال: «ألا إنّ العربيّةَ اللسانُ. ألا إنّ العربيّةَ اللسان».

فالعروبة، إذاً، لغةً، وشعبًا، ودينًا، مسيحيّةٌ، غَربيّة فراتيّةٌ، وشماليّة. مطعَّمةٌ بحروف نبطيّة، وبمعانٍ آراميّة غربيّة. ثمّ أصبحت في مكّةَ حاملةً لهجاتٍ من كلِّ شعب، من الحبشيّة، والروميّة واليونانيّة والعبريّة والأراميّة والقبطيّة.. وذلك لتلّون السكّان في مكّة، المدينة الكوسموبوليتيّة التجارية الكبيرة في ذلك الزمان.

«إنّ لهجات الشمال كانت في العصور القريبة من ظهور الإسلام، ذات سلطانٍ قويٍّ ونفوذٍ واسع، فكانت تبتلع اللّهجات الجنوبيّة ابتلاعًا، الواحدةَ منها تلو الأخرى. فاللّهجات التي أصبحت سائدة في أغلب أقاليم الجزيرة العربيّة قبيل ظهور الإسلام، إنّما هي شماليّة بعد أنِ التهمتْ أكثرَ اللّهجات الجنوبيّة وتغذّت بها»[١٧١].

«وقد أخذتِ اللّهجاتُ الشماليّة، في القرون القريبة من ظهور الإسلام، تتمتّع بقوّة وعزّة واستقلال؛ فكانت تتدفّق في جميع نواحي الجزيرة بقوّة وفتوّة وروح يملؤه النشاط، حتّى كوّنت لنفسها أدبًا جديدًا وشِعرًا فنّيًا»[١٧٢].

---

(١٧١) أ. لوفنسون، تاريخ اللغات الساميّة، ص ١٦٧.

(١٧٢) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

الفصل السادس

أعربيٌ هو؟

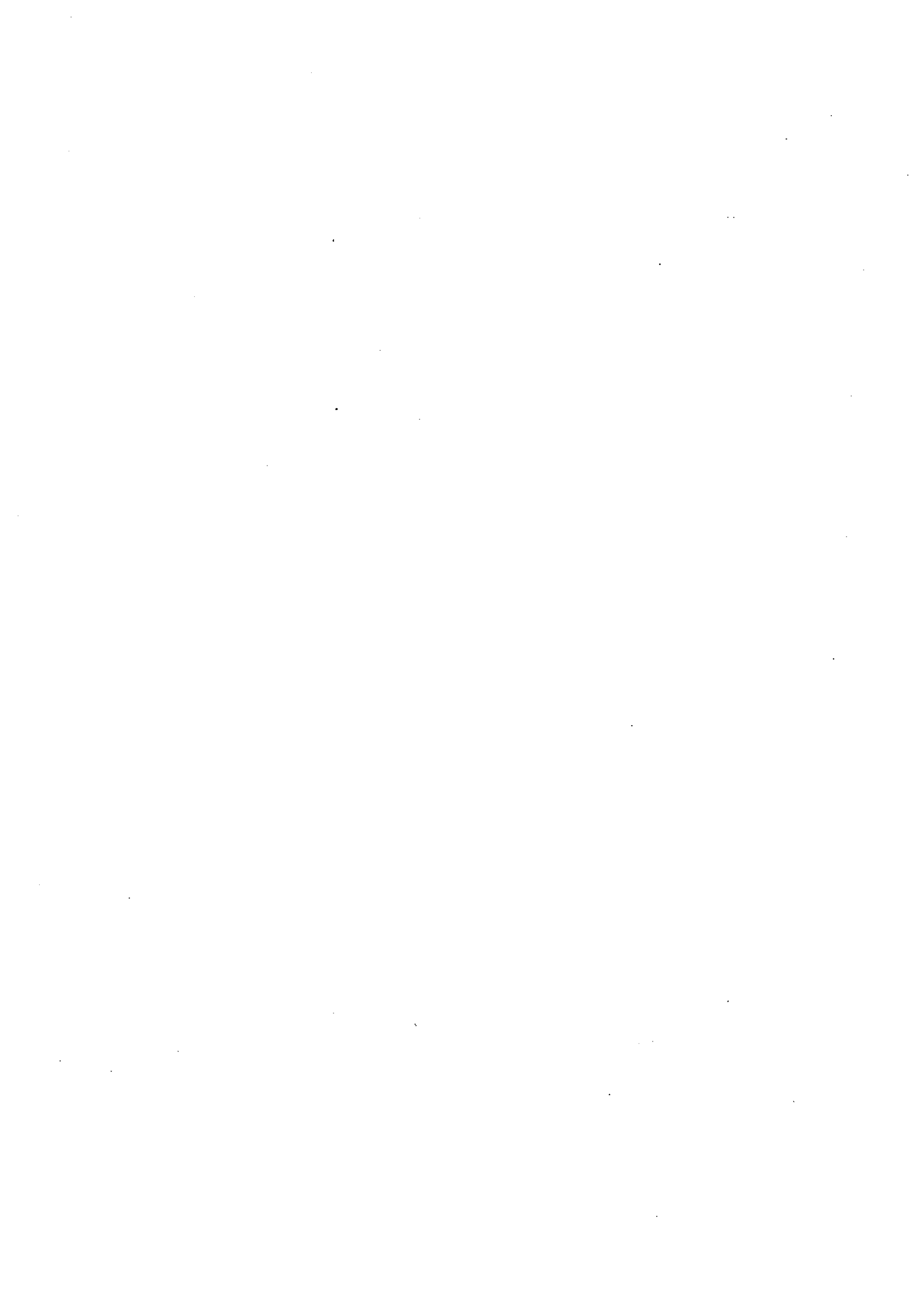
أولاً : العروبة في اختلاف معانيها

ثانيًا : النبيُّ المستعرِب

ثالثاً : موقف النبيِّ من العروبة

رابعًا : أعداء العروبة

خاتمة الفصل السادس



أولاً – العروبة في اختلاف معانيها

ألعروبة، في حقيقتها، مضطربة المفاهيم، متنوّعة المعاني، متناقضة المداليل، تحمل في أصلها اللغوي أموراً عديدة مختلفة، وفي استعمالها التاريخي تبايناً واضحاً، وفي مداها الجغرافي مدًا وجزرًا.. ولا بدّ، والحالة هذه، من استعراضها، واستخلاص العبر. ونودّ أن نوجز مجملَ الأمور التي رأيناها لنتمكّن من معرفة مدى ارتباطها بالإسلام، ومدى علاقتها بالنبيّ محمد، وصحّة انتساب الإسلام والنبيّ إليها.

١ . لقد رأينا، في النصوص الأراميّة، أنّ العروبة تعني «الغرب» و«الغروب». وقد أطلقها الأراميّون سكانُ شرقي الفرات على القبائل والعشائر الساكنة «غربيّ الفرات». فتكون اللفظة أطلقت، أوّل ما أطلقت، على هذه الشعوب بالنسبة إلى موقعها الجغرافي. ولمّا كانت هذه المواقع نفوداً وبواد، أصبحتِ اللفظة إيّاها تعني الذين يعيشون في النفود والبوادي، وتدلّ، بالتالي، على الحياة البدويّة عندهم.

٢ . ومن نوعيّة الحياة البدويّة هذه، أطلق البابليّون والكلدان والأشوريّون والفرس هذه اللفظة على كلِّ شعبٍ يعيش عيشة بدويّة. «وبهذا المعنى استُعمِلتْ عندهم»[1]. وامتدّتِ «العروبة» معهم إلى حيث وُجدَت قبائل وعشائر تعيش هذا النمط من الحياة البدويّة البدائيّة. فأصبح سكّانُ كلِّ منطقة صحراويّة، «عرباً»، أو «بدواً»، نسبةً إلى حياة «العروبة» أو «البداوة» التي يعيشونها فيها.

---

(١) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/ ٢٦.

٣ . أمّا العبرانيّون فأطلقوا على هذه القبائل والعشائر نفسها، المسمّاة عند الأراميّين «غربية»، اسم «أبناء الشرق»، وذلك لمواقعها شرقي أرض العبرانيّين. ووُصِف «أبناء شرق كنعان» بما وُصِفَ به «أبناء غربي الفرات»، بالبداوة والحياة البدائيّة الرديئة.

٤ . ولمّا جاء اليونان والرومان أطلقوا على هذه القبائل والعشائر البدويّة ما سمّاها به الأراميّون والعبرانيّون، أي «غربيّين» و«شرقيّين» على السواء. واستعملوا اللّفظتَين ليعنوا بهما «العرب»، وكلّ مَن عاشَ عيشةَ العرب في الصحاري، ورعاية الإبل والأغنام، واتّخاذ الخيامِ بيوتًا..

٥ . وفي الحضارات العربيّة القديمة لم ترد لفظة «عروبة» ومشتقاتها إلاّ بمعنى البداوة والحياة البدائيّة. وليس بين أيدينا نصّ واحد من مناطق الجزيرة المسمّاة عربيّة يشير إلى أنّ «العرب» هم عرقٌ ، أو جنس بشريٌ متميّز، له لغة خاصّة به، أو دولة واحدة لها حدود جغرافيّة ثابتة، أو حضارة محدّدة المعالم والمعارف، أو وعي «قوميّ» يختلف عن قوميّة أخرى مجاورة لها أو بعيدة عنها..

٦ . وفي القرآن ليس من ذكرٍ للعرب إطلاقاً. بل هناك آيات عن لغة القرآن العربيّة، وآيات عن «الأعراب» الموصوفين بالتخلّف والكفر والنفاق.. أمّا عن «العرب» كعرقٍ أو جنسٍ معيّن فليس فيه من ذلك شيء، كما ليس فيه أيّة إشارة إلى هويّة النبيّ العربيّة، أو انتماء الإسلام إليها.

٧ . أللغة المسمّاة «عربيّة»، والتي هي «لغة الوحي» في الإسلام، هي لغة الغربيّين من منطقة غربي الفرات، في بلاد الشام والعراق. في مملكتي المناذرة والغساسنة. انتقلتْ هذه اللغة إلى مكّة والحجاز بواسطة تجّار قريش والمبشّرين السيّاح، مسيحيّي بلاد الشام. ثمّ انتقلت من مكّة إلى سائر أقطار الجزيرة المسمّاة عربيّة بواسطة الفتوحات العسكريّة. إلاّ أنها في الأصل وفي المنشأ لغة «غربيّة» لسكّان «غربي الفرات».

٨. إذا كان اليونان والرومان أخذوا من «العـروبة» مميّزاتها القبليّة البـدويّة، وأطلقـوا إسم «عرب» على كلٍّ مـن يعيش مـثل هذه الحـياة؛ فـإنّ المسلمين أخـذوا «العروبة» مـن اللغة العـربيّة، لغـة كـتابهم، وأطلقـوا اسم «عـرب» على كل من اعـتنق دينهم وتكلّم لغـتـهم. وهكذا تكون اللغـة أعطتْ إسمَها للناطقين بها، بدل أن يكون إسمُها أُخذ من الناطقين بها.

٩. ثمّ إنّ تقـسيم «العـرب» إلى قحـطانيين وعدنانيين، أو إلى عـرب عاربة وعـرب مستـعربة، هو تقسـيم إسلاميّ مـتأخّر، لا نجـد له ذكراً في حـضارات مـا قـبل الإسلام، ولا فـي المصادر اليـونانيّـة أو العـبرانيّـة أو غيـرهما.... إنّه اختراع إسـلامي، من عصر العـباسيين؛ أنشئ لتبـريرِ نفوذ قبـيلة على أخرى، أو لتـثبيت عـصبـيّة على عصـبيّة، أو لصـراعٍ كبـيرٍ بين «الشعوبيّة» و«العروبة»، أو بين «العرب» والعـجم». فأصبح كلُّ أعجميٍّ غيرَ عربيّ؛ وكلُّ عربيّ غيرَ أعجميّ.

١٠. وفي العصـور العبّاسيّة قـامت «الشعوبيّة» تحـارب «العرَبين» معـاً. وتقف بوجه المدّ العـربي، لتدعم التفـرّس تارة، والتتـريكَ طوراً. وبعد تفكّك الدولة العباسيّة، انقرضتِ «العـروبة» و«الشعوبية» معاً. وقامت، على أنقاضـهـما، دويلات في كلِّ مكانٍ من العالم الإسلامي. وأصبح الحكم فـيها باسـم الإثنيّـات والأعـــراق، أو باسم الطوائف الدينيّـة والـعـقـائد والمذاهب المختلفـة. وماتت العروبةُ طويلاً، ولم يعـد لها ذكرٌ يُذكر حـتّى أواخر الدولة العثمانيّة.

١١. وقبيل نزع الأمبراطوريّة العثمانيّة، أواخر القرن التاسع عشر، قام بعضٌ من رعاياها يقول بـ «القوميّة العربيّـة» كردّة فعلٍ تجاه العثمانيّة: «إنّ تخلّفَ ألفِ عامٍ في الدولة العثـمانيّة أدّى إلى ظهور القومـيّة الطورانيّة، والقـوميّة الـطورانيّة أرادت درءَ خطرِ التـخلّف العثـماني بخطأٍ آخـر، وهو القـومـيّـة الطورانيّة. ثمّ جـاءت القـوميّـة العربيّـة كـردّ فعل على القـوميّـة

الطورانيّة لتصحيح الخطأين السابقين بخطأ ثالث.. ألقوميّة العربيّة، إذن ردّ فعل تاريخي على ظروف تاريخيّة خالصة»[٢].

وكذلك أيضًا «إنّ دعوة الوهابيّة إلى قرشيّة الخليفة، ومناهضة السنوسيّة لسلطة العثمانيّين، وثورة المهديّة ضد الأتراك العثمانيين، يمثّل بالفعل ردّ فعل عربي ضد تسلّط الأتراك داخل الدولة الإسلاميّة»[٣].

وجاء المسيحيّون اللبنانيّون أيضاً ليدعموا «القوميّة العربيّة»، إنتقامًا من الظلم العثماني اللاّحق بهم.

ثمّ أخذت «جامعة الدول العربيّة» تقيم صروح العروبة على عاتقها.

وأخيرًا تنادى المسلمون الغيورون ليربطوا بين العروبة والإسلام ربطاً جذريًا مُحكمًا، حتى «صار من المسلَّم به ترادفُ اللفظتَين: عربي ومسلم»[٤].

١٢ . ولكن، قبل الوصول إلى ما نحن عليه اليوم، وقبل زواج الإسلام من العروبة زَواجًا جذريًا، وقبل ربط العروبة بعالميّة الإسلام، نعود إلى جغرافييّ العصر العبّاسي ومؤرخيّه لنجد حدودَ العربيّة الشماليّة عندهم تقتصر على «خطٍّ وهميٍّ بين خليج العقبة وخليج فارس». ولا نعلم كيف اتّسعت هذه الحدود، لتشمل، عند مسلمي اليوم، العالم الإسلامي برمّته، من الخليج إلى المحيط؟ يبدو الأمر، عند هؤلاء، أنّهم رسموا حدوداً دينيّةً أكثر مما رسموا حدودَ العروبة نفسها.

---

(٢) د. حسن حنفي، في القوميّة العربيّة والإسلام، ص٢٣٣.

(٣) د. عبد العزيز العاشوري، في القوميّة العربيّة والإسلام، ص ٢٤١-٢٤٢. الوهّابيّة مؤسّسها محمد بن عبد الوهاب (ت ١٧٩٢م) في السعودية؛ ألسنوسيّة مؤسّسها محمد بن علي السنوسي (ت ١٨٥٩م) في ليبيا والجزائر ومصر؛ ألمهديّة ومؤسّسها محمد أحمد المهدي (ت ١٨٨٥م) في السودان.

(٤) بولس الخوري، التراث والحداثة، ص ١٩.

١٣ . هذه العروبة، بنظر المعتدلين من المسلمين العروبيّين، هي بمثابة «علمانيّة» الإسلام. فبدل أن يقيموا دولاً دينيّة إسلاميّة تقيم القرآنَ دستوراً والشرعَ نظاماً، قالوا بدولة عربيّة، على أساس أن العروبة، عندهم، تمرّ وتُقابل بالتسامح عند غير المسلمين. واعتمد هؤلاء المعتدلون مقاييسَ اللغة، والثقافة، والتاريخ، والوعي القومي، أساسًا لهذه «العروبة-العلمنة»(٥). واعتبروا الإسلام والعرق والنسب الإسماعيلي مقاييس باطلة لهذه «العلمنة».. ومع هذا لم تمرّ «العروبة» عند المسيحيّين اللبنانيّين بسلام وأمان، ولا عند بعض المصريّين المفتخرين بالحضارة الفرعونيّة(٦).

***

وباختصار الكلام، لقد خرجتِ «العروبةُ» من بلاد الشام إلى مكّةَ والحجاز حضارةً، على أيدي الغساسنة والمناذرة؛ وعادتْ من مكّة والحجاز إلى بلاد الشام مسلمةً. ومن بلاد الشام افتتحتْ مناطقَ عدّة من العالم، وانتصرتْ على الدولتَين العظمَيين في ذاك الحين؛ وتحضّرتْ مجدَّداً على أيدي السريان الذين نقلوا الفكرَ والعلمَ اليونانيّين.

وبقيتِ العروبةُ فخراً إلى أن دارتْ بينها وبين الشعوبيّين والأعاجم والمماليك والتتار والمغول والعثمانيّين وغيرهم... معارك ضارية استمرّت حتّى قيامها «قوميّة» و«حضارة» مرّةً ثالثةً على أيدي مسيحيّين لبنانيّين.

فمسيرة العروبة كانت إذاً: في بدايتها على أيدي الغساسنة والمناذرة؛ في حضارتها اليونانيّة على أيدي النساطرة واليعاقبة؛ وفي قوميّتها ونهضتها الحديثة على أيدي المسيحيّين اللبنانيّين الموارنة. هذه هي مسيرة العروبة التي، بأمّها وأبيها، مسيحيّة؛ من نشأتها حتّى اليوم.

---

(٥) MAXIME RODINSON, Les Arabes, P.U.F., Paris, 1979, pp. 13-52.

(٦) أنظر «المسيرة»، عدد ٢٠ في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٣، ملفّ العروبة.

ثانيًا – النبيُّ المستعرِب

جـميع سكّان العـربيّـة الصحـراويّة، بنظر النسّـابين وأهل الأخبـار والمؤرّخين المسلمين، من الـعرب المسـتـعربـة؛ أي ممّن انتمـوا إلى العـروبة انتماءً، وانتسبوا إليـها انتساباً، ولم يكونوا في الأصل منها. إنّهم من أجناس مخـتلفة ومتنوعـة، من الممالك اليمنيّـة، ومن بلاد فارس والروم والحبـشة وبلدان أفـريقيـا ومـصر والسـودان، ومن اليـهـود والنصارى والمجـوس والصـابئة والوثـنيّين.. كلّهم «تجمـعّـوا» في الصـحاري لألف ألف سـبب، وترقّبوا لـقمة العيش من القـوافل التجاريّة العابرة الصـحراء، وسكنوا على جوانـب الطرق التجـاريّة الممتـدّة بين اليمن وبلاد الشـام، والمارّة عبـر مكة ويثرب وخيبر وفدك وتبّوك والبتراء حتى مختلف أنحاء الهلال الخصيب.

وكانت مكّة أهمّ تجـمّع تجاري لهذه العشـائر التي لا يجمعهـا جامع. وقد كـانت ملتقى القـوافل الغادية والعـائدة من اليمن وبلاد الشـام، ومحطّ الرجال المسافرين من كلِّ صوب، ليرتاحوا قليلاً من عناء السفر وشدّة الحرّ، وليلتـقطوا أنفـاسـهـم، ويكمّلوا رحـيلـهم إلى أيِّ مكان. فـمكّـة لا تصلح للاستقـرار، إذ لا زرْع فيها ولا ماء، ولا موارد رزق لها إلاّ مـن الخارج، كما يشير القرآنُ إلى ذلك: مكّة «أرض ميتة»[٧] و«بلد ميتة»[٨]، «يأتيها اللّهُ رزقَها رغداً من كل مكان»[٩]؛ يؤمّـهـا البؤسـاء المحرومـون ليُرزقـوا فيـها طعـاماً، ويحـّصلوا رزقَهم ومـعـاشهم، ولهـذا كـثر فـيهـا النهب والسلب والغـزو والاقتتال. وذلك قبل أن يعمل «قُصَيّ» على ضبط الامور فيها.

---

(٧) سورة يس ٣٦/ ٣٣.

(٨) سورة الفرقان ٢٥/ ٤٩؛ الزخرف ٤٣/ ١١؛ ق ٥٠/ ١١.

(٩) سورة النحل ١٦/ ١١٢.

لمّا جاء «قُصَيّ»، الجدّ الرابع للرسول، جمع العشائر والقبائل في قبيلة واحدة، سمّاها «قريشاً». وقريش تعني التجمّع. ولُقّب قُصَيّ بـ «المجمّع». وكانت قريشٌ أوّلَ تنظيم عُرف في مكّة. ومع هذا لم ينسجم أفراد قريش في جماعة واحدة، ممّا جعل قُصَيًا يقسمها إلى قسمَين: قريش البطاح وقريش الظواهر. ولم يكن بين القسمين، مع شدّة قُصَيّ وقسوته، اتفاقٌ وتفاهم، لتنوّع الأنساب والأعراق والدماء. ومع هذا، ولمصلحة الفريقَين، وللعيش الأمين، استطاع أهل قريش الاتفاق على أمور تعود إليهم بالنفع، أمثال الامتناع عن القتال في البيت، والحفاظ على حرمة الأشهر الحرم، وإقامة العقود التجاريّة مع القبائل... وغير ذلك.

فسكّان مكّة، إذاً، هم من كلّ لونٍ ونوعٍ. وبحقٍّ دعاها القرآن «أمّ القرى»(١٠)، أي بتعريفنا اليوم، «المدينة الكوسموبوليتيّة» التي، لموقعها التجاري، تضم أناساً مختلفي الأعراق والإثنيات، ومتنوّعي الحضارات، ومتعدّدي المذاهب والأديان، ومختلفي الهويّات والأهواء. وليس مَن ينكر، والحالة هذه، فساد الحالة الإجتماعيّة، من رِبا وزِنا وفجورٍ، ومن نهبٍ وسلبٍ وغزو، ومن زواجاتٍ غير شرعيّة، ومن أولاد لقطاء، وأمّهات بغير أزواج، وبناتٍ معدّة للوأد، أو للعهر مقابل أجور... كلّ هذه المفاسد كانت، وعظمتْ في أيّام النبيّ. وما في القرآن عنها صورة جليّة واضحة.

أضف إلى ذلك ما يُجمع عليه النّسابون، وهو عدم معرفة حقيقة أنساب أهل مكّة. فلذلك أجمعوا على القول بأنّهم «عرب مستعربة». ومن هؤلاء كان النبيّ، فهو، بحسب أهل السِّيَر والأخبار، «محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ... بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان». وكان النبيّ يمسك عمّا بعد عدنان، ويقول: «كذب النّسّابون».

(١٠) سورة الأنعام ٦/٩٢، الشورى ٤٢/٧.

وعروبة العـدنانيّين، بنظر القحـطانيّين، مطعون بهـا. وهي أقلُّ شأناً وصراحةً من عـروبتهم. بل هي عدوّة لدودة لهم. وقد استـمّرت العداوة بين الفريقَين فترةً طويلةً، وحدثت بينهما وقائع داميـة أنهكتهما جميعاً.. ولمّا كان النبيّ، جـعل همّه في التـوفيق بينهـما، تارةً باللّين واللطف، وطوراً بـالشدّة والقـساوة. وليس أدلّ عـلى اختـلافهـمـا ممّا جرى، بعـد وفـاة النبي، بين المهاجرين والأنصار، على أنّ المهاجرين من قريش من المستعرِبة، والأنصارَ من أصلٍ يمنيٍّ قحطاني. إلاّ أنّ همّ النبي لم يلق من الفريقين دعماً أو نجاحاً.

ثمّ، إذا كانت عروبة العـدنانيّين مطعوناً بها، فعـروبة النبيّ هي أيضًا مطعون بها. وقد يـكون صمتُ القرآن عن عروبة محمّد من هـذا القبيل. ففي الإحدى والعشـرين مرّة، حيث ترد لفظة «عربيّ» و«عـربيًا» و«الأعراب»، لا نجد مرّةً تشير إلى عروبته. وإذا كانت كـتب الأحاديث والسِّير تستفيض في ذكر عروبته، فإنّنا لسنا نعلم لهذه الكتب جميعِها سنداً صحيحاً نركن إليه.

وهل نقول، بعدئذٍ، مع محمّـد الغزالي: «ومِن حسن حظّ العروبة أنّها جنسٌ مفتوح، وأنّ الاستعرابَ ركنٌ أصـيلٌ في دعم كيانها وإمدادها بأسباب البـقـاء والنماء؛ ونـحن نعلم أنّ صـاحب الرسالـة العظمى، صلى اللّه عليـه وسلّم، من العرب المسـتعربة، وليس من العـرب العاربة»[١١]. ونفتـخر بذلك على «أنّ الإسلام جعل منها (أي من العروبة المستعربة) دائرةً عالميّةً فسيحةَ الأرجاء، وُسِعَتْ شتّى الدماء والألوان، وانضـوى تحت لوائها سيلٌ موّارٌ من المؤمنين الذين تركـوا بني جلدتهم، وآثروا هذه الجنسـيّة الجـديدة، وأسدوا إليها من الخدمات العالميّة والأدبيّة والسياسيّة والعسكريّة ما يعجز عنه قومٌ ترجع أرومتُهم إلى عاد وثمود، أو عدنان وقحطان»[١٢]؟

(١١) محمد الغزالي، حقيقة القوميّة العربيّة، ص ١٢٣.

(١٢) المرجع السابق نفسه.

أيّة عروبة هي هذه التي يفتخر بها العروبيّون! والنبيُّ نفسُه تبرّأ منها، ولم يتّصف بها، ولم ينتسب إليها؛ بل هجرها، وكان لها عدوًّا!!

والحقّ يقال: لا العروبة العاربة، ولا العروبة المستعربة، كان لها في زمن النبيّ ذكر ووجود. إنّها، في قسمَيها، إختراعٌ إسلاميّ متأخّر، من عصر العباسيّين. ولنفترض وجودَها قبل ذلك التاريخ، فإنّ وجودها لم يكن عزًّا للإسلام أو للنبيّ. بل جاء النبيّ ليحاربها ويقضي عليها. واعتبر «التعرّب»، بعد الإسلام، كفراً بالإسلام عينه، وردّةً إلى الجاهليّة، وتخلّفاً عن الإيمان الجديد.

ثالثًا - موقف النبيّ من العروبة

لقد وقف النبيّ من العروبة موقفاً عدائيًا، شدّد عزيمتَه فيه وعيُه بعدم انتمائه إليها. فهو يعرف أنّه كان من سلالة عدنان من المستعربين طعنهم القحطانيّون في الصميم. ويعرف أيضاً أنّ العودة إلى عروبة الجاهليّين طعنة في الإسلام الذي جاء ليحلّ أحلاف الجاهليّة والقبائل والعشائر البدويّة. فالإسلام حضارة، فيما العروبة بداوة وجهالة. والصراع بينهما دائم.

جاء الإسلام وحارب الأعراف والتقاليد القبليّة البدويّة، وأقرّ بأنّ المجتمع الإسلامي يخضع للشريعة الإلهيّة لا للشرائع الوضعيّة. لقد حارب محمّد إذاً «الأحلاف» الجاهليّة، فقال: «لا حلف في الإسلام بعد اليوم»[١٤]. ولا يمكن أن يقوم الإسلام على ما قد سلف.

لقد قضى على العصبية القائمة على القبيلة والعشيرة، وعلى «الروابط الطبيعيّة القائمة على العرق أو الشبيهة بما يقوم على العرق، كتضامن القبيلة أو العشيرة (أي العصبية). وكان ما يجمع بين المسلمين في الأمّة صلة روحيّة هي الطاعة المشتركة للشريعة، والقبول بالحقوق والواجبات المتبادلة المعيّنة فيها، والتعاضد والتناصح في تنفيذها»[١٥].

لقد عوّض النبي بالإسلام عن أحلاف الجاهليّين وعصبيّتهم بأنْ ألغاها وقضى عليها. وقد أسّس دعوتَه على أنقاضها، ودعا إلى الأخوّة

---

(١٤) تفسير الطبري ٥/٣٦.

(١٥) أنظر: حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ١٧.

الشاملة، والمساواة بين جميع الناس، والطاعة لأحكام اللّه، والتسليم المطلق لارادته. بهذا المعنى قال: «مَا كانَ حلفٌ في الجاهليّة لم يزده الإسلام إلاّ شدّة»[١٦]، أي كان الإسلام عليه شديداً، قويّ البأس، لا رحمة به عنده.

وهذا أمر طبيعي، لأنّ النبيّ كان يعي تماماً مساوئ العروبة بما فيها من جهل وكفر وصراع واقتتال على المراعي وغدران المياه وتحصيل لقمة العيش، وتفاخر بالأنساب، وربا، وقتل البنين خشية الفقر والجوع[١٧]، وغير ذلك... كلُّها من بقايا العروبة. وفي العودةِ إليها، بعد الإسلام، «كبيرة».

وفي الأحاديث النبويّة إشارة واضحة إلى عدم جدوى العودة إلى الوراء، إلى عهد الجاهليّة، إلى البادية وتقاليدها، إلى العروبة البدائيّة. قال: «خيرُ القرون القرنُ الذي أنتم فيه، ثمّ الذي يَليه، ثمّ الذي يليه».. وعمّم المسلمون فيما بعد هذه القاعدة، واعتبروا كلَّ رجوعٍ إلى الماضي، ولو في الفكر وحسب، لا نفعَ فيه. بل العودة إلى التاريخ تعني انحداراً في الايمان وتقهقراً. «هذه النظرة إلى الماضي تنطوي في جوهرها على فكرة الانحدار»[١٨]، أي على حياة التبدّي. ولهذا جاء في حديث منسوب إلى النبيّ: «الإسلام يهدم ما قبلَه».

ومن الأحاديث النبويّة المتواترة أيضًا حديث «مَا مِن نبيٍّ إلاّ أُرسل لقومه، وأنا أُرسِلتُ للناس جميعًا». بعض المسلمين فَهِموا هذا الحديث على حقيقته، فراحوا يقولون بعالميّة الإسلام التي تتخطّى الحدود والتخوم والعنصريّات والقوميّات والأجناس والأعراق والألوان. واعتبروا، بالتالي، العروبةَ قيدَ الإسلام وسجنَه.

(١٦) تفسير الطبري ٥/ ٣٦
(١٧) سورة الأنعام ٦/ ١٥١؛ النمل ٢٧/ ٣١.
(١٨) حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ١٩.

ويدعم هذا الحديثَ أحاديثٌ أخرى أكثرُ وضوحاً في الانتقام من العروبة. قال رسول الله: «يا أيّها الناس! إنّ اللّهَ قد أذهب عنكم عَبيّةَ الجاهليّة وتعاظمَها بآبائها»[١٩]. وخطب في حجّة الوداع، فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على عجميّ، ولا لعجميٍّ على عربيّ، ولا لأسودَ على أحمر، ولا لأحمرَ على أسود إلاّ بالتقوى»[٢٠]. وقال أيضًا: «إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا أنسابكم، ولا أجسادكم.. إنّما أنتم بنو آدم. وأحبّكم إليه أتقاكم»[٢١].

هذه الاحاديث النبويّة جاءتْ تؤيّد آياتٍ قرآنيّةً يجب أن يفهمها المسلمون العروبيّون على حقيقتها. جاء في القرآن: «يا أيُّها الناسُ! إنّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثى، وجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائلَ لِتَعَارَفُوا. إنّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكم»[٢٢]. فالإسلام يقوم، إذاً، أوّلاً وآخراً، على التقوى والإيمان، لا على الأنساب والعصبيّات والقوميّات والعودة إلى ما كان عليه الأعراب في بواديهم. لقد قيّدَ الإسلام، بهذه الآية، عصبيّةَ العرب؛ بل «أزال عصبيّة العرب القوميّة»[٢٣]. و«من أجل ذلك لا يمكن جعل العروبة قوميّة خالصة»[٢٤].

وبعض المسلمين الأوّلين فهموا روحَ القرآن هذه، وعملوا بها، وقالوا: إنّ الخلافةَ على المسلمين، مثلاً، يمكن أن تكون في انتخابِ خليفةٍ مسلمٍ مِن أيِّ عرقٍ كان. أكانَ عربيًا، أو أعجميًا، أو حبشيًا، أو عبداً أسود. لا فرق. المهم، أن يكون مسلماً. وانتصر أصحاب هذا الرأي على الذين يقولون إنّه يجب أن

---

(١٩) سنن الترمذي، وسنن أبي داود، باب الأدب ١١١.

(٢٠) أنظر تفسير الطبري على سورة هود ١١/ ٤٥-٤٦.

(٢١) المرجع السابق نفسه.

(٢٢) سورة الحجرات ٤٩/ ١٣.

(٢٣) حوراني، الفكر العربي...، ص ٣٦٠.

(٢٤) محمد الغزالي، حقيقة القوميّة العربيّة، ص ١٢٣.

يكون من قريش، أو من الأنصار، أو عربيًا، أو غير ذلك. ولذلك قصّرَ عليٌّ وأتباعُه عن الخلافة لأنّهم شدّدوا على عنصريّة الخليفة ونسبته إلى الرسول.

أضف إلى ذلك، أنّه لو كانت فكرة العروبة عند المسلمين الأوّلين ذاتَ أهميّة لما أدخلوا في دينهم وفكرهم وأدبهم كلَّ شيء من الخارج، ولما نقلوا مركزَ الخلافة الدينيّة والسياسيّة من مكّة والمدينة إلى دمشق الشام ثمّ بغداد، حيث الحضارات الغريبة، من سريانيّة ويونانيّة وفارسيّة وتركيّة فعلتْ فيها في العمق.

***

أمّا قول القائلين بأنّ «الأمّة العربيّة» هي «خير أمّة أُخرِجت للناس»[٢٥] فهو قول يردّه القرآن نفسه؛ إذ ليس في القرآن آية واحدة من الأربع والستين آية الواردة فيها لفظة «أمّة» ما يشير إلى «أمّة عربيّة». لو تدبّر هؤلاء القائلون القرآن لفهموا أنّ حقيقة «الأمّة» في القرآن هي الأمّة الإسلاميّة. إنّها أمّة دينيّة صرفة لا أمّة عرقيّة أو قوميّة أو عصبيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة. إنّها «أمّة مسلمة»[٢٦]، لها مناسكها[٢٧]، ورسلها[٢٨]، ونُذُرها[٢٩]، وشهداؤها[٣٠]، وكتبها[٣١]، وآياتها[٣٢].. فالقرآن لا يتكلّم البتة على أمّة إثنيّة لها جنسيّة معيّنة. هذه الأمّة لا وجود لها في القرآن؛ بل إنّ

(٢٥) سورة آل عمران ٣/ ١١٠.

(٢٦) سورة البقرة ٢/١٢٨.

(٢٧) سورة الحج ٢٢/ ٣٤ و٦٧.

(٢٨) سورة يونس ١٠/٤٧؛ سورة المؤمنون٢٣/ ٤٤.

(٢٩) سورة فاطر ٣٥/ ٢٤.

(٣٠) سورة النساء ٤/٤٢؛ سورة النحل ١٦/ ٨٤.

(٣١) سورة الجاثية ٤٥/٤٨.

(٣٢) سورة آل عمران ٣/١١٣؛ سورة النمل ٢٧/ ٨٣.

القرآن حاربها وجاهد ضدها. وقد «هجر» النبيُّ مكّة بسبب رفضه لها، وبسبب محاربتها له. ثمّ «خرج» الإسلام من الجزيرة العربيّة، ومدّ «فتوحاته» باتّجاه العالم للانتصار عليها والتخلّص من ذلّها.

ومع هذا يطيب للعروبيّين أن يفهموا بآية «كُنتُم خيرَ أمّةٍ أُخرجتْ للناس» على أنّها تعني «الأمّة العربيّة». وليت هؤلاء وقفوا عند هذا الحدّ؛ بل راح بعضهم يفسّر آياتٍ عدّة بما يطيب لهم. فعندما يقرأ صابر طعيمه، مثلاً، آية «اللّه يَصطفِي من الملائكة رسلاً ومِن الناس»[٣٣]، يفهم في تفسيرها أنّ «ألناس هنا بهذا الشرف هم العرب، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى إنّ الأرض العربيّة.. هي الأرض التي اختارها اللّه لتكون للدعوةِ الإلهيّة ولتجميع البشر عليها»[٣٤]. فما أبعد الحقيقة والواقع ومفهوم القرآن والإسلام عن مثل هذه التفاسير الخاطئة!

وكم أراد النبيُّ بالأعرابِ خيراً، فلم يستجيبوا لنداءاته المتكرّرة. فهم، لتخلّفهم كانوا ينبذون كلَّ نداء له، ويرفضون كلَّ خير يأتي من يدِه، وينكرون دعوتَه. كم علّمهم الإيمان فكانوا يُجيبونه «حَسْبنا مَا وَجَدْنَا عليه آباءَنَا»[٣٥]، وكم منعهم عن عباداتهم الباطلة، وكانوا يقولون له: «وَجَدْنَا آبَاءَنا لَها عَابدون»[٣٦]، وكلّما أصرّ على اتّهامهم أصرّوا على رفضه.. لم يكن النبيُّ مع العرب والعروبة بخير. وهكذا كان أتباعُه الأوّلون.

وأقوى سهمٍ يصوّبه الإسلامُ إلى صدر العروبة هو أنّ التاريخَ يبدأ بـ «الهجرة»، الهجرة من مكّة إلى يثرب، أي من البادية إلى «المدينة»، من البداوة إلى الحضارة. وبحقّ أرّخَ المسلمون للزمن ببدء «الهجرة» سنة ٦٢٢،

(٣٣) سورة الحج ٢٢/ ٧٥.

(٣٤) تحدّيات أمام العروبة والإسلام، ص ١٩.

(٣٥) سورة البقرة ٢/ ١٠٤.

(٣٦) سورة الأنبياء ٢١/ ٥٣.

بدل أن يبدأ بالمولد النبوي سنة ٥٧٠، أو ببدء الدعوة سنة ٦١٠، أو عند موت الرسول سنة ٦٣٢. فـ «الهجرة» من العروبة إلى المدينة هي الزمن الفاصل والحاسم في تاريخ الكون والبشريّة عند المسلمين... ثمّ جاءت الهجرة الثانية من أنحاء البادية إلى بلاد الشام والعراق وفارس وأنطاكيا والقدس والإسكندرية وبلاد الحضارات التاريخيّة العظيمة.. ولو بقي الإسلام حيث نشأ لقضَى حيث وُلد. فتاريخ الإسلام إذاً هو تاريخ «هجرة». إنّه هجرة من البداوة إلى «المدينة»، تماماً كـ «خروج» بني إسرائيل من أرض العبوديّة إلى أرض الميعاد. «ألهجرة» هي «فصح» المسلمين الحقيقي.

ونجح الإسلام في «هجرته»، واستطاع في نجاحه أن يحقّق جهاداً مقدّسًا في سبيل اللّه الواحد، والدين الجديد الواحد؛ وأن يكون الجهادُ «نصراً» و «فتحاً» على حضارات العالم المتمدّن آنذاك.. فكانت الفتوحاتُ تتوالى، والنصرُ يتعالى، والإسلامُ ينتشر، والبداوة تتراجع أمام «المهاجِرين». ولولا «الهجرة» هذه لما تحقّق شيءٌ ممّا حقّقه الإسلامُ من إنجازات.. والأعراب، على ما يبدو، لا يتّحِدون إلاّ في الهجرة. وقد عبّر شارل رزق عن ذلك بقوله: «إنّ وحدة القبائل لم يمكنها أن تتحقّق إلاّ في تدفّقها خارج الجزيرة»[٣٧]. وقال أيضًا: «بالإسلام دخل العربُ التاريخ. وبالإسلام استطاع الذين لم يكونوا، قبل محمّد، إلاّ عشائر متناحرة، أن يتوحّدوا بالفتح. وهكذا، لم تكن الهجرة بداية عهدٍ إسلامي فحسب، بل هي بداية حضارة وسياسة وهويّة للعروبة»[٣٨].

هذا الموقف العدائي للنبي ولخلفائه الأوّلين من العروبة، شجّع كثيرين من المسلمين للاقتداء به. فكان للعروبة، عبر التاريخ الإسلامي، أعداء. وهم بذلك، كانوا للاسلام أكثر إخلاصاً، وأعمق إيماناً من العروبيّين.

---

(٣٧) CHARLES RIZK, Entre l'Islam et l'Arabisme, p.25

(٣٨) المرجع السابق نفسه، ص ١٩.

رابعًا – أعداء العروبة

أعـداء العروبة والوحـدة العربـيّة عـديدون، ومن كلّ نوعٍ ولون. هم المشكّكون بهـا، ألمتـخلّفون عـنها، ألإنعـزاليّـون، ألعاملون عـلى هدمهـا من الداخل. هم الذين قالوا بوجه منهـا وعدلوا عن مجملها. هم الذين دعـوا إليها في الظاهر، وعمـلوا على نقضهـا في الباطن. من الخـارج هم المستعـمرون، والمستـغلّون، هم الصهـاينة والامبـرياليّون. هم خُمـيْنِيُّو إيران، وفـينيقـيو لبنان، ونُصيـريّو سوريا، ودروز حوران ووادي التيم، وجـماهيريّو ليـبيا.. منهم مَن يدري شرَّه عليها، ومنهم مَن لا يدري. ولكلٍّ منهم دوافعه وأهدافه.

وإذا كان اليوم من خلل فيها فـذاك يعود إلى «عوامل عديدة قد يمكن تلخيصهـا في أربعة: رواسب القبليّة، واختلاف الأعـراق، والتخلّف الثقافي، ودسائس الأعداء»[٢٧]. ويمكن تلخيص الأربعة في واحدة:«العـصبيّة»، التي تجمع فيها كلّ أسباب التخلّف والتحزّب والاقتتال ورواسب التاريخ.

وقد تكون العصبيّة أقوى من الإسلام نفسه. فتلك تفرّق وهذا يجمع. وما يفـرّق ينتصـر دائماً وبسهـولة على مَن يجمع. يقـول هـ. هولما: «ومع الزمن، بدت طبائع العرب الفرديّة عاجزةً عن تحـمّل تعاليم محمّد العالميّة. إنّ التناقضـات أقوى ممّا ينبغي، وقـوّة الخصائص العـربيّة أكثر رسـوخًا من اللازم ولا تزول بسرعة»[٢٨]. وفي رأي غولدزيهر «إنّ محمّدًا لم يكن تعبيرًا عن نفسانيّة القوميّة العربيّة، بل نقيضـها»[٢٩].

---

(٢٧) سلّوم سركيس، ألعروبة بين الانعزاليّة والوحدة، ص ٢٧.

(٢٨) هـ. هولما، محمّد، نبي العرب (بالفرنسية)، ص١٠٧–١٠٨.

(٢٩) جواد بولس، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، ص ٧٥.

والعصبيّة العرقيّة، بالإضافة إلى اختلافٍ في جغرافيّة الأقطار المنتمية إليها، واختلافٍ في التقاليد والأعراف ومستوى العيش والثقافة، كلُّها تعمل في تشتّت العرب وتفرّقهم. ولم يكن الدِّين ليقدر عليها. بل إنّ الإسلام جاء فيما جاء إليه ليقضي على العصبيّة المتمكّنة بالعرب. يعني أنّه جاء ليشنّ على العروبة حرباً عنيفة. هذا ما أشار اليه مفكّرون من العرب أنفسهم، وبأسلوب واضح جدًا:

لقد وصف الدكتور محمّد رشاد خليل القوميّة العربيّة بأنّها «أعنف حرب على الإسلام والعروبة عرفها تاريخ الإسلام القديم والحديث»(٣٠). والقوميّة عنده مظهر من مظاهر العصبيّة الجاهليّة.

وفي رأي أبي الأعلى المودودي، «إنّه ليس لعنصر القوميّة حظٌ في إيجاد دولة الإسلام الفكريّة وتركيبها»(٣١)، أي «إنّ القوميّة تعني أن يحلّ الشعب منزلة الألوهيّة»(٣٢)، ويذهب بعيداً ليعتبرَ «القوميّة شركٌ باللّه وكفرٌ بالإسلام».

وفي رأي سيّد قطب إنّ القوميّة، عامّة، والقوميّة العربيّة، خاصّة، هي أحد الأصنام والطواغيت، مثلُها في ذلك مثلُ الاشتراكيّة والوطنيّة، لا بدّ من تحطيمها، حتّى نُخلِصَ التوحيدَ والعبوديّةَ للّه(٣٣).

وعند أبي الحسن الندوي إنّ القوميّة نبتٌ أوروبيّ، لادينيّ. وينكر أن يكون لها مكانٌ في فكر الإسلام وعالمه. فـ«الإسلام قد قسم العالم البشري

---

(٣٠) يدعو إلى «مصر العربيّة»، في مقال بعنوان: «شخصيّة مصر التاريخيّة»، في مجلّة «الدعوة»، عدد مارس آذار سنة ١٩٧٨.

(٣١) المودودي (ت ١٩٧٩م) في مقال: «نظرية الإسلام السياسيّة» في مجموعة «نظريّة الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور»، بيروت ١٩٦٩، ص ٧٥.

(٣٢) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، بيروت ١٩٧٥، ص ١٥٢.

(٣٣) سيّد قطب (ت ١٩٦٥) أنظركتابه في «معالم الطريق».

إلى قسمين فقط: أولياء الله، وأولياء الشيطان.. ولا مكان فيه للقوميّة وروابطها»[٣٤].

وعند سعيد حوّى، أحد مؤسّسيّ الإخوان المسلمين، إنّ «القوميّة العربيّة مسؤولة عن تمزيق المجتمع ، مفلسةٌ في الفكر، تحارب الإسلام في مَكرٍ وإصرار»[٣٥].

أمّا علي عبد الرازق فقد كان شرّ أعداء العروبة والقوميّة العربيّة والوحدة بين العرب. وهو لا يؤمن كثيرًا بعلاقة العروبة والإسلام، ولا بأنّ الإسلام جاء ليدعو إلى العروبة. بل يقول ويؤكد أنّه «ما كان الإسلامُ دعوةً عربيّة، ولا وحدةً عربيّة، ولا ديناً عربيًا. وما كان الإسلام ليعرف فضلاً لأمّة على أمّة، ولا للغة على لغة، ولا لقطر على قطر، ولا لزمن على زمن، ولا لجيل على جيل، إلاّ بالتقوى»[٣٦].

والذين اعتبروا الوحدةَ العربيّة تقوم على اللغة العربيّة والدِّين الإسلامي، وقفوا تجاه تطوّر اللغة العربيّة، وضدَّ عالميّةِ الإسلام. فأحمد لطفي السيّد كان أشدّ الدعاة إلى «تمصير اللغة العربيّة»، أي إلى اعتبار اللغة المحكيّة لغة مصر الرسميّة. بها يتفاهم الشعب، وبها يؤدّي فرائض العبادة. وزكي نجيب محمود يهزأ بالعرب الرجعيّين السَلَفِيِّين، ويقول بلسانهم ساخراً بهم: «إنّنا نطالب بالعودة إلى السلف في الراديو الذي لم يصنعه السلف»[٣٧]. وهكذا.

---

(٣٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، بيروت ١٩٦٥، ص ٢٠٤.

(٣٥) من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك، القاهرة ١٩٧٩، ص ٦٠-٦٥.

(٣٦) الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، القاهرة، مطبعة مصر، سنة ١٩٢٥، ص ٨١-١٠٣.

(٣٧) زكي محمود، في «العقل العربي يتدهور»، مجلّة روز اليوسف القاهرية ١١/ نيسان / ابريل/ ١٩٧٧.

إلاّ أنّ مواقف بعض الحكومات وسياساتها كانت أشدّ على العروبة من مواقف المفكّرين ونظرياتهم. فآية الله الخميني يهاجم صدّام حسين الذي يحارب إيران باسم القوميّة العربيّة. «قال الخميني في صباح ١٨ نيسان ١٩٨٠، عندما التقى بممثّلي لجنة التعبئة الوطنيّة الإيرانيّة: "إنّ الحكومة العراقيّة ليست حكومة.. وإنّ على كافّة الشعوب المسلمة أن تعرف معنى هذا الكلام (الذي قاله صدّام حسيني): " نحن عرب "، أي إنّنا لا نريد الإسلام. والعرب أرادوا، في وقتٍ ما، الوقوفَ في وجه الإسلام.. إنّ هؤلاء يريدون أن يُحيُوا عهدَ بني أميّة، كما يريدون العودة إلى ذلك العهد الجاهلي لتكون القوّةُ عربيّةً والنفوذُ للعرب»[٣٨].

والخميني يعني بذلك، مهاجمة صدام حسين، ومهاجمة العروبة التي قضى الإسلامُ عليها. وهذا ما يفسر «أبرز نقاط الخلاف بين إيران والعراق (وهو) الحطُّ من شأن القوميّة العربيّة، ومهاجمتُها، والتنديدُ بمبادئها، في حملاتٍ من الكراهيّة موسَّعة»[٣٩]. ولهذا السبب وقفتْ جميع الدول العربيّة إلى جانب العراق في حربٍ ضروسٍ دامت أكثر من سبع سنين.

ولسنا نعلم حتّى اليوم، إذا كان العلويّون النصيريّون والدروز هم عرب ويعملون من أجل العرب أم غير ذلك!!!

***

وبقي للعروبة عدوٌّ خارجيٌّ، سمّاه العرب «الاستعمار»، وهو يتمثّل بكثيرين، بالصهيونيّة والانعزاليّة، والأمبرياليّة، والشيوعيّة، والعلمنة، وجملَ بعضُ المفكّرين أساليب الاستعمار هذا بالمحاولات «للفصل المفتعل» بين العرب بالأمور التالية:

---

(٣٨) أنظر كتاب «الصراع العربي الفارسي، وبخاصة ص ٣٦.

(٣٩) المرجع السابق نفسه، ص ٣٣.

١. «محاولة إذابة وتمييع المنطقة العربيّة في كيان أكبر هو ما يسمّى عادة بالشرق الأوسط، والتشكيك في مفهوم القوميّة العربيّة،

٢. محاولة الفصل المستمرة بين مشرق الأمّة العربيّة ومغربها،

٣. محاولة الفصل بين الشعوب العربيّة والشعوب الإسلاميّة الأخرى،

٤. دعم وتوطيد الكيان الاستيطاني الصهيوني في فلسطين،

٥. تشويه الحضارة الإسلاميّة والطابع القومي العربي»(٤٠).

ومنذ القديم كان الاستعمار بشتّى ألوانه يعمل في هدم القوميّة العربيّة، وفي تقسيم الأمّة العربيّة. فمنذ «أهل الرِّدّة»، إلى «المردة»، إلى «الحركات الشعوبيّة»، و«الخرَّميَّة»، إلى «الدرزيّة»، و«النُّصَيريّة»، إلى «القرامطة» و«الاسماعيليّة»، إلى حكم «المماليك» و«المغول»، إلى«الحروب الصليبيّة»، إلى «الحكم العثماني»، إلى «عهد الانتداب»، إلى ألوان الاستعمار الحديث... كلّها تعمل في تشتيت العروبة وتجزئتها..

ولم تنهضِ القوميَّة العربيّة إلاّ بعد أن «خاضَ المسيحيّون العربُ معركةَ القوميّة العربيّة.. وذلك لمقاومة التتريك من جهة، ومن جهة ثانية لمقاومة كلِّ محاولةٍ يقوم بها المرسَلون الكاثوليك الغربيّون لحملهم على تبنّي الطقوس والفرائض الدينيّة اللاّتينيّة.. وكان أكثر القائلين بالعروبة الأرثوذكس العرب، وذلك لتحكّم عائلاتِ الفنار اليونانيّة بهم منذ القرن السابع عشر. وقد فرض اليونانيّون سلطتَهم الكهنوتيّة على الكنيسة جمعاء»(٤١).

---

(٤٠) د. علي الدين هلال، في تعقيبه على منير شفيق، «موقف القوى الخارجيّة وتحرّكها في مواجهة العروبة والإسلام »، «في القوميّة العربيّة والإسلام»، ص ٧١٤.

(٤١) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٣٢٦.

وكان من روّاد هذه القوميّة العربيّة بطرس البستاني، الذي قال، في محاضرةٍ له، بكيان إسمه «العرب»، وبشيء ينتمي إليه إسمه «الثقافة العربيّة».

وجاء بعده إبراهيم اليازجي الذي قال في قصيدةٍ شهيرة: إنّه على العرب أن يتذكّروا عظمتهم الماضية وأن يستيقظوا. وله في «الجمعيّة السرّيّة» بيان بـ «العزّة العربيّة».

ثمّ جاء جرجي زيدان، وكان من أكثر الذين عملوا على إحياء وعي العرب لماضيهم وحضارتهم.

ثمّ جورج سمنه، وشكري غانم، وقسطنطين زريق الذي كتب سنة ١٩٣٩، كتاباً عن «الوعي القومي»، وأدمون ربّاط القائل بـ «الوَحدة السوريّة والمصير العربي»، ولكنّه يعتقد بان ليس هناك أمّة سوريّة بل أمّة عربيّة.. وكثيرون آخرون.

خاتمة الفصل السادس

إنّ انتفاضةَ العروبة، من وقتٍ إلى آخر، هي دلالة على أنّ النبيّ لم تعطَ له فرصةُ تخليصِ الإسلام من شوائبها الكثيرة. ولو أُعطي للنبيّ ذاك الحظّ لكان حرّر الإسلام من عبوديّةٍ تلاحقه منذ البدء، وسوف تلاحقه إلى الأبد. فالعروبة، بهذا المعنى، هي «خطيئة الإسلام الأصليّة»، ونير عارِه المشين. فكيف يكون إسلامٌ عزيزَ الجانب، والقيّمون عليه عرب؟! كيف تكون وحدةٌ إسلاميّةٌ، والدّاعون إليها عرب! بل كيف يرقى الإسلام ويتعمّق الايمان به، والعرب يحملون لواءه؟! «قالتِ الأعرابُ آمَنّا. قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا. وَلَكِنْ قُولُوا: أسْلَمْنَا. وَلَمَّا يَدخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ.. إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الذينَ آمَنُوا باللّهِ ورَسولِه، ثمَّ لَمْ يَرْتابُوا، وَجَاهَدُوا بأمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فِي سَبيلِ اللّهِ. أولئكَ هُمَ الصَّادِقُون»[٤٣].

ألعرب مطيّةُ المسلمين ومركبهم في الفتوحات. هم جوع المسلمين الفاغر فاه ليبتلع خيراتِ بلاد الشام. «ألجوع هو الذي دفع بالعرب على طرق الفتح»[٤٤]. وقد عبّر المغيرة بن زرارة ليزدجرد ملك فارس بقوله: «وأمّا جوعنا فلم يكن يشبه الجوع؛ كُنّا نأكل الخنافسَ والجعلان والعقارب والحيّات، فنرى ذلك طعامَنا.. دينُنا أن يَقتلَ بعضُنا بعضاً، ويُغير بعضُنا على بعض. وإنْ كان أحدُنا لَيَدفنَ ابنتَه وهي حيّةٌ كراهيّةَ أن تأكلَ من طعامِنا»[٤٥].. فهل يبقى الإسلام يعتمد على «جوع العرب»، إلى الأبد، لتتمّ له

---

(٤٣) سورة الحجرات ٤٩/ ١٤–١٥.

(٤٤) مونتجومري وات، محمّد في مكّة، ص ٢٠.

(٤٥) تاريخ الطبري، ٣/ ٤٩٩، وأيضاً: ٤/ ١٤٢، ٣/ ٥٧٤.

الفتوحات؟!. هل ذِلُّ العرب، الذي حذّر منه النبيّ في قوله: «إذا ذُلَّ العربُ ذُلَّ الإسلام»، والذي لحق بهم، يَعني حقًّا ذِلَّ الإسلام! نخشى ذلك أيضًا.

ولكنّ أحداثَ التاريخ العربي لم تبدِّدْ خشيتَنا. لقد لحق بالعرب ذلٌّ ما بعده ذلّ. منذ استئثار الفرس والترك بدولة بني العبّاس، ومنذ نشاط الشعوبيّة والبابكية والخرّميّة والمزدكيّة والزرادشتيّة والقرمطيّة والكرديّة واليزيديّة والنُّصَيريّة والدرزيّة، حيث وُضعتْ كتبٌ في «مثالب العرب»[٤٦]، وحيث قيل «ألعربي بمنزلة الكلب، إطرح له كسرةً ثمّ اضربْ رأسَه بالدبّوس»[٤٧]، وحيث أنشد الشعراء يقولون:

ومَن تميمٌ! ومَن عكل! ومَن يمن! ليسَ الأعاريبُ عندَ اللّهِ مِن أحَدِ[٤٨].

وقال أبو العتاهية هاجياً مَن يدّعي نسبَه العربي:

أنتَ عندي عَربـيٌّ	ليسَ في ذاكَ كلام
عربـيٌّ عربـيٌّ	عربيٌّ والسلام
شَعرُ أجفانِكَ قيصومٌ	وشِيحٌ وثمام[٤٩]

منذ ذلك الحين أصبحت العروبة على الإسلام ذلاً ومهانة، تشدّ به إلى الوراء. وقد عجز الإسلامُ بشدِّ العربِ للالتحاق بركب الحضارات التي فتحتْ أمامهم، فاستغنوا عنهم بالسريان لنقل العلم والطبّ والفلسفة.

ثمّ هل صار تحكُّمٌ برقابِ العرب كمثل الذي صار أيّام المماليك والمغول والتتار! ومنهم مَن أعلنَ بملء فمه: أنّ «العرب وقد كثر فيهم الغدرُ

(٤٦) الجاحظ، كتاب الحيوان، ٤/٤٤٨-٤٤٩.
(٤٧) تاريخ الطبري، ١٠/٣٦٧.
(٤٨) أبو النّواس يتحكّم بالعرب ويستفزّهم ويسخر بهم.
(٤٩) القيصوم الشيخ والثمام، نباتات برية يتداوى بها.

وقلّة الوفاء بالذمامات، وقد أذلّوا جارَهم بعد العزّ، وخانوا في الرفائق والأمانات. وأهل الديانة منهم أيضًا قليل»[٥٠].

وهل مَن يتجاهل فصولاً بكاملها عن ذلّ العرب في مقدّمة ابن خلدون التاريخيّة! وهل أيضاً مِن قهرٍ لم يحصل لهم منذ عهود الفارسيّين والأتراك والصليبيّين والعثمانيّين والفرنسيّين والسوفيات والأميركان والإسرائيليّين!!! هل هذا كلّه يعني ذلّ الإسلام وقهرَ المسلمين؟! معاذ اللّه!

ألحق يقال: إنّ العروبة، كما كانت من قبل، وكما وصلت إليه اليوم، لا تستطيع اللحاقَ بالإسلام بحالٍ من الأحوال، ولا تستطيع استيعابَه. «الإسلام يتخطّى أيّ حاجزٍ قوميٍّ أو وطنيٍّ أو دوليّ. ألعروبة تيّارٌ قوميٌّ سياسيٌّ لا يمكن أن "يستوعب" الإسلام (ألأدنى لا يستوعب الأعلى)، ويشمل جميعَ مسلمي العالم»[٥١].

ثمّ ماذا يعني، اليوم، القولُ بـ «القوميّة العربيّة»، و«الوحدة العربّة»، و«العالم العربي، و«الوطن العربي»؟! هل هذا يعني وجود جنسٍ عربي له هويّته وإثنيّته ولغته وعصبيّته وأصالتُه! وقد رأينا نفي ذلك بألفِ دليل.

أم يعني وحدة الدِّين والعقيدة المتمثّلة بالإسلام! وقد بيّنّا براءة الإسلام من أثواب العروبة، و«هِجْرَتَه» منها هجرةً أبديّة.

أم يعني أيضاً حيلةً عند بعض المسلمين لاصطياد غيرِ المسلمين إلى الإسلام بطريقة العروبة غير المباشرة! وقد انكشفتِ الحيلةُ منذ أن حيكتْ خيوطها.

---

(٥٠) رسائل الحكمة، ٦٨/ ٥٤٩.

(٥١) أمين ناجي، لن نعيش ذمّيّين...، ص ٩١.

أم يعني أخيرًا حنيناً دفيناً كـامناً في النفس البشـريّة هو كالحنين إلى مرحلـة الطفولة، يرغب الإنســان أحيـاناً العودةَ إليـها لما فـيها من بـساطةٍ وبداوةٍ وحياة بدائيّةٍ تستفـيق مدّةً بعد مدّةٍ من الدهر، فينعم بعض العائدين إليها ولو لبرهةٍ من زمنٍ يسير! ولكنّ مدّةَ هذا الزمن طالتْ حتى باتتْ مرضاً شفاؤه عسير.

ثمّ أيضًا ماذا يعني قولُ أحدِ العروبيّين المصـرّين إنّ «القوميّة العربيّة تمتاز عن القـوميّات الأخـرى بعلوّ مكانتهـا الروحيّة في تـكوينها. ذلك لأنّ الأديان السمـاويّة السائدة اليوم –الإسلام والمسـيحيّة– نزلت في بقـاعها.. ولا أعدو الحـقيقـة إذا قلت: إنّ هذه القيم الروحـيّة هي التي ستـكفل النصرَ للقوميّة العربيّة في كلِّ المبادئ»[٥٢] ! هل هذا يعني فعلاً وجودَ قوميّة عربيّة؟ أم يعني نداء صـارخاً لإنشاء مـثل هذه القومـيّة؟ في الحقـيقـة إنّ مثل هذه القوميّة لم يكن يوماً موجوداً في التاريخ. والنداء إلى إنشائها يعني ما يلي:

١. إنّه يعني قوقعة الإسلام، رغم عالميّته، في قوميّة ضيقّة، وفي بيئةٍ خاصّة معيّنة؛

٢. ويعني أيضـاً تبريراً للاستـعمـار، الذي، بدل أن يكون إمبـرياليًا وصهيونيًا وصليبيًا، يصبح عربيًا؛

٣. ويعني كـذلك عدم احـتـرام المساواة بين أمم الأرض وشـعوبهـا، بتفضيل شعب على شعب، وأمّة على أمّة؛

٤. ويعني أيضـاً تبـرئة اليهـوديّة من انتـسابهـا إلى اللّه كـ «شـعب مخـتار»، خصّه الـلّه بما لم يخصّ به أيَّ شعبٍ من شعـوب الأرض، فيكون وحده، من بينها جميعها، محظوظاً، وتكون هي مرذولةً محتقرَة؛

---

(٥٢) محمد عبد الله العربي، ديمقراطية القومية العربيّة، ص ٢٦ /

٥. ويعني أخيراً العودة، ضمناً، إلى عهد الفتوحات، بما في الفتوحات من جهاد مقدّس، واقتلاع أمم وحضارات من مواقعها، واحتلال أرض باسم اللّه والدِّين، واستمراء أموال البشر بـ «أخذ المغانم»، واستمتاع الرجال المجاهدين بنساء الشعوب وفتياتهم، وأخذهنّ سبايا يتقاسمونهنّ كاقتسامهم المغانم والأموال.. وما إلى ذلك.

وأخيراً نسأل ونحن نجاري منطق القوميّين العروبيّين أنفسهم، لماذا تُحارب الصهيونيّة، اليوم! أليست لأنّها قامتْ بقوميّةٍ يهوديّة على أرضٍ عربيّة؟ ولماذا حورب الاستعمار في الأمس القريب! أليس أيضًا لأنّه يحتلّ أرضًا ليست له؟ ولماذا قامت قيامة اللبنانيّين على الدولة العثمانيّة، أليس لأنّ تركيا ابتلعتْ أقواماً آخرين دون الاعتراف بحقٍّ وجودهم وحريّتهم؟.. ألا يكون الشيء نفسه بالنسبة إلى القوميّة العربيّة التي تُفرض على جماعاتٍ تأباها وترفضها إذ هي لا تنتمي إليها، ولا تقرّ بوجودها، في التاريخ، ولا تؤمن أيضاً بإمكانيّة أو فاعليّة لهذا الوجود المصطنع.

إنّ أفضل حجّة يقدّمها القوميّون العرب للقوميّة الصهيونيّة هو القول بالقوميّة العربيّة. وأفضل دليل على قيام القوميّة الصهيونيّة على أرض ليست لها هو القول بقيام قوميّة عربيّة على أراض وأوطان ليست لها. فكيف يجيز القوميّون القول بالقوميّة العربيّة على أرضِ مصر والسودان والمغرب والجزائر وموريتانيا والصومال، وسوريا ولبنان والأردن والعراق وفلسطين، ولا يجيزون القولَ بالقوميّة الصهيونيّة على أرض يهوده والسامره وجبل صهيون وسواها!!

إنّ العروبيّين، على ما يبدو، يقدّمون، من دون علمٍ منهم، الحجّة الدامغة لأعدائهم، ليكون أعداؤهم متحكّمين برقابهم ومستحكمين بإذلالهم. فهل هذا كلّه يعني الإسلامَ في شيء!! معاذ اللّه. ألعروبة لا تَعي ذاتها إلاّ بدافعٍ من خارج، ولا تنهض من كبوتها إلاّ بـ «ردّة فعل»، ولا تستيقظ من

سباتهـا إلاّ بصدمة من عدوّ أو هزيمةٍ في معركـة ... فهل هذا يعني الإسلامَ في شيء! وهل نقول عن الإسـلام ما حلا للقـوميين قولُه عن عـروبتهم من تعابير، مثل: «يَقَظة عربيّة»، أو «وعي عربيّ»، أو «نهضة عربيّة»!

وهل نغتصب الناسَ للإسلام كما يغتصب العـروبيّون عروبيَّـتهم فيلـصقونهـا على كلِّ شيء، حـتى تبدو «الأفـران عربيّة»، و«الإبـل والخيل عربيّـة»، و«الجمـاهير الغفـيرة عـربيّة»، و« القـضيّة الإنسـانيّةعـربيّة»، و «الحرية عربيّة»، والقِيم جميعهـا، بأمِّها وأبيها، عربيّة... هل يجوز ذلك على الإسلام!! معاذ اللّه أيضاً وأيضاً.



خاتمة البحث

ألعروبة ذبحة في قلب النبيّ

كانت العروبة حيث نشــأت في «غربي الفرات»، مع الأراميّين، ثمّ مع المناذرة والغساسنة، في الحِيرة والأنبار، ثمّ في جبل حوران، ومختلف بلاد الشام، تتـصـّف بـ «الحضارة»؛ وتدين بالعقـيدة المسيحـيّة؛ وتتميّز بقـلمها المشتقّ مباشرة من القلمَين النبطي والأرامي؛ وتكـّون «لغة» سمّيت «غربيّة»، أي «عربيّة»، باسم المواقع الجغرافيّة للناطقين بها؛ وتحمل معها العلم والفكر والشعر والأدب..

ثمّ زحفتِ «العروبة»، أوّل ما زحـفتْ، بلغتها مع بعض هؤلاء الناطقين بها صوب الجنوب، إلى الجزيرة الصحـراويّة، حيث مكّة والحجاز، وتكلّمتْ بها بعضُ قـبائل البادية وعشـائرها؛ لأنّها كانتْ وسيلةَ التّـجارة الأولى بين قريش وبلاد الشـام، ووسيلةَ البشـارة المسيحـيّة إلى سكّان الخيـام ورعاة الأنعام؛ انتفـعتْ بها قريشٌ لتحـصيل عيشِـها، والتزام إيمانها في أسـواقها التجاريّة والأدبيّة الشهيرة.

وهكذا تطعّمتِ اللغـة «العربيّة» ببعض لغـات القبائل ولهجـاتها، مثل الثمـوديّة واللّحيـانيّة والدّيدانيـّة والصّفـويّة، وغيـرها؛ فزيد عليـها مـعانٍ ومفرداتٍ ما زلنا نلمسـها في آيات القرآن، وقد أشار إليها علماء مسلمون..

وفي البادية، مع البدو و«الأعـراب»، قصّرتِ اللغةُ عمّـا كانت عليه في منابعها الأصيلة، وجمدتِ «الحضـارة» التي كانت تحملها، وتنوّعت العقيدة الدينيّة بتنوّع أصول الناطقين بها وأعراقهم. فأصبحت «البداوة» تقف بوجه «الحضارة» و «الجـهل» بوجه «العلم»؛ و«الفِرق» الدينيّة، الـتي أشار القرآنُ إلى تعدّدها، تعـمل في هدم الإيمان الحنيف؛ والتقـاليد البـدوية تصدّ الناس عن ممارسة شعائر «الدين القيّم»[1]، أو «دين القيّمة»[2]..

وهكذا، وبعـد أكثـر من قرنين من دخـول «العربيّـة الحضـاريّة» إلى نواحي الصحراء، أصبـحت «العروبة» تعني «البداوة» و«التخلف»[3]... وعند مجيءِ الإسـلام، كانت «العروبة» في أوج تبـدّيها. فمـا كان على النبيّ إلاّ أن يتصدّى لها، ثمّ «يهجرها». واعتبر العودةَ إليها، بعد الإسلام، إحدى الكبائر، وحكْمَ العائد إليها كحكمِ المرتدِّ عن الإسلام.

***

لقـد كانت «العـروبة»، إذاً، في المسـيحـيّة «حـضارة»، وعند مـجيء الإسـلام «بداوة». فهل هذا يعني، اليـوم، وجـوب عودة المسـيحـيين إليهـا وتمسّكهم بهـا! ووجوب «هجـرة» المسلمين منها ورفـضهم لـها!! لقـد عاد المسيحيّون إليها، فيما بعد الإسلام، ونهضوا بها من جديد، ونقلوا إلى لغتهم جميعَ علوم اليونان.

ثمّ بعد مدّة طويلة من الزمن، عـادوا إليها؛ ونهضوا بها نهـضةً أدبيّةً عالية؛ ورفعوا لواءها انتقاماً من القوميّة العـثمانيّة، وكتبوا تاريخها، وأقاموا

---

(١) رَاجع : سـورة الروم ٣٠/ ٣٠ ؛ سـورة التـوبة ٩/ ٣٦؛ سـورة يوسف ١٢/ ٤٠ ؛ سورة الروم ٣٠/ ٤٣.

(٢) رَاجع : سورة البيّنة ٩٨/ ٥.

(٣) رَاجع : أوصاف «الأعراب» في القرآن في أمكنة عدّة من هذا البحث.

صروحها.. فاستحلى المسلمون هاتَين النهضة والقوميّة، فتبنّوا «العروبة» الحديثة؛ وراحوا وربطوا بينَها وبين الإسلام، برباط «عضويّ جذريّ تكويني»؛ ونسوا أنّ النبيّ هجرَها، وقاومها؛ والإسلامَ حاربها وانتصر عليها.

فما يكون القاسم المشترك إذاً بين المسيحيّين والمسلمين بالنسبة إلى العروبة؟ هل تكون اللغة؟ واللغة في أصلها ومصدرها ومعانيها وقلمها مسيحيّة؟ وهل تكون القوميّة؟ والقوميّة العربيّة لا تعتمد على إثنيّة واحدة ولا على عرقٍ معيّن؟ وهل تكون وحدة المصير؟ والمصير العربي في مهب الريح وبين أيدي الأعداء؟ وهل تكون الفتوحات؟ والفتوحات كالحملات الصليبيّة التي لا يطيب ذكرها أبداً؟ وهل تكون هجرةً من مناطق الجوع والبؤس وجدب الأرض؟ وهل يكون التاريخ، والتاريخ تاريخ فرس وأتراك ومغول و تتار ومماليك واستعمار وانتداب، وما إلى ذلك؟

أين هي العروبة اليوم؟ أفي موريتانيا، والصومال، والجزائر، وتونس، والمغرب، ومصر، والسودان؟ أم في لبنان، وسوريا، وفلسطين، والعراق، والأردن؟ أم في اليمن التي رفضت العروبة منذ أن تحضّرتْ وأصبح فيها ممالك ودول لا ذكر فيها لعربيٍّ واحد؟

على أيّة عروبة يتكلّم العروبيّون اليوم؟ أعلى عروبة سكّان غربيِّ الفرات المسيحيّة المتحضّرة؟ أم على عروبة الأعراب والبدو التي هجرها الإسلام؟ أم على عروبة الجوع والفقر والتخلّف التي زحفت مع الإسلام من مكّة والحجاز إلى بلاد الشام والهلال الخصيب؟ أم على تلك العروبة التي اصطدمت بجبال سنجار وجبال لبنان وجبال طوروس، وحضارات ما بين النهرين... حيث منع الأكرادُ والفينيقيّون والمغول والأشوريّون والسريان والأرمن دخولها إليهم؟!

أللّهم يبقي واحدة. إذا كانت العروبة حنيناً إلى البداوة وحياةِ الطفولة البدائيّـة، فالعالم كلُّه عرب. أمّـا إذا كانت العروبة نمطَ حـياةٍ دائم، فليس من إنسـانٍ واحـدٍ يطيب له الرجوعُ إليهـا، والعيشُ في حمـاها. إنّ الذين يحنّون إلى أيّام الطفولة الساذجة، وحدَهم، يحقّ لهم العودة إلى عروبتهم والافتخار بها. غير أنّ العودة بعد « الـهجرة» و«الفتح» إلى زمن العروبة لهي طعنة في صدر الإسلام وذبحةٌ في قلب النبيِّ.

المصادر والمراجع

١) إبراهيم (سعد الدين)، إتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت ١٩٨٠.

٢) أبو النجا (د. السيد)، عروبتنا سنة ٢٠٠٠، دار الشروق، بيروت ١٩٨٣، ٩٦ ص.

٣) أركون (محمّد)، الفكر العربي، ترجمة الدكتور عادل العوّا، سلسلة زدني علماً، رقم ١٧٧، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ١٩٨٢، ١٨٤ص.

٤) الألوسي (محمود شكري)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣ مجلدات، تحقيق محمّد بهجة الأثري، المطبعة الرحمانيّة بمصر، ١٩٢٥.

٥) ألأهواني (أحمد فؤاد)، القوميّة العربيّة، المكتبة الثقافيّة، ١٩٦٠.

٦) أوليري (دي لاسي)، الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ترجمة الدكتور تمام حسان، القاهرة ١٩٦١. وترجمة ثانية لإسماعيل البيطار، بعنوان: «الفكر العربي ومركزه في التاريخ»، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢، ٢٨٠ص.

٧) باسيل (محمّد أحمد)، ألعرب في الشام قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت ١٩٧٣، ٢٣٢ص.

٨) بروكلمان (كارل)، تاريخ الشعوب الإسلاميّة، نقله إلى العربيّة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٩، ١٩٨١، ٩٠٤ ص.

٩) ألبزّاز (عبد الرحمن)، الإسلام والقوميّة العربيّة، بغداد، ١٩٥٢.

١٠) ألبزّاز (عبد الرحمن)، من وحي العروبة، القاهرة، ١٩٦٠.

١١) بليابيف (ي.أ.) E.A.BELYAYEV، ألعرب والإسلام والخلافة العربيّة، نقله الدكتور أنيس فريحه، راجعه وقدّم له الدكتور محمود زايد، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٣، ٣٤٨ ص.

١٢) ألبهي (دكتور محمّد)، العلمانيّة والإسلام بين الفكر والتطبيق، القاهرة ١٩٧٦.

١٣) بولس (جواد)، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عوّاد للطباعة والنشر، بيروت، بلا تاريخ، ٤٣٦ ص.

١٤) بيرجر (مورو)، العالم العربي اليوم، ترجمة محيي الدين محمّد، دار مجلة شعر، بيروت ١٩٦٣، ٣٦٤ ص.

١٥) توما (الدكتور إميل)، العمليّة الثوريّة في الإسلام، دار الفارابي، بيروت ١٩٨١، ١١٢ ص.
١٦) ألجاحظ (أبو عثمان عَمرو بن بحر)، ألحنين إلى الأوطان، سلسلة اللغة والآداب، ١، دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٢، ٤٨ ص.
١٧) جب (هاملتون)، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة د.إحسان عباس، ود.محمّد يوسف نجم، ود.محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤، ٤٦٠ ص.
١٨) حاطوم (نور الدين)، محاضرات عن حركة القوميّة العربيّة، معهد الدراسات العربيّة، القاهرة، ١٩٦٧.
١٩) حتّي (الدكتور فيليب)، والدكتور أدوار جرجي، والدكتور جبرائيل جبّور، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط ٥، ١٩٧٤.
٢٠) ألحصري (ساطع)، آراء وأحاديث في القوميّة العربيّة، دار العلم للملايين، ١٩٥١.
٢١) ألحصري (ساطع)، ما هي القوميّة؟ دار العلم للملايين، ١٩٥٩.
٢٢) ألحصري (ساطع)، آراء وأحاديث في الوطنيّة والقوميّة، القاهرة، ١٩٥٤.
٢٣) ألحصري (ساطع)، محاضرات في نشوء الفكرة القوميّة، القاهرة، ١٩٩٥ .
٢٤) ألحصري (ساطع)، ألبلاد العربيّة والدولة العثمانيّة، بيروت، ١٩٦٠.
٢٥) ألحصري (ساطع)، ألدولة بين دعاتها ومعارضيها، بيروت، ١٩٥٧.
٢٦) ألحصري (ساطع)، أبحاث مختارة في القوميّة العربيّة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤.
٢٧) حنّا (جورج)، معنى القوميّة العربيّة، بيروت ١٩٥٩.
٢٨) ألحوت (محمود سليم)، في طريق الميتولوجيا عند العرب، بحث مسهب في المعتقدات والأساطير العربيّة قبل الإسلام، دار النهار للنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩، ٣٠٨ ص.
٢٩) حوراني (ألبرت)، ألأقليّات في العالم العربي، مطبعة جامعة أوكسفورد، لندن، ١٩٤٧.
٣٠) حوراني (ألبرت)، ألفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، دار النهار للنشر، ط ٣، بيروت، ١٩٧٧، ترجمَه إلى العربيّة كريم عزقول.
٣١) خاكي (أحمد)، فلسفة القوميّة العربيّة، سلسلة اخترنا لك، الكتاب ٥٥ القاهرة.
٣٢) الخالدي (الدكتور طريف)، دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، دار الطليعة، بيروت ط ٢، ١٩٧٩، ١١٢ ص.
٣٣) خزعل (حسين خلف الشيخ)، تاريخ الجزيرة العربيّة في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مطابع دار الكتب، بيروت، ط ٣، ١٩٧٢، ٤٥٦ ص.

٣٤) خلف الله (محمد أحمد)، عروبة الإسلام، ألمستقبل العربي، ٢ تموز ١٩٧٨، ٢٩-٣٩ ص.
٣٥) خليفة (نبيل)، الكتائب وعروبة لبنان، بحث علمي في هويّة لبنان من منظور كتائبي، جـ ١، ١٩٨٣، بيروت، ٢٢٤ ص.
٣٦) ألخوري (الياس)، جورج خضر، طريف الخالدي، إدمون ربّاط، قسطنطين زريق، رضوان السيّد، وجيه كوثراني، ألمسيحيّون العرب، دراسات ومناقشات، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٨١، ١٥٢ ص.
٣٧) ألخوري (بولس)، ألتراث والحداثة، مراجع لدراسة الفكر العربي الحاضر، دراسات الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٣، ٢٨٢ ص.
٣٨) داود (الأب جرجس داود)، أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، السلسلة الأدبيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨١، ٢٩٢ ص.
٣٩) دروزة (محمّد عزّة)، تاريخ الجنس العربي، ٨ أجزاء، المكتبة العصريّة، صيدا-بيروت، ١٩٨٣.
٤٠) دروزة (محمّد عزّة)، ألوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٥٧.
٤١) دروزة (محمّد عزّة)، عصر النبيّ وبيئته قبل البعثة، دار اليقظة العربيّة، بيروت، ١٩٦٤، ٨٤٨ ص.
٤٢) دروزة (محمّد عزّة)، عروبة مصر قبل الإسلام وبعده، المكتبة العصريّة، صيدا-بيروت، ط ٢، ١٩٦٣، ٢٠٠ ص.
٤٣) الدواليبي (معروف)، ألقوميّة العربيّة في حقيقتها، كتب قوميّة، عدد ٩، ١٩٥٩.
٤٤) الدوري (د.عبد العزيز)، ألجذور التاريخيّة للشعوبيّة، دار الطليعة، ط ٣، ١٩٨١، ١٠٣ ص.
٤٥) الدوري (د. عبد العزيز)، ألجذور التاريخيّة للقوميّة العربيّة، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
٤٦) ديكسون (هـ.ر.ب.)، عرب الصحراء، آلن، لندن، ١٩٤٩.
٤٧) الرازق (علي عبد)، الإسلام وأصول الحكم، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٢٩.
٤٨) الرافعي (عبد الرحمن)، تاريخ الحركة القوميّة، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٢٩.
٤٩) الرزّاز (منيف)، تطوّر معنى القوميّة، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
٥٠) الرزّاز (منيف)، معالم الحياة العربيّة الجديدة، دار العلم للملايين، ١٩٥٩.
٥١) رضوان (أبو الفتح)، ألقوميّة العربيّة، ألقاهرة، ١٩٦٥.
٥٢) الريماوي (عبد الله)، ألمنطق الثوري لحركات القوميّة العربيّة، ألقاهرة، ١٩٦١.

٥٣) رفلة (فيليب)، وآخرون، جغرافية الوطن العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.

٥٤) زريق (د. قسطنطين)، مطالب المستقبل العربي، هموم وتساؤلات، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣، ٢٧٢ ص.

٥٥) زَيدان (جرجي)، ألعرب قبل الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦، ٣٤٤ ص.

٥٦) زَيدان (د. محمّد مصطفى)، وإبراهيم عبدالله آدم، ألقوميّة العربيّة بين التحدّي والاستجابة، دار مكتبة الأندلس، بنغازي، ليبيا، ١٩٧٣، ٣٤٤ ص.

٥٧) زَيدان (د. محمّد مصطفى)، ألقومية العربيّة بين القوميات والمذاهب السياسيّة المعاصرة، منشأ المعارف بالإسكندرية، ١٩٦٦.

٥٨) سالم (السيد عبد العزيز)، تاريخ العرب في عصر الجاهليّة، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٧١.

٥٩) سالم (أحمد موسى)، ألعقل العربي ومنهج التفكير الإسلامي، دار الجيل بيروت ١٩٨٠، ٣٤٤ ص.

٦٠) سالم (أحمد موسى)، لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب؟ دار الجيل، بيروت ١٩٧٧، ٣٣٦ ص.

٦١) سركيس (سلّوم)، ألعروبة بين الانعزاليّة والوحدة، دار المتوسّط للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٥، ١٦٤ ص.

٦٢) سركيس (سلّوم)، ألمآسي المعاصرة والمصير العربي، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣.

٦٣) سعيد (أحمد)، ألقوميّة العربيّة. ثورة وبناء، ألشركة العربيّة للطباعة والنشر ، ١٩٥٩، ٣٧٤ ص.

٦٤) سيديو، خلاصة تاريخ العرب العام، مطبعة محمّد أفندي مصطفى بمصر ١٣٠٩هـ.

٦٥) الشامي (صلاح الدين)، ألوطن العربي، دراسة جغرافيّة، ألقاهرة، ١٩٧٣.

٦٦) ألشريف (أحمد إبراهيم)، مكّة والمدينة في الجاهليّة وعهد الرسول، دار الفكر العربي، ألقاهرة، ١٩٦٥، ٥٨٦ ص.

٦٧) ألشهابي (مصطفى)، محاضرات عن القوميّة العربيّة، تاريخها، قوامها، مراميها، ألقاهرة، ١٩٥٩.

٦٨) شوقي (عبد المنعم)، وعلي فؤاد أحمد، ألمجتمع العربي والقوميّة العربيّة، مكتبة نهضة مصر، ألقاهرة، ١٩٦٤.

٦٩) الشيباني (أحمد)، ألأسس الثوريّة للقوميّة العربيّة، دمشق، ١٩٥٨.
٧٠) الصائغ (نبيل الطواهرة)، ألأحكام الدستوريّة للبلاد العربيّة، منشورات دار الجامعة، بيروت، بلا تاريخ، ٣٥٠ ص.
٧١) صايغ (د.أنيس)، ألفكرة العربيّة في مصر، مطبعة هيكل الغريب، بيروت، ١٩٥٩.
٧٢) صعب (د.حسن)، تحديث العقل العربي، دراسات حول الثورة الثقافيّة اللأزمة للتقدّم العربي في العصر الحديث، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٧٢، ٢٣٢ ص.
٧٣) الصلح (منح)، الإسلام وحركة التحرّر العربي، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط ٤، ١٩٤٩، ١٠٤ ص.
٧٤) صليبا (جميل)، تيّارات الفكر في سوريا ولبنان، هيئة الدراسات العربيّة العليا، ألجامعة العربيّة، القاهرة، ١٩٥٨.
٧٥) ألطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٠ أجزاء، سلسلة ذخائر العرب ٣٠، دار المعارف بمصر، ط ٤، ١٩٧٩، ملحق بـ «ذيول تاريخ الطبري».
٧٦) طربين (أحمد)، ألوحدة العربيّة بين ١٩١٦–١٩٤٥، معهد الدراسات العربيّة، ألقاهرة، ١٩٥٩.
٧٧) طربين (أحمد)، ألوحدة العربيّة في تاريخ المشرق المعاصر، دمشق، ١٩٧٠.
٧٨) طعيمة (صابر)، تحدّيات أمام العروبة والإسلام، دار الجيل بيروت ١٩٧٦.
٧٩) الطيباوي (د.عبد اللطيف)، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، دار الاندلس بيروت، ط ٢، ١٩٧٩، ٣٥٢ ص.
٨٠) عبد المجيد (سعد زغلول)، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٧٦.
٨١) عبد الحيّ (عبد الله)، ألمجتمع العربي، أبعاده ومقوّماته، ألأنجلو المصريّة، ألقاهرة، ١٩٦٨.
٨٢) العدوى (إبراهيم أحمد)، حركات التسلّل ضد القوميّة العربيّة، المكتبة الثقافيّة، القاهرة، ١٩٦٠.
٨٣) العربي (د.محمد عبد الله)، ديمقراطية القوميّة العربيّة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهوريّة العربيّة المتحدة، مكتبة النهضة المصريّة، ط ٢، ١٩٦١، ٢٤٠ ص.
٨٤) العريني (السيّد الباز)، وآخرون، ألمجتمع العربي، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٦٩.
٨٥) عزّت (عبد العزيز)، الإيديولوجية العربيّة والمجتمع العربي، القاهرة، ١٩٦٠.
٨٦) عز الدين (نجلا)، العالم العربي، مترجمة، ألقاهرة، بلا تاريخ.

٨٧) العظم (نزيه)، رحلة في بلاد العرب السعيدة، جزءان.
٨٨) علي (د.جواد)، تاريخ العرب في الإسلام، السيرة النبويّة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ٢١٨ ص.
٨٩) علي (د.جواد)، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٨.
٩٠) علي (محمّد كرد)، الإسلام والحضارة العربيّة، دار الكتب المصريّة، القاهرة ١٩٣٤-١٩٣٦.
٩١) عمارة (محمّد)، الإسلام والقوميّة العربيّة والعلمانيّة في قضايا عربيّة، ٧ أيار ١٩٨٠، عدد ٥، ص ٦٧-٩٢؛ (رَ: كتاب دراسات في الوعي بالتاريخ).
٩٢) عمارة (محمّد)، الإسلام والعروبة والعلمانيّة، دار الوحدة بيروت ١٩٨١، ١٨٠ ص.
٩٣) عمارة (محمّد)، فجر اليقظة القوميّة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥.
٩٤) عمارة (محمّد)، العروبة في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦٧.
٩٥) عمارة (محمّد)، الأمّة العربيّة وقضيّة التوحيد، القاهرة، ١٩٦٦.
٩٦) عمارة (محمّد)، العرب والتحدّي، طبعة الكويت، ١٩٨٠.
٩٧) عازوري (نجيب)، يقظة الأمّة العربية، تعريب د.أحمد بو ملحم، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، بلا تاريخ، ٢٣٠ ص.
٩٨) غانم (محمد حافظ)، محاضرات عن جامعة الدول العربيّة، معهد الدراسات العربيّة العالية، القاهرة، ١٩٦٠.
٩٩) غربال (محمد شفيق)، العوامل التاريخيّة في بناء الأمّة العربيّة، القاهرة ١٩٦١.
١٠٠) الغزالي (محمّد)، حقيقة القوميّة العربيّة، أو أسطورة البعث العربي، دار البيان، الكويت ط ٢، ١٩٦٩، ٢٨٤ ص.
١٠١) فارس (نبيه أمين)، من الزواية العربيّة، دار بيروت للطباعة، ١٩٥٣، ٧٢ ص.
١٠٢) فلهوزن (ي.)، تاريخ الدولة العربيّة، من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأمويّة، ترجمة محمد عبد الهادي، مراجعة حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٨.
١٠٣) فُودة (د.عزّ الدّين)، المجتمع العربي، مقوّمات وحدته وقضاياه السياسيّة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦.
١٠٤) كامل (د.محمود)، الإسلام والعروبة، تحليل لعوامل الوحدة بين عشرين دولة عربية، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، مصر ١٩٧٦، ٤٥٨ ص.
١٠٥) كامل (د.محمود)، الدولة العربيّة الكبرى، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٦.
١٠٦) كامل (د.محمود)، القانون الدولي العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٦.
١٠٧) كامل (مصطفى)، المسألة الشرقيّة، القاهرة، ١٨٩٨.

١٠٨) كاهن (ك.)، تاريخ العرب والشعوب الإسلاميّة، ترجمة بدر الدّين القاسم، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٥٧.

١٠٩) الكيلاني (مؤيّد)، كيف انتشر الإسلام؟ دار الكاتب العربي، بيروت، بلا تاريخ، ٢٨٨ ص.

١١٠) لامَنس (الأب هنري)، ألنصارى في مكّة قبيل الهجرة، المشرق، مجلد ٣٥، ص ٩٢، ١٩٣٧.

١١١) لاندو (رمضان)، الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢.

١١٢) لاندو (رمضان)، مصير القوميّة العربيّة، مكتبة الحياة بيروت، بلا تاريخ١٤٢ص.

١١٣) لوبون (د. غوستاف)، حضارة العرب، نقله إلى العربيّة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ٧٨٦ ص.

١١٤) لوتسكي (ق.ب.)، تاريخ الأقطار العربيّة الحديث، دار الفارابي، بيروت ١٩٧١.

١١٥) لويس (برنارد)، ألعرب في التاريخ، هاربر كورش بوكس، نيويورك، ١٩٦٠.

١١٦) ألمجد (أحمد كمال أبو)، بل الإسلام والعروبة معاً، مجلّة العربي، الكويت، عدد ٢٦٣، تشرين أوّل، ١٩٨٠، ص ٦-١١.

١١٧) ألمجد (أحمد كمال أبو)، دراسات في المجتمع العربي والوحدة العربيّة، ألقاهرة، ١٩٦١.

١١٨) مجلة شؤون عربيّة، شهريّة فكريّة تصدرها وحدة المجلات، عدد ١ آذار ١٩٨١، في الأمانة العامة لجامعة الدول العربيّة، تونس.

١١٩) مجموعة من أساتذة كلّيّة الآداب والعلوم السياسيّة بجامعة القاهرة، دراسات في المجتمع العربي، دار النهضة العربيّة، ألقاهرة، ١٩٦٢.

١٢٠) مجموعة من المؤلّفين، ألصراع العربي الفارسي، مؤسّسة منشورات العالم العربي،EMA باريس١٩٨١، ٣١٠ ص.

١٢١) ألمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ أجزاء في مجلّدين، تحقيق يوسف أسعد داغر، دار الأندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٧٣.

١٢٢) ألمسعودي، التنبيه والإشراف، دار صعب، بيروت، بلا تاريخ، ٣٥٢ ص.

١٢٣) معروف (د.ناجي)، أصالة الحضارة العربيّة، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٥، ٥٢٠ ص.

١٢٤) معروف (د.ناجي)، ألموجز في تاريخ الحضارة العربيّة، بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز الدوري، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٤٩.

١٢٥) مغيزل (جوزيف)، العروبة والعلمانيّة، دار النهار، بيروت ١٩٨٠، ١٩٦ ص.

١٢٦) ألمنجّد (صلاح الدين)، ألحياة الجنسيّة عند العرب، دار الكتب، بيروت ١٩٥٨.
١٢٧) ناصر الدين (علي)، قضيّة العرب، منشورات عويدات، بيروت، ط ٣، ١٩٦٣، ٢١٨ ص.
١٢٨) ألنجّار (حسين فوزي)، وحدة التاريخ العربي، مكتبة الأنجلو المصريّة، ألقاهرة، بلا تاريخ.
١٢٩) ندوة فكريّة، ألقوميّة العربيّة والإسلام، بحوث ومناقشات الندوة الفكريّة التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٨١، ٧٨٠ ص.
١٣٠) نسيبه (حازم زكي)، ألقوميّة العربيّة، فكرتها، تطوّرها، نشأتها، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٩.
١٣١) نسيبه (حازم زكي)، تعاليم القوميّة العربيّة، مطبعة جامعة كورنيل، أتاكا، نيوريورك، ١٩٥٦.
١٣٢) نصّار (د.ناصيف)، مفهوم الأمّة بين الدِّين والتاريخ، دراسة في مدلول الأمّة في التراث العربي الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ١٥٠ ص.
١٣٣) ألنقّاش (د.زكي)، دور العروبة في تراثنا اللبناني، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤، ١٧٢ ص.
١٣٤) نوفل (سيّد)، ألعمل العربي المشترك في المجال الدولي، معهد البحوث والدراسات العربيّة، ألقاهرة، ١٩٧١.
١٣٥) نيلسون (ديتلف)، ألتاريخ العربي القديم، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي، ألقاهرة، ١٩٥٨.
١٣٦) ألهمداني (أبو محمّد الحسن بن أحمد)، كتاب صفة جزيرة العرب، تحقيق محمّد عبد اللّه النجدي، ألقاهرة، ١٩٥٣، وطبع أيضًا في بريل ليدن، ١٨٨٤.
١٣٧) ألهمداني (أبو محمّد الحسن بن أحمد)، ألإكليل، بغداد، ١٩٣١.
١٣٨) وات (مونتجومري)، محمّد في مكة، تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا–بيروت، بلا تاريخ، ٢٧٦ ص.
١٣٩) ألواقدي (أبو عبدالله بن عمر)، فتوح الشام، جزءان في مجلّد واحد، دار الجيل، بيروت، بلا تاريخ، ٦٢٤ ص.
١٤٠) وصفي (عاطف أمين)، ألمجتمع العربي، دار المعارف، ألقاهرة، ١٩٦٦.
١٤١) ولفنسون (أ.ذؤيب)، تاريخ اللغات الساميّة، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠، ٢٩٦ ص.
١٤٢) وهبه (حافظ)، جزيرة العرب في القرن العشرين، ألقاهرة، ١٩٥٦.
١٤٣ وهيبه (عبد الفتّاح)، بالاشتراك مع محمّد سعودي، معالم الوطن العربي، دار الفكر، ألقاهرة، ١٩٦٤.

١٤٤) يحيى (لطفي عبد الوهّاب)، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربيّة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩.

١٤٥) ANTONIUS, GEORGES, The Arab Awakening, New York, Putmam's Sons, 1946.

١٤٦) Berger, B., L'Arabie avant Mahomet, Paris 1952.

١٤٧) BERQUE, JACQUES, Les Arabes d'hier à demain, Ed. du Seuil, Paris, 3ème éd. 1976. Réédité sous titre: Les Arabes; 3ème éd. Texte refondu et augmenté, Ed. Sandbad, Paris1979;192 p.

١٤٨) BERREBY, B.B., La Péninsule Arabique, Payot Paris 1958.

١٤٩) BLACHERE,R.,M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, Grammaire de L'arabe classique, Ed. Maisonneuve et Larose, Paris 1975, p. 510.

١٥٠) CHELLI, MONCEF, La Parole Arabe, La Bibliothèque arabe, De. Sindbad, Paris 1980,p. 326.

١٥١) Dussaud, René, La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Lib. Orient. Paul Geuthner, Paris 1955, p. 236.

١٥٢) FLoy et MANTRAN, Les Régimes Politiques des Pays Arabes, P.U.F. 1968.

١٥٣) GARDET, LOUIS, La Cité Musulmane, Vrin, Paris 1969.

١٥٤) GUIDI, L., L'Arabie antéislamique, 4 conférences données à l'Université du Caire en 1909; Paris 1921.

١٥٥) HUART, CL., Histoire des Arabes, 2 vol. Paris 1912 - 1913.

١٥٦) ISSAWI, CHARLES, The Bases of Arab Unity, Le Caire, L'Egypte contemporaine 1858.

١٥٧) JUNG, EUGENE, Les Puissances devant la Révolte Arabe. Hachette 1906.

١٥٨) LAMMENS, HENRI, La cité de Taïf à la veille de l'Hégire, Beyrouth 1912.

L'Arabie occidentale avant l'Hégire, Beyrouth 1928.

Le Berceau de l'Islam. Le Climat Les bédouins. Rome 1914.

La Mècque avant l'Hégire, Veyrouth 1930.

La République marchande de la Mècque vers l'an 600 de notre ère. Bulletin de l'Institut Egyptien, t. IV., Alexandrie 1910.

Les Chrétiens à la Mècque à la veille de l'Hégire, dans Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale, t. XIV, Le Caire 1918.

١٥٩) LEWIS, BERNARD, The Arabs in History, Revised edition, London 1958: notations intéreessantes dans le chapitre premier, Arabia before Islam, p. 21 et s.

١٦٠) LUGOL, JEAN, Le Panarabisme, Le Scribe Egyptien, Le Caire, 1946.

١٦١) Nodinot, Jean-François, 22 Etats Arabes une Nation; Ed. du Sorbier, Paris 1980.

١٦٢) O'LEARY, DE LACY, Aarbia before Muhammad, London 1927; Réimpression en New York 1973.

١٦٣) PERCEVAL, CAUSSIN DE, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, pendant l'époque de Mahomet et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane 1847; Réimpression en Graz Autriche 1967.

١٦٤) RABBATH, EDOMOND, L'Orient Chrétien à la veille de l'Islam, vol. I. Publications de l'Univ. Libanaise, Beyrouth, 1980.

١٦٥) RIZK, CHARLES, Entre L'Islam et l'Arabisme. Les Arabes jusq'en 1945. Coll. Présence du monde Arabe, Ed. Albin Michel, Paris 1983.

١٦٦) RODINSON, L'Arabie avant l'Islam, dans Encyc. de la Pléade, 1957.

Les Arabes, P.U.F. Paris 1979,p.174.

١٦٧) THOMAS, BERTRAND, Les Arabes, Payot, Paris, 1946.

١٦٨) Wolf, Jean, La Résurrection du Monde Arabe, Bruxelles, 1959.

فهرس الكتاب

سلسلة "الحقيقة الصعبة"

دار لأجل المعرفة، ديارعقل–لبنان

(قياس ١٧×٢٤ سم)

١. **قسّ ونبيّ**، بحث في نشأة الإسلام، أبو موسى الحريري، ٢٠٠١، ٣١٤ ص.

٢. **نبيّ الرحمة وقرآن المسلمين**، بحث في مجتمع مكّة، أ.م. الحريري، ١٩٨٥، ٢٠٨ ص.

٣. **عالم المعجزات**، بحث في تاريخ القرآن، أ.م. الحريري، ١٩٨٦، ٢٥٠

٤. **أعربيٌّ هو؟** بحث في عروبة الإسلام، أ.م.الحريري، ٢٠٠٧، ٢٥٤ ص

٥. **العلويّون النّصَيريّون**، بحث في العقيدة والتاريخ، أ.م. الحريري، ٢٧٢ ص

٦. **بين العقل والنبيّ**، بحث في العقيدة الدرزيّة، أنور ياسين، ١٩٨١، ٤٦٤ ص.

٧. **رسائل الحكمة**، (كتاب الدروز المقدّس)، حمزة بن عليّ، إسمعيل التميمي، بهاء الدّين السّموقي، طبعة ٥، ١٩٨٦، ٨٦٤ ص.

٨. **مصادر العقيدة الدرزيّة**، حامد بن سيرين، ١٩٨٥، ٥٧٦ ص.

٩. **السلوك الدرزي**، أنور ياسين، ١٩٨٦، ٢١٨ ص.

١٠. **مذبحة الجبل**، (حسر اللّثام عن نكبات الشام، تاريخ الحرب الأهليّة الدامية في لبنان سنة ١٨٦٠)، شاهين مكاريوس، ١٩٨٣، ٣١٠ ص.

١١. **المسيحيّة في ميزان المسلمين**، (ردّ على كتاب "الإسلام والمسيحيّة في الميزان" لـ شريف محمّد هاشم)، أ.م. الحريري، ١٩٨٩، ٢٥٦ ص.

١٢. **نَزَعنا القناع**، (ردّ على كتاب "أنزعوا قناع بولس عن وجه المسيح"، لـ أحمد زكي)، أ. جوزف قزّي، ١٩٩٧، ٣٦٠ ص

١٣. **رغبات النفس والجسد**. (ألحياة الجنسيّة في الإسلام)، أ.م. الحريري، ٢٠٠٠، ٢٨٨ ص.

١٤. **موازين «الحقيقة الصعبة»**، (ردّ على ردود)، أ.م. الحريري، ٢٠٠٠، ٢٣٦ص.

١٥. **نصارى القرآن ومسيحيّوه**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ ص.

١٦. **المسيحيّة في ردود المسلمين**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ ص.

١٧. **مسيح القرآن ومسيح المسلمين**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٢٢٤ ص.

١٨. **بين المسيحيّة والإسلام**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٤١٤ ص.

١٩. **هذا هو الإسلام**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٧، ١٤٤٠ ص.

٢٠. **الشيعة الإثناعشريّة**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٢٤٠ ص.

